د. محمد عمارة

التيار القومي الإسلامي



دار الشروق

التيار القومي الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

د. محمد عمارة

التيار القومي الإسلامي

دار الشروق

كلـمَات

[بدافع من الحب للأمة العربية ، أحببنا الإسلام ، منذ السِّنِّ اليافعة .

وبعد أن اقتربنا أكثر من فهم الإسلام ، أضحى حبنا لأمتنا يتلخص فى حبنا للإسلام ، وفى كون الأمة العربية هى أمة الإسلام .

إن هـذه العلاقـة الحميمة بـالإسلام ، هـى من النـوع التاريخى ، الموسـوم بالتجرد الخالص !

وإن ثقة عميقـة تملأ نفوسنـا بأننا أخلصنـا كل الإخـلاص ، طوال عمـرنا لأمتنا ، لمصلحتهـا ، ولتاريخها ، ولعقيدتها ، ولمستقبلهـا . وأننا كنا دومـا حيث العروبة الصحيحة والإسلام الصحيح . .]

ميشيل عفلق

٧ / ٤ / ١٩٨٦م

ميشيل عفلق فى سطور

● هو : ميشيل يوسف عفلق [١٩١٠ ـ ١٩٨٩م] . .

● ولد ـ مسيحيا ـ من طائفة الروم الأرثوذكس ـ بدمشق فى ١٩ من يناير سنة ١٩١٠م . .

● وفى دمشق ، درس حتى المرحلة المتوسطة ـ البكالوريا ـ . . ثم سافر إلى باريس . . فدرس الأدب والفلسفة والقانون ـ بكلية الآداب ـ جامعة السربون .

● وفى باريس ، مارس العمل الطلابى العام . . فانضم إلى [الجمعية العربية السورية] ، وكذلك [جمعية الثقافة العربية] . .

● وبعد إتمام دراسته الجامعية ، عاد من باريس إلى دمشق سنة ١٩٣٣م . . مشتغلا بالتدريس فى المدارس السورية . .

● وفى دمشق ، مارس النشاط الأدبى وكتابة القصة . . وأسهم سنة ١٩٣٥م فى إصدار صحيفة [الطليعة] السورية . . كما شارك فى تأسيس [ندوة المأمون] الأدبية . .

● وفى سنة ١٩٣٩م ، بدأ نشاطيه القومى والسياسى بتأسيس جمعية «الإحياء العربى» مع زميله صلاح الدين البيطار . وهى الجمعية التى انبثقت

منها، إبـان ثورة العـراق ، التى قـادها رشيـد عالى الكيـلانى ضـد الاستعمار الإنجليزى ، فى مايو سنة ١٩٤١م، حركـة «نصرة العراق» . . وهى التى كتب ميشيل عفلق وثائقها القومية . .

● وفى يونيـو سنة ١٩٤٣م، سميـت «جمعية الإحيـاء العربـى» بـ[حـركة البعث العربى] . .

● وفى سنة ١٩٤٥ ، انعقـدت بدمشـق أولى حفلات «حـزب البعث» . . وكان عدد أعضـائه يومئذ أربعمائة عضو، أغلبيتهـم مـن الطلاب . . وفى شهر إبـريل سنـة ١٩٤٧م انعقـد ــ بدمشـق ــ المؤتمر التـأسيسى الأول للحـزب ، وانتخب ميشيل عفلق أمينا عاما له . .

● تولى ميشيل عفلق وزارة المعارف فى سورية سنة ١٩٤٩م . .

● تزوج فى أغسطس سنة ١٩٥٩م ـ وسنه ثمانية وأربعون عاما ـ من الطبيبة أمل بشور.

● وفى ٣ ـ ٨ ـ ١٩٧١م، صدر بـدمشق حكم بإعدامه ـ وكـان قد غادرها قبل خمس سنوات ـ . . ثم صدر عفو عنه فى ٢١ ـ ١١ ـ ١٩٧١م . .

● استقر به المقام فى العراق، منذ سنة ١٩٧٥م . بعد أزمته مع قيادة الحزب بسورية فى منتصف الستينيات .

● توفى فى يوم الجمعة ٢٤ ـ ٦ ـ ١٩٨٩م ـ أثناء علاجه بباريس . .

● دفن ببغداد، وفق التقـاليد الإسلامية . . حيث أعلنت القيـادة القومية لحزب البعث، أنه قد سبق أن اعتنق ديـن الإسلام . . لكنه «لم يرغب هو ولا رفاقـه فى القيادة إعلان ذلـك حرصا منـه ومنهم على ألا يعطى هـذا الخيار أى تأويل سياسى» . .

● فى تكوينه الفكرى ، تجاورت وامتزجت وتفاعلت قراءاته عن رسول الإسلام محمد بن عبد الله ، ﷺ . . مع آثار أبى العلاء المعرى . . والمتنبى . . وإسماعيل مظهر . . وشبلى شميل . . وجورجى زيدان . . ونيتشة . . ودستويفسكى . . وكارل ماركس . . وغيرهم من الأدباء والفلاسفة والمفكرين ودعاة الإصلاح والثوار . مع ميل واضح للآثار الأدبية والفلسفية . .

ولقد عبر عن أصول فلسفته القومية بقوله :

« إن فكرتنا ، فلسفتنا القومية ، بلغت درجة الوضوح والتماسك قبيل الحرب العالمية الثانية ، بعد تجارب فكرية وعملية ، وبعد الاطلاع على المذاهب الفكرية السياسية المعاصرة ، كالماركسية وسواها من المذاهب الفلسفية والسياسية المختلفة ، وبعد تكون خميرة أدبية من المطالعات وقراءة الشعر والقصص والروايات . .

لقد بدأت حياتى بالأدب ، ومع ذلك فلا أريد القول بأننى أديب . وكنت أعطى القيمة الأولى للأدب والأدباء فى الفترة بين سن الخامسة عشرة والعشرين ، ولكن نوع الأدب الذى كنت أقرؤه ، حتى فى صغرى ، كان على الأكثر أدبا فلسفيا . فقد قرأت المعرى ، مثلا . . لزومياته ، وسقط زنده ، وأنا فى السادسة عشرة من العمر ، وانتقيت لنفسى مختارات من اللزوميات . . وكذلك المتنبى ، قرأته وأنا فى تلك السن نفسها .

ولما ذهبت إلى باريس للدراسة ، بعد حصولى على البكالوريا ، كان الأدباء الذين أغرتنى كتبهم ، أدباء مفكرين . لذلك ، كان من الطبيعى الانزلاق من الأدب إلى الفلسفة ! وأول فيلسوف تعرفت عليه ، عن طريق الأدب ، هو نيتشة . . وقد شغل مكانا خاصا فى مطالعاتى كما أعجبت غاية الإعجاب بالقصصى الروسى دوستو يفسكى . .

لقد كنت أمتص الآثار الأدبية والفنية التى أصادفها، ولا أقرؤها كناقد! ، فيخلق تراكم المطالعات خميرة من العمق والغنى الروحى يجنب الفكر السياسى والفكر الاجتماعى خطر السطحية وخطر الابتعاد عن طبيعة النفس الإنسانية وحقيقة متطلباتها، كما أنه يمكننا من معرفة أبعاد النفس الإنسانية وغناها»[1].

● بلغت كتاباته السياسية المجموعة والمطبوعة ـ [فى سبيل البعث ـ الكتابات السياسية الكاملة] ـ قرابة ألفى الصفحة ـ فى خمسة مجلدات ـ . . وذلك، غير ماتناثر فى كتاب [نضال البعث] البالغ ثلاثة عشر جزءًا . . فمشروعه الفكرى . . هو أشهر وأبرز المشروعات الفكرية للمفكرين القوميين العرب المعاصرين.

---

(١) [فى سبيل البعث]: جـ ٥، ص ٣٢، ٣٣. طبعة بغداد، سنة ١٩٨٨م.

مقدمات تمهيدية

- ١ -

لو أن سائلاً سألنى ، قبل أحد عشر شهرًا من كتابة هذا الكتاب ، عن إمكانية أن أفرغ لدراسة كتابات الأستاذ ميشيل عفلق [١٣٢٨ - ١٤٠٩هـ ، ١٩١٠ ـ ١٩٨٩م] لأكتب عنه ـ أو عن أحد جوانب مشروعه الفكرى والسياسى - كتابا . . لأثار هذا السؤال عندى الكثير من الاستغراب . . بل والاستنكار !! .

وذلك ، لا لتزاحم القضايا الفكرية الإسلامية الجوهرية والملحة على العقل ، فى هذه الحقبة ، فقط . . ولا لضيق الوقت عن إنجاز المشروعات الفكرية التى تم الاتفاق عليها ، وتحددت المواقيت لإنجازها ، فحسب . . وإنما ، أيضا ، للمسافة التى تفصل بين اهتماماتى الفكرية الراهنة وبين فكر الأستاذ ميشيل عفلق !! . .

لقد جمعتنى علاقات صداقة واحترام ومودة ، مع عدد كبير من مفكرى حزب البعث العربى الاشتراكى ومثقفيه ومناضليه . . وإذا كنت لم أقرأ ، على نحو منظم ، وبمنهج الباحث الدارس ، أعمال مؤسس هذا الحزب ومفكره الأول وفيلسوفه الأكبر ميشيل عفلق إبان حياته . . إلا أن صورة هذا الفكر

عندى كما عرفتها من علاقاتى بمـن عرفت من البعثيين ، وكما عايشتها خلال الممارسات الحزبية التى كنت شاهدا عليهـا ، وعلى مقربة منها ، بل ومحتكا بنفر من البعثيين خلالها منـذ حقبة الدراسة الجامعية فى عقد الخمسينيـات ـ صورة هذا الفكـر ، الذى صاغـة ميشيل عفلق ، كانـت لدىّ ، كما هى لـدى جمهرة الإسلاميين ، بـل وجمهرة البعثيين ! ! صورة : «المشروع الفكـرى ـ السيـاسى ـ الحضارى ـ الاجتماعى » القومى ـ الاشتراكى ـ العلمانى . . الـذى ، وإن مثّل تيارا مـن تيارات التغيير والتجـديد فى واقعنا العـربى ، متميـزا إلى حد المغـايرة والعداء ـ عن تيارات الـرجعية والجمود . . إلا أنـه ، أيضا ، متميز ـ إلى حد المغايرة والعداء ـ عن التيار الإسلامى ، الذى يتخذ من الإسلام منطلقا للإحياء والتجديد والنهضة والتغيير . .

فصورة «المشروع البعثى» عندى ـ إلى مـاقبل الشروع فى العمل لإخراج هذا الكتـاب ـ كـانـت هـى صورة « المشروع» المغـايـر للمشروع الإسـلامى ، بـل والمنافس له . . سلما كانت المنافسة أو عنفا ! ! . .

فـإذا أضفنا إلى هـذه « الصـورة» : «علامـات استفهـام» سلبيـة ، قامـت واستقرت فى ذهنى ، حول دور « البعث» فى انفصـال وحدة مصر وسورية سنة ١٩٦١م . . وفى مباحثات الوحدة بين مصر وسورية والعراق سنة ١٩٦٣م . . وفى الصراع الـلامبدئى بين جنـاحين وسلطتين تلتزمـان بذات الحزب ونفـس المشروع ـ فى سـورية والعـراق ـ . . إذا أضفنا «عـلامات الاستفهـام» هذه إلى «الصـورة» التـى تكـونـت لدىّ عـن عـلاقـة « المشروع البعثـى» بـ «المشروع الإسلامـى» . . كان التفكير ـ من جـانبى أو من جـانـب مـن يعرف مـوقعى الفكرى ـ فى الكتابة عن ميشيل عفلق مدعاة للاستغراب . . فلا أنا متعاطف مـع « المشروع البعثى» لأكتـب عـن فيلسوفـه ، عـارضـا فكره على النـاس . .

ولاطبيعة المرحلة التى تعيشها أمتنا وأولوية القضايا التى تلح على العقل المسلم، تجعل من نقد «المشروع البعثى» قضية تأخذ الأولوية فى جدول الأعمال! . .

تلك هى «الصورة». . وهذا هو «الموقف»، إلى ماقبل أحد عشر شهرا من الشروع فى كتابة هذا الكتاب على وجه التحديد. . فكيف . . ولماذا تغير الحال. . واحتلت دراسة «المشروع الفكرى» للأستاذ ميشيل عفلق الأهمية التى جعلتنى أعطيه عاما كاملا ـ للقراءة والتأمل ـ . . والأولوية التى جعلتنى أشرع فى كتابة هذا الكتاب، قبل غيره من الكتب «المعلقة». . ربما منذ سنوات ؟! . .

ـ ٢ ـ

لقد توفى الأستاذ ميشيل عفلق فى ٢٤ ـ ٦ ـ ١٩٨٩م. . وكنت يومئذ أشارك فى ندوة علمية عن «السُّنّة النبوية : مصدر للمعرفة والحضارة»، نظمها فى «عمّان» ـ بالأردن ـ «المعهد العالمى للفكر الإسلامى» ـ بواشنطن ـ و«المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية» ـ بعمان ـ . . وكانت أعمال الندوة، فى تلك الأيام، شاغلة لى عن متابعة ماكتب عنه من مقالات وأخبار وتحليلات . .

وفى مطار «عمان»، ونحن عائدون إلى القاهرة، وكنا بصحبة شيخنا محمد الغزالى، انضم إلينا الأستاذ الدكتور خير الدين حسيب ـ مدير مركز دراسات الوحدة العربية ـ الذى سمعت منه، وللمرة الأولى، مضمون ماجاء فى بيان القيادة القومية لحزب البعث عن اعتناق الأستاذ ميشيل للإسلام، قبل وفاته،

وكيف أنه ـ حسب نص البيان ـ «لم يرغب هو ولا رفاقه فى القيادة إعلان ذلك حرصا منه ومنهم على ألا يعطى لهذا الخيار أى تأويل سياسى . . »[1].

وسمعنا ، كذلك ، عن دفنه وفق التقاليد الإسلامية . . وسمعنا ، أيضا ، رأى شيخنا الغزالى فى ميشيل عفلق . . وكيف أنه كان كتيبة من كتائب الصليبية العالمية العاملة فى صفوف العرب والمسلمين ! . .

فى هذا اللقاء . . بدأ خيط الاهتمام بفكر ميشيل عفلق يتخذ له مكانا فى عقلى واهتماماتى الفكرية . . وتخلق لدى سؤال يقول : ماذا لو حاولت تبين أثر اعتناقه للإسلام فى مشروعه الفكرى؟! . ومتى . . وكيف . . وعلى أى نحو كان تأثير اعتناقه للإسلام فى ملامح هذا المشروع؟! .

إنه أمر مهم . . بل ومثير . . يستحق الاهتمام . . فاعتناق ميشيل عفلق للإسلام ، وتدينه به ـ وهو الأمر الذى نصدقه ورفاقه فيه ، ونسعد به كل السعادة ـ ليس بالأمر الذى يمر عليه أهل الفكر مرورهم على اعتناق « أحد من الناس» دين الإسلام . . لأن الرجل واحد من أبرز مفكرى وقادة التيار القومى العربى فى العصر الحديث . . وأستاذ تتلمذ وتتتلمذ عليه أجيال من المناضلين والمفكرين والمثقفين . . وأهم من هذا ، فإذا كان اعتناقه للإسلام قد صحبه تطور فى مكانة الإسلام بمشروعه الحضارى ، كانت القضية أكبر من اهتداء قائد ومفكر إلى دين الإسلام . . وغدت تحولا فى المشروع القومى الذى صاغه هذا المفكر، والذى تبناه ، ولايزال ، تيار فكرى وسياسى مؤثر فى واقعنا الفكرى والسياسى . . فالقضية ليست من القضايا التى طويت بانتقال الرجل إلى بارئه ، وإنما هى واحدة من القضايا المطروحة ، اليوم وغدا ، على التيار الفكرى

---

(١) انظر نص البيان فى صحيفة [الوطن] الكويتية : عدد ٢٥ ـ ٦ ـ ١٩٨٩م .

والسياسـى الذى يتبنـى هذا المشروع القـومى ، كما صـاغه وطـوره هذا المفكـر الفيلسوف ! . .

-٣-

ومرة ثانية ، عادت القضية تلح علىّ ـ كى أشرع فى دراستها ـ من جديد . .

ففـى الفترة مـن ٢٥ حتـى ٢٧ من سبتمبر سنـة ١٩٨٩م . . دعـا «مـركـز دراسات الـوحدة العربيـة» إلى ندوة ـ عقـدت بالقاهـرة ـ عن «الحوار القـومى الدينى» . . شارك فيهـا لفيف من أبرز مفكرى التيار القومـى العربى ، والتيار الإسلامى . . ومما استلفت نظرى ـ وقد شاركت فى أعمال هذه الندوة ، ووقائع الحوار الذى دار فيهـا ـ أن بعض أوراق العمـل التى قـدمت إليها قـد تبنت ، عند الحديث عـن علاقة « العروبة» بـ «الإسلام » تلك الصيغة التـى صاغها ميشيل عفلق فى بدايـة حياته الفكرية والسياسية . . وهـى الصيغة التى تختزل «الإسلام» إلى مجرد «مقوم من مقومات القومية العربية»[٢] . . مع إغفال التطور الفكرى الواضح والحاسم الذى حدث لفكـر الرجل فى هذا الموضوع . . الأمر الذى جعلنى أشير فى أثنـاء هذا الحوار إلى خطأ إغفال هـذا التطور الفكرى ، الذى وصل بميشيل عفلق إلى عكس هـذه المعادلة تماما . . فلقد انتهى إلى أن الإسلام هـو الأصل والمحـور والمكون الأول والأب الشرعى للقـومية العـربية ، والأمة العربية . . وقلت ، فى هذه الإشارة بوقائع ذلك الحوار:

---

(٢) انظر ورقة العمل التى قـدمها الأستاذ الدكتور محمد عابد الجابـرى «حول الحوار القومى الدينى» : ص ١٢٢ من الكتاب الذى يضـم أعمال النـدوة [الحوار القومى ـ الدينى] . طبعة بيروت ـ الأولى ـ ديسمبر ، سنة ١٩٨٩م .

« . . ليس الإسلام «مجرد مقوم من مقومات القومية العربية» . . وإنما العكس هو الصحيح . فالعروبة ـ ومعيارها اللغة ـ متَضَمَّنَةٌ فى الإسلام . ثم إن صاحب هذا التعبير ـ تعبير: إن الإسلام واحد من مقومات القومية العربية ـ هو ميشيل عفلق ، وهو صاغه فى الأربعينات ، وأعتقد أن صاحب هذا الشعار قد طور فكره إزاءه ، بل لقد اهتدى إلى الإسلام فاعتنقه . وأنا أتمنى أن ندرس دلالة اهتداء أبى القومية العلمانية فى المشرق إلى الإسلام . وفى حدود متابعاتى المحدودة ، فإن« عفلق» منذ خطابه فى إبريل سنة ١٩٨١م ـ فى ذكرى تأسيس البعث ـ قد تجاوز هذه الصياغة التى تختزل الإسلام كمجرد مقوم من مقومات القومية العربية ، وتحدث عن الإسلام باعتباره المقوم الرئيسى لقوميتنا ، وباعتباره جوهر الأسس التى لابد من قيام نهوضنا الحديث عليها . فهذه الصياغة ، إذن قد تجاوزها حتى واضعوها . . »[٣] .

وعندما رأيت علامات الاستفهام الكثيرة حول حقيقة ومدى التطور الذى حدث لفكر ميشيل عفلق . . ورأيت بعض الشك فى هذا الذى أشرت إليه . . أدركت مدى أهمية القضية . . ومدى الحاجة إلى دراستها ، لنصل فيها إلى الخبر اليقين . .

بل لقد تذكرت ، يومئذ ، ما حدث لى فى شهر إبريل سنة ١٩٨١م . . فلقد كنت يومئذ فى زيارة لبغداد بدعوة من جامعتها لإلقاء عدد من المحاضرات على أساتذة قسم السياسة ـ بكلية القانون والسياسة ـ وطلبة الدراسات العليا فيه . . وسمعت ـ وأنا بالفندق ـ خطاب ميشيل عفلق ، فى ذكرى تأسيس حزب البعث ـ ٧ إبريل ـ فاسترعى انتباهى فى حديثه عن علاقة العروبة بالإسلام هذا التغير وهذا التطوراللذان أشرت إليهما . . حتى لقد احتجت إلى

(٣) المرجع السابق : ص ١٢٢ .

أن أتأكد مما سمعته أذناى!! . . فأعدت قراءة الخطاب فى الصحف العراقية صباح اليوم التالى! . . فلما عدت إلى القاهرة ، تحدثت إلى واحد من كبار المثقفين البعثيين - غير الحركيين [٤] - عن هذا الذى سمعت . . فرفض - فى استنكار و إنكار - أن يقول عفلق هذا، وأن يصل الإسلام فى فكره - إزاء العروبة - إلى هذا المستوى الجديد !! .

تذكرت ، وأنا فى ندوة « الحوار القومى - الدينى » سنة ١٩٨٩م . . ذلك الحوار الذى حدث فى إبريل سنة ١٩٨١م . . فتزايدت لدى دواعى دراسة هذا الموضوع ! . .

- ٤ -

ثم جاءت دعوة « الجمعية العربية للدراسات السياسية » و« مركز الدراسات السياسية » بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - بجامعة القاهرة - إلى ندوة عن ميشيل عفلق ومحاور مشروعه الفكرى - وهى الندوة التى عقدت بالقاهرة فى مارس سنة ١٩٩٠م . . ولقد طلب منى القائمون على تنظيمها أن أكتب عن محور: « الإسلام فى فكر ميشيل عفلق» . . فكانت الفرصة التى انتقلت بالنية والرغبة إلى ميدان الممارسة والتطبيق . . فبدأت ، فجمعت كل كتابات الرجل ، وشرعت فى جمع مادة « البحث» . . لكننى وجدت الأمر أكبر وأخطر من أن يختزل فى صفحات تقدم إلى ندوة . . فعزمت على استكماله ، ليخرج فى هذا الكتاب ! . .

---

(٤) هو الأستاذ الدكتور محمد أحمد خلف الله .

ولقد يكـون مفيدا أن أشير ، فى هـذا المقام ، إلى بعـض التساؤلات والآراء التى قـد ترد حول دراستى لهذا الموضـوع . . موضوع : الإسلام فى فكـر ميشيل عفلق . . كنموذج لموقف التيار القومى من الإسلام . .

● فحول ميشيل عفلـق ، كُتبت ـ قبل وفاتـه وبعدها ـ العديـد من الكتب والدراسات . . وقد يـرى البعض أنه لامجال لجديد بعد الذى كتبـه عن الرجل مفكرون ومثقفـون وساسة بـارزون ، كان الكثيرون منهـم على مقربة مـن فكره ونضاله ، بل ومن حياته الخاصة لعقود عديدة من حياته الفكرية والنضالية . .

لكن الحقيقة التى توصلت إليها ، والتـى يقوم هذا الكتاب شاهدا عليها ، أن الأمر على عكس هذا الظن الذى يظنه هؤلاء . .

فـالذيـن كتبـوا على فكر ميشيـل عفلـق ، سـواء أكانـوا مـن محبيه أم مـن الكارهين لـه . . بعثيين كانوا أم غير بعثيين ، قد صمتـوا صمتا كامـلا أو شبه كامـل عن دلالة اعتنـاقه للإسـلام . . وأهم من ذلـك صمتوا ـ بحسـن نية أو بسوئهـا ـ عـن الاهتمام بدراسـة مسار الخط البيـانى لمكـانة الإسـلام فى مشروعه الفكرى وحياته النضالية . .

لقد أعلنت القيـادة القومية لحزب البعث ، فى بيـان نعيها للرجل أنـه « قد اعتنق الإسلام دينـًا » . . وكتبت مجلة « الوطن العـربى » ـ وهى مجلـة بعثية ـ أن «القيادة القومية قد أعلنت فى بيان نعيها له ـ وأول مرة ـ عن مدى إدراك الراحل ميشيل عفلـق للعلاقـة الجدلية بين الإسـلام وبين العروبـة ، حيث قـاده هذا الإيمان والفعل العميقان بترابط القـومية بالدين فى اعتناقـه الإسلام ، دينا ، ولم يرغب هو ولا رفاقه فى القيادة فى الإعـلان عن ذلك ، حرصا منه ومنهم على ألا يعطى لهذا الخيار أى تأويل سياسى »(٥) .

---

(٥) [الوطن العربى] : العدد ١٢٠ ـ ٦٤٦ ، فى ٣٠ ـ ٦ ـ ١٩٨٩م .

ولقد شهـد العالم كيـف تمت مراسـم دفن الـرجل وفـق الشعائر والتقـاليد الإسلامية . . ومع ذلك . . فإن عـددا من أقرب الناس إلى فكـره وشخصه ، عندما يكتبون عنه ، نراهم يتجـاهلون هذا الحدث ، وما له من دلالات . . نرى ذلك فيما كتبه الأساتذة ـ المفكرون . . والمثقفون . . والقادة البعثيون ـ : شبلى العيثمى ــ الأمين العام المساعـد لحزب البعث العـربى الاشتراكى ــ . . وعبد المجيد الـرافعى ـ أمين سر القيادة القطـرية لحزب البعث العربـى الإشتراكى فى لبنان ــ . . وزيد حيدر ــ سفير العراق فى بروكسيل ــ ورئيس البعثة العـراقية لدى السوق الأوربية المشتركة ـ . . وناصيـف عواد . . وناصر سابا . . وإلياس الفرزلى ــ وهو من أصـدقاء البعث ــ . . لقد كتبوا جميعـا ، فتحدثوا عـن أهم نواحى فكر ميشيل عفلق وحياتـه ، دون أى إشارة إلى اعتناقه للإسلام ، فضلا عن دلالات هذا الإسلام . وانعكاساته فى مشروعه الفكرى (٦) !! . .

و إذا كان مـن حق المرء أن يـرتاب فى « الـدلالات العلمانية» لهذا التجـاهل لحدث يزلزل من مشروعية « الخيار العلمانى » للحزب الذى أسسه وقاده وصاغ مشروعه الفكـرى ميشيل عفلـق . . فإن هـذا الارتياب ، فى هـذه « الدلالات العلمانية» يـرسـخ ويتأكـد عندما يصل الأمـر إلى حد التشكيك ــ لا لشىء إلا «بمنطق التكفير» !! ـ فى اعتناق الرجل للإسلام !! . .

فالأستاذ الدكتور سعد الدين إبراهيم . . عندما يسأله الأديب جهاد فاضل ـ فى حوار معه لمجلـة [الحوادث] ـ عن رأيه فى دلالة اعتناق عفلـق للإسلام ، قائلا له : « لقد عادت قضية العلاقة بين العروبة والإسلام لتطرح من جديد فى الفكر القـومى ، وبخاصـة بعد اعتناق الأستـاذ ميشيل عفلق ، قبـل رحيله ،

(٦) مجلة [الوطن العربى] : العدد ١٢١ ـ ٦٤٧ ، فى ٧ ـ ٧ ـ ١٩٨٩م .

للإسلام » . . إذا بالدكتور سعد الدين إبراهيم يشكك فى حقيقة إسلام الرجل . . بل وينفى عنه « التدين » من الأساس !! . . فيقول : «ربما كان الأستاذ ميشيل عفلق ، الذى لم يُعرف عنه التدين ، فى رأيى ، قد خطا خطوته هذه ليقلل أو يقلص المفاضلة الوهمية ، أو المساجلة الزائفة بين العروبة والإسلام من ناحية . وكان دائما يشكك فى منشأ حزب البعث العربى الاشتراكى ، أن بعضهم من أصول مسيحية ، وكان يستخدم هذا كذريعة للتشكيك فى دعوتهم القومية . . » .

ثم يمضى الدكتور سعد الدين إبراهيم ليقول ـ فى ثقة صاحب الولاية والسلطة الدينية على ماتكنه القلوب والضمائر من معتقدات !! ـ يمضى ليقول : «**أنا أعتقد أن اعتناق ميشيل عفلق الإسلام كان اعتناقا رمزيا فقط ، كى يضعف من هذه الحجة** . . » (٧) !!

فالبعض يتجاهل الحدث ، ودلالاته . . والبعض يشكك فى «تدين» الرجل . . ويتحدث عن « الإسلام الرمزى » ، الموظَّف لنفى تهمة التأثيرات المسيحية فى حزب البعث ومشروعه الفكرى . . مع أن هذا « المنطق» لو كان له نصيب من «المنطق» ، لاختار ميشيل عفلق أن يعلن هذا «الإسلام الرمزى» منذ بداية حياته الفكرية ونضاله الحزبى . . وإلا فما قيمة إضعاف الحجة ، ورد التهمة ، بعد نصف قرن من قيامها وعمومها ورسوخها ؟! . . بل وبعد وفاة المتَّهم ؟! . .

ولا أخفى على القارئ ، أن هذا المستوى من مستويات « الدلالات العلمانية» ، التى بلغت هذا المبلغ لحجب أى انتصار للإسلام ، وللتغطية على

---

(٧) انظر هذا الحديث فى نشرة [المنتدى] ـ التى يصدرها «منتدى الفكر العربى» ـ بعمان ـ العدد ٥٠ نوفمبر سنة ١٩٨٩م .

المعنى الفكرى والسياسى والنضالى والحضـارى الذى يرتبه إسلام مفكر فى وزن ميشيل عفلق على عمـوم التيار القوى العربى ، وسائر رمـوز الفكر العلمانى فى بلادنا ـ وذلك هو الأمر المستقبلى والأكثر جـوهرية وخطرًا فى هذه القضية ـ . . لا أخفـى على القـارئ أن هـذا المستـوى مـن مستويـات التعـامـل مـع هـذا الحدث . . هـو الذى استنفـرنى ، فحفـزنـى على أن أعكف على فكـر الرجـل ومسيرة نضاله ، لأكشف عـن حقيقة موقفه من الإسلام . . الإسـلام الدين . . والثورة . . والحضـارة . . والمشروع الفكرى . . ولأعـرض على مختلف الفـرقاء ـ قوميين وإسلاميين ـ الدلالة المستقبلية لمسيرة ميشيل عفلق مع الإسلام . .

● ولقد يكون مفيدا أن أشير فى هذا المقام إلى أن موقعى الفكرى من كتابات ميشيل عفلق ومشروعه الفكرى ومسيرته النضاليـة ، قد مثل «العامل المساعد» على أن «أكتشـف» فى فكره مـا لايستطيع أن يكتشفـه فيـه تلاميـذه ومريـدوه الأقربون . . أو خصومه المناوئون ! ! .

لقد كنت ـ منـذ منتصف عقد الخمسينات ـ على مقربـة من فكر البعث ، أعرف ملامحه العامة ، وقسماته الرئيسية ، وتـوجهاته المحورية . . لكننى لم أقرأ هذا الفكـر ولم أستوعـب أدبياتـه قراءة المتتبـع الملتزم ، الـذى تحول « الألفة» ـ فضـلا عـن «الالتـزام» ـــ بينه وبين « اكتشـاف» الملامـح والـدلالات التـى لا «يكتشفها» أهل « الألفة » و«الالتزام » ! . .

كذلك ، لم يكن فكر هذا المشروع غريبـا عنى ، حتى تستغلق علىّ خفاياه وإشاراته ومراميه . . ولا أنا بالرافض له والمعادى لوجوده فى الساحة العربية ، حتى يدفعنى الرفض والعداء إلى غمط مبدعيه والمناضلين فى سبيله المقام الذى يستحقون . .

ولقد أعاننى هذا « الموقـع الملائم» على أن أكتشف فى فكر ميشيل عفلق ،

ربما ما لم يكتشفه الكثيرون . . وهذه حقيقة من حقائق معاناة البحث والدراسة ، سبق لى وخَبرتُها واستيقنت من ثمراتها ، عندما كتبت الكتب والفصول التى كتبتها عن الإمام الشهيد حسن البنا [١٣٢٤ ــ ١٣٦٨هـ ، ١٩٠٦ ــ ١٩٤٩م]، والعلامة المجاهد أبو الأعلى المودودى [١٣٢١ ـ ١٣٩٩هـ ، ١٩٠٣ ـ ١٩٧٩م] ، والشهيد سيد قطب [١٣٢٤ ـ ١٣٨٦هـ ، ١٩٠٦ ـ ١٩٦٦م] ، والشيخ محمد الغزالى . . وهى دراسات شهد المنصفون من تلاميذهم ومريديهم أنها قد اكتشفت فى فكرهم ماكان غائبا عن كثير من هؤلاء المريدين ! . .

ولقد زاد من اطمئنانى إلى هذه الحقيقة ، وإلى ثمراتها . . ما وجدته من إشارات إليها فى حديث ميشيل عفلق عن علاقته بالإسلام . . وكيف أن موقع « العارف» الذى «لم يألفه»، قد أعانه على أن يكتشف فى هذا الدين ما لم يكتشفه الذين ورثوه دون بحث وكد ومعاناة ! ! . .

يقول الرجل عن هذا « الواقع الذاتى » ، و«الظرف الخاص» الذى أعانه على « اكتشاف » الإسلام :

« . . قراءة جديدة للإسلام ، كشفت لنا عن حقائق أساسية فى روح شعبنا ونفسيته ، وأضاءت لنا طريق العمل الثورى . . وثمة واقع ذاتى ، جاء فى الوقت نفسه تعبيرا عن واقع موضوعى . الواقع الذاتى : هو أننى شخصيا ، فى بداية تكوين الحزب اكتشفت الإسلام . أقول : اكتشفت ، ولا أعنى أننى لم أكن أعرف الإسلام . . فقد كانت هناك ألفة منذ الصغر . . اكتشفت الإسلام كثورة . . كتجربة ثورية هائلة ، وقرأته قراءة جديدة من هذا المنظار . فى أنه : عقيدة ، ونضال فى سبيلها . . وقضية هى قضية أمة ، وقضية إنسانية . . بل إنه قضية أمة بتصور إنسانى أوسع . . ونضال على أروع مايكون بأعلى مراحله

وبما فيه من تنظيم دقيـق وتثقيف ، إلا أنه ، أيضا ، دين . فهو تجربـة ثورية ، السماء فيها متداخلة مع الأرض . . .

إن المسلـم لا يكتشف الإسـلام . . وكـذلك البعيـد عـن الإسلام . الـذى يكتشـف ، ينبغـى أن يجمع بين الاستعـداد النفسـى وبين الجدَّة . . أى ذلـك الذى لم تضعف العادة والألفة حساسية عينيـه وأذنيه . . فالمسلم الذى نشأ فى بيت مسلم من طفـولته ، واعتاد دوما سماع الكلام عن الإسـلام ، يتكون عنده نوع من الضعف فى رهافة الحس والذهـن ، فلا يرى الجديد فى هذا الكلام ، ولا يـدرك المعنـى العميـق والهزة الروحيـة ، ، كما يحصـل حين يهزك الكـلام الـذى تسمعه لأول مرة . . » (٨) .

فموقعى من فكر البعث وأدبيات المشروع الـذى صاغه ميشيل عفلق ، قد أعان على أن أكتشف مـن حقائق موقفه إزاء الإسـلام - ماسيراه القارئ ــ مما لم يكتشفه آخرون ! . . كما أعانه هو «الاستعداد النفسى» و«الجِدَّة» على أن يرى فى الإسلام مـا لم يره فيه كثيرون ممـن ألفوه ألفة الورثـة الذين غـابت عنهم رهـافة الحس والذهن ، فلم يدركوا المعنى العميق ومصدر الهزة الروحية فيها ورثوه ! ! .

- ٥ -

وهنا ، لابد لنا من وقفة تأمل وتفسير واستخلاص لحقائق « تاريخ» ميشيل عفلق مع « التدين بالإسلام» . .

فالـرجل ، فى هـذا النص الذى أوردنـاه له يحدثنا عـن أن قراءتـه الجديدة

---

(٨) ميشيل عفلق . حديث مع مجلة [آفاق عربية] : ص ٥ - عدد إبريل ، سنة ١٩٧٦ م .

لـلإسلام ، واكتشـافـه لهذا الإسلام ، قـد حـدثـا فى مطلع حيـاتـه الفكريـة والسياسيـة ـ دون تحديد دقيـق لهذا التاريـخ ـ . . ثم إنـه يحدثنا ، فى عشرات النصوص ، التى ستمتلئ بها صفحات هذا الكتاب عـن حقيقة ، لايفتأ الرجل يسلط عليهـا كل الأضـواء . . حقيقة أن الذى جعلـه ورفاقـه الأوائل يختارون صيغة «البعـث» و«التجديـد» لتراث الأمة وهويتهـا ، وليس صيغـة « الليبرالية الغربيـة» أو «الماركسية الغربيـة» ، أن السبب الأول والأوحد فى هـذا الاختيار ، المبكر ، هو اكتشافه للإسلام . . فكان الاختيار لطريق «البعث» و«التجديد» ، هـو الذى ميّـز مشروعـه الفكرى عـن تلـك المشروعات التـى اختـارها عـرب آخرون . .

وفـوق ذلـك ، وأهـم ، أن الـرجـل « يشير» ، دون أن «يعلـن» ، إلى أن اكتشافه للإسلام ، وامتلاكه له ، وتبنيه لصيغته منذ ذلك التاريخ المبكر لم يقف فقـط عنـد حـدود «الإسـلام الثـورة» ، و«الإسـلام الحضـارة» ، و«الإسـلام التراث» ، و«الإسلام كهوية للأمة» و«كرسـالة إنسانية خالدة » لها . . وإنما كان الاكتشاف والاختيار « للإسلام : الـدين السماوى . . والوحى الإلهى» . . وأن ما اكتسبه الـرجل من هذا الاكتشاف لم يقـف ، فقط ، عند «المعنى العميق» ، وإنما كانت هناك ، أيضا ، «الهزة الروحية» ! ـ لقد اكتشف الإسلام الشامل . . وصدّق به . . وإن كان قد استدعى منه لمشروعه الفكرى «الجوانب الحضارية» ـ على النحو الذى سنتحدث عنه ، فيما بعد ، بالتفصيل ـ .

فهل فى هذه « الإشارات» مايفصح عن أن تاريـخ « تدين » الرجل بالدين الإسلامى قد كان منذ فجر حياته الفكرية والسياسية ؟ ! . .

لنستعـن ـ قبـل أن نحكـم الحكم المطمئـن ـ بمدد جـديـد من نصـوص الرجل ، ذات الدلالة فى هذا الموضوع الهام . . يقول الرجل : «إن طريق البعث

كان نتيجة اكتشاف الإسلام[٩] . . لقد كانت اللحظة التاريخية فى حياة الثورة العربية المعاصرة هى سلامة الاختيار . . وقد كان الموقف من التراث القومى ، أى من الإسلام ، وعلاقته الوثيقة بمرحلة الانبعاث القومى المعاصرة ، معبرا عن أحد الاختيارات الكبرى لفكر البعث . . ولأن هذه النقطة الأساسية لم تعط حتى الآن الاهتمام الذى تستحقه - [يقول هذا الكلام فى ٧ من إبريل سنة ١٩٧٧ م] - بل بقيت مجهولة من الكثيرين ، كان لابد ، حرصا على المستقبل وسلامة الاتجاه ، من الإشارة الصريحة إلى ذلك . والتتمة على الأجيال البعثية الصاعدة[١٠] ! ! » .

فهو يشير إلى مركزية لحظة الاختيار للإسلام ، ودور هذا الاختيار فى تميز صيغة المشروع الفكرى ، وينبه على أن هذه الحقيقة ظلت - [حتى تاريخ هذا التنبيه : سنة ١٩٧٧م] - مجهولة ، لم تعط الاهتمام الذى تستحقه . . ويحث الأجيال البعثية الصاعدة على جلاء معالم « هذه النقطة الأساسية » ومتطلبات هذا الاختيار ! !

ثم يعاود ، مرة ثانية ، الإشارة - فى سنة ١٩٨٢ م - إلى لحظة البدء والاختيار هذه ، فيقول : « . . بالنسبة إلى بذور فكرة البعث ، التى كانت أرض سورية العربية موطنها الأول . . كانت بداية لقاءين حاسمين فى أثرهما العميق : لقاء مع الفكر العلمى العقلانى التحررى الحديث ، ولقاء مع الإسلام العربى ورسوله الكريم ، لقاء الحب والإعجاب والانتماء الحميم ! ! »[١١] .

---

(٩) المرجع السابق : ص ٧ .

(١٠) خطاب ٧ من إبريل سنة ١٩٧٧م [فى سبيل البعث ـ الكتابات السياسية الكاملة] : جـ ٣ ، ص ١٢١ . طبعة بغداد ، سنة ١٩٨٧م .

(١١) المصدر السابق جـ ٣ ، ص ٢٠١ خطاب ٧ ، من إبريل سنة ١٩٨٢ م .

وننبه هنا إلى دلالات المصطلحات . . فاللقاء مع الإسلام ، منذ لحظة البدء والاختيار، لم يكن لقاء «**الإعجاب**» ، فقط ، و إنما كان لقاء «**الحب**» و«**الانتماء الحميم**» ! ! . . ومن قبل ، قال : إنه قد اكتشف فيه ، واكتسب منه «**المعنى العميق**» و«**الهزة الروحية**» كليهما ! ! . .

بل إننا واجدون للرجل عبارة ـ فى خطابه : « ذكرى الرسول العربى » ـ ٥ من إبريل سنة ١٩٤٣ م ـ يتحدث فيها عن قصته مع « الإيمان» . . وعن «اكتسابه له بالألم والمشقه» ، وليس « بالميراث والتقليد» . . . ولقد وقفت أمام هذه العبارة ـ وتاريخها سنة ١٩٤٣ م ـ حائرا متسائلا . . أى «إيمان» ذلك الذى كان مفقودا عنده ، ثم اكتسبه بالألم والمشقه ، ولم يرثه بالتقليد؟ ! . . أكان ملحدا ، ثم تدين وآمن بالمسيحية ، فى ذلك التاريخ المبكر من حياته الفكرية والعملية؟ ! . . أم إن تدينه بالإسلام يرجع إلى تلك المرحلة المبكرة . . وفيها كان الحب والانتماء الحميم والهزة الروحية للإسلام ولرسوله الكريم؟ ! . . يقول ميشيل عفلق ، فى هذا النص ذى الدلالة الكبرى . .

« . . . **لايفهمنا إلا المؤمنون ، المؤمنون بالله** . قد لانُرَى نصلى مع المصلين ، أو نصوم مع الصائمين ، ولكننا نؤمن بالله ، لأننا فى حاجة ملحة وفقر إليه عصيب ، فعبئنا ثقيل ، وطريقنا وعر ، وغايتنا بعيدة . **ونحن وصلنا إلى هذا الإيمان ، ولم نبدأ به ، وكسبناه بالمشقة والألم ، ولم نرثه إرثا ولا استلمناه تقليدا ، فهو لذلك ثمين عندنا ، لأنه ملكنا وثمرة أتعابنا** . . . »[١٢] .

إن الكلمات الأخيرة من هذا النص تحتاج إلى أن توضع أسفلها عشرات الخطوط ! ! .

---

(١٢) [فى سبيل البعث] : ص ١٣٤ . طبعة دار الطليعة ـ بيروت سنة ١٩٧٤ م خطاب ذكرى الرسول العربى .

لقد ولد الرجل مسيحيا، من طائفة الروم الأرثوذكس، فبدأ بإيمان موروث، كان فيه مقلِّدا . . . لكنـه يتحدث هنا ـ فى سنة ١٩٤٣م ـ عـن اكتسابه لإيمان بالله لم يبدأ به ، ولم يرثه، ولم يكن فيه مقلِّدا، وإنما هو اكتسبه بالمشقة والألم . . ولذلك فهو ثمين عنده، لأنه ملكه، وثمرة أتعابه!! . .

ولذلك ، فلقد وقفت ، حيال هذا النص متسائلا :

هل تديَّن ميشيل عفلق بالإسلام، دينا، منذ ذلك التاريخ ؟! .

إن كل النصوص، التـى قدمنا طرفـا منها، وعشرات غيرها، مما ستعـرضه صفحـات هذا الكتــاب ، تـؤكد أن مـرحلـة اكتشافـه لـلإسلام : الثـورة . . والحضارة . . والـرسالـة . . كانــت هى مـرحلة إيمانـه به، وحبـه له ، وانتمائه الحميم إليه، وإلى رسوله الكريـم . .

ومع شهادة هذه النصوص ، فلقد آثـرت الاستئناس بشهادة شاهد حى، هو واحـد من أبرز مفكـرى حزب البعث ، بعـد ميشيل عفلق ، وواحـد من المقربين إليه، ورفاق مسيرته النضالية . . فعرضت علامات الاستفهام هذه على الأستاذ الدكتور إلياس فرح . . وسألته تحديدا عن مغزى إشارة ميشيل عفلق ـ فى خطابـه «ذكرى الرسـول العربـى» ـ سنة ١٩٤٣م ـ إلى « الإيمان » ، الذى وصـل إليه، واكتسبـه بـالمشقة والألم ، ولم يبـدأ به ، ولم يـرثـه إرثا ولا تسلّمـه تقليدا . . والذى هو ، لذلك ، «ملكه، وثمرة أتعابه» . .

سألته عن مغزى هذه الإشارة . .

● هل هو الإيمان بالمسيحية ، بعد مرحلة شك أو إلحاد ؟! .

● أم هـو الإيمان بالإسـلام ، كـديـن، والتديـن بـه كعقيـدة، منذ ذلـك التاريخ؟! . .

ولقد أكد لى الأستاذ الدكتور إلياس فرح ـ وكان بادى السعادة ، مقبلا على الحديث ، متعاطفا مع موضوعه ! ! ـ أكد لى أن الإيمان ، الذى أشار إليه الأستاذ ميشيل ، فى هذا النص ، إنما هو الإيمان بالإسلام ، كدين ، والتدين به ، منذ ذلك التاريخ . . . وأكد لى أن حديث الأستاذ ميشيل عن اكتشافه للإسلام ـ الذى أكد عليه فى حديثه إلى مجلة [آفاق عربية] ـ عدد إبريل سنة ١٩٧٦ م ـ هو حديث عن المرحلة التى تدين فيها بالإسلام [١٣] ! . .

تلك هى الحقيقة التى كانت مفاجأة لى ، عندما أمسكت ببدايات خيوطها من خلال النصوص القاطعة ، والتى تكررت وتناثرت فى كتابات ميشيل عفلق . . والتى أكدها لى ، وطمأننى إلى صدقها زميل دربه ، ورفيق نضاله ، وأحد حوارييه المقربين إليه الأستاذ الدكتور إلياس فرح . . وهى الحقيقة التى ستذهل الكثيرين ! . .

* * *

ومع ذلك . . فإننا نقول : إن هذه الحقيقة ليست أهم ما فى هذا الموضوع ! . .

فليس تدين ميشيل عفلق بالإسلام ، هو الأمر الذى نكتب عنه هذا الكتاب . . فكثيرون ولدوا مسلمين أو اعتنقوا الإسلام ، وعملوا بالسياسة أو اشتغلوا بالفكر ، دون أن تكون هناك حاجة إلى أن تكتب عنهم الكتب وتقدم

---

(١٣) دار هذا الحديث بينى وبين الأستاذ إلياس فرح ، بمنزل السفير العراقى لدى مصر الأستاذ نبيل نجم التكريتى بالقاهرة ، مساء يوم الأحد ١٨ ـ ٣ ـ ١٩٩٠م . . وكان اللقاء احتفالا باختتام أعمال الندوة التى عقدت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ـ جامعة القاهرة ـ عن فكر ميشيل عفلق .

عنهم الدراسات . . وإنما القضية التى نعقد لها لواء هذه الصفحات : هى مكانة الإسلام فى المشروع الفكرى والحضارى لميشيل عفلق، الذى هو المشروع الفكرى والحضارى لواحد من أبرز وأهم فصائل التيار القومى العربى المعاصر . وليس مشروعا خاصا لمفكر من المفكرين أو كاتب من الكتاب . .

ويزيد من أهمية الدراسة لهذه القضية، أن الكلمة الأخيرة فيها لا تلوح لنا بالاطمئنان إلى اعتناق الرجل لدين الإسلام ، والتأكد من تاريخ هذا الاهتداء إلى الإسلام . . ذلك أن مكانة الإسلام فى مشروعه الفكرى والحضارى قد أصابها التطور . . والوضوح . . والنضج عبر أكثر من نصف قرن ، هو عمر العطاء الفكرى والنضال العملى الذى أقام فيه الرجل بناء هذا المشروع . . فتتبُّعُ الخط البيانى لهذا الوضوح . . والتطور . . والنضج لمكانة الإسلام فى هذا المشروع النهضوى ، هو الانجاز الأهم الذى نبتغيه من وراء الجهد المبذول فى هذا الكتاب . .

إن اكتشاف عفلق للإسلام ـ كما يقول ـ هو الذى ميَّز مشروعه الفكرى . . فجعله « بعثا » وإحياء وتجديدا لهوية الأمة وتراثها ورسالتها . . ولم يجعله «القومية المجردة» من الدين والتراث . . ولا ليبرالية الغرب . . ولاماركسيته . . لكن حجم « مرجعية الإسلام» فى هذا المشروع الحضارى البعثى بالنسبة إلى حجم المؤثرات والمرجعيات الأخرى . . ودرجة الوضوح لهذه « المرجعية الإسلامية» . . . . والموازنات فى أدبيات هذا المشروع الفكرى بين « الإسلام» وبين « القومية» من حيث العلاقة بينهما ، وأيهما الأصل؟ وأيهما الفرع؟ . ومعنى « الرسالة الخالدة» لهذه الأمة الواحدة . . ودرجة الوضوح لهذا المعنى فى أدبيات هذا المشروع . . وعلاقة الدين بالدولة . . والموقف من « العلمانية» . . وكذلك دور الإسلام فى تميز الأمة ومشروعها الحضارى عن الأمم الأخرى ، ومشروعاتها

الحضارية ـ وخاصة فى المواجهة مع الحضارة الغربية . . . كل هذه ، وغيرها ، مما ماثلها ، قضايا أساسية ومحورية ، تمثل لبنات فى ذلك البناء الذى يطمح لإقامته هذا الكتاب . . بناء : مكانة الإسلام فى المشروع الحضارى البعثى ، كما نشأ وتطور فى فكر القائد المؤسس والفيلسوف المنظر ميشيل عفلق . .

فهى ، إذن ، مهمة أكبر وأعقد وأهم من إثبات تاريخ اعتناق ميشيل عفلق للإسلام . .

ـ ٦ ـ

بل لعل من الضرورى ، أن نوضح ونؤكد ، عند هذا المقام من التقديم بين يدى هذا الكتاب ، أنّ «مرجعية الإسلام» فى المشروع الفكرى لميشيل عفلق ، وحجمه بالنسبة للمرجعيات الأخرى ، إذا كان قد بدأ محدودا وغامضا ، وظل لسنوات طويلة شبه محاصر فى ظلال مرجعية «القومية» ، التى اتخذت الأصل والأساس فى كثير من أدبيات هذا المشروع . . وإلى الحد الذى تبنى فيه حزب البعث «العلمانية» تبنيا رسميا ، فى الفكر والممارسات . . وإذا كانت مراحل الغموض هذه ، وفترات الازورار عن إعلان الإسلام كمرجع رئيس فى هذا المشروع ، والاكتفاء دائما بالحديث عن « الإسلام : «لتراث» أو « الحديث فقط عن التراث» . . أو بالحديث عن « الإسلام : الثورة» وليس « الإسلام : الدين» . . . إذا كان ذلك قد مثّل موقف ميشيل عفلق ذاته من هذا الأمر ، لحقبة طويلة من حياته الفكرية والعملية . . وذلك فضلا عن موقف حزبه الذى وقف وراءه ، وبعيدا عنه ، ولمسافات طويلة فى هذا الموضوع ! . . إذا كان ذلك هو واقع القضية فى العقود الثلاثة الأولى من عمر هذا المشروع . . فإن صعود الخط البيانى لوضوح موقف هذا المشروع من مرجعية الإسلام فى

مكوناته ومصادره، منذ عقد السبعينات، وخاصة منذ منتصفه ـ وهى مرحلة استقرار ميشيل عفلق بالعراق ـ إن هذه القضية تتطلب منا أن نعرض للعوامل التى أدت إلى هذا التطور الهام فى هذا الموضوع . . وإلى موقف عفلق من مبدأ تطور فكره ووضوحه حيال مرجعية الإسلام فى مشروعه الفكرى والسياسى والحضارى . .

● إن الأمر الذى تؤكد عليه كتابات ميشيل عفلق ـ ومنها النصوص التى سبقت إشارتنا إلى بعض منها ـ أن اكتشافه للإسلام ، وإيمانه به هما اللذان حدَّدا توجهه الفكرى والسياسى والحضارى منذ فجر حياته النضالية . .

● والأمر الذى تؤكد عليه كتاباته، أيضا ، أن هذه القضية ـ قضية دور الإسلام فى تحديد هذا الاختيار الفكرى، المتميز عن الاختيارات التى وفدت من الغرب ، ليبرالية . . وماركسية ـ قد ظلت غامضة فى كتابات عفلق، ومنزوية ، لم تسلط عليها الأضواء، ولم تعط حقها من الإبراز والإيضاح والتفصيل . .

● والأمر الذى يؤكد عليه الرجل ، كذلك ، أن « الحقبة العراقية »، فى حياته الفكرية، هى التى شهدت اهتمامه باستكمال هذا النقص فى وضوح الموقف من مكانة الإسلام ودوره وحجمه فى هذا المشروع . .

١ ـ ففى سنة ١٩٥٨م . . يعترف ميشيل عفلق بأن الأمة ، بسبب من ارتباطها بتاريخها، ونزوعها إلى « القيم الأصيلة المطلقة» ـ [وهو هنا لايسميها باسمها الحقيقى . . وهو: الإسلام!] ـ يعترف بأن الأمة قد فاجأته وفاجأت غيره من المثقفين بأنها أكثر أصالة وتقدما من هؤلاء المثقفين! . . الأمر الذى دعاه إلى تطوير نظرته إلى المرجعية التى حفظت للأمة هذا التواصل الحضارى المستعصى على البلى والانقطاع . .

يقول ميشيل عفلق ـ فى حديث إلى الشاعر العراقى بدر شاكر السياب ـ :

« . . كنت أعتقد أن جماهير الشعب العربى لاتعى من عروبتها سوى كلمة « نحن عرب» . . وكنت أعتقد أن المهمة التى تنتظرنا هى أشبه ماتكون بالمهمة التى كانت تنتظر أجدادنا العرب ، إبان الفتح العربى الإسلامى : إعادة جماهير الشعب العربى ـ وخاصة فى العراق الذى كان الفرس يحكمونه ، وسورية التى كان الروم يحكمونها ـ إلى حظيرة الأمة العربية . . ثم تبدد الوهم ، **وظهر أن الشعب مازال أغنى وأعمق من قادته ، ومازال يفاجئ القادة باستمرار، فهو نزاع إلى القيم الأصيلة المطلقة ، وهذا هو مايربطه بتاريخه»** [١٤]. . لقد تبدد الوهم . . وفاجأه أن مايربط الشعب بتاريخه هو «النزوع إلى القيم الأصيلة المطلقة» . . وهى : القيم الدينية ، فالمطلق ، فى مصطلحاته ـ كما ستوضح نصوصه ـ هو الدين . .

٢ ـ وفى ذات الحديث ـ إلى بدر شاكر السياب ـ يتطرق كلام ميشيل عفلق إلى مشروعه الفكرى ، والبناء النظرى الذى قدمه لحزب البعث . . فيعترف بوجود « ثغرات فى أفكار» هذا المشروع . . ويعلل وجودها بغلبة ضرورات «الحركة» على التفرغ « لتنظيم الفكرة وتنسيقها وتوسيعها . . » . فيقول :

« . . كان الفكر ومايزال يحتل مركزا كبيرا عندى ، ولكن عملى القومى خلال السنوات الخمس عشرة وقبلها ، لم يكن عملا فكريا ، وإنما : خلق حركة ، للفكر فيها مكان أساسى ، ولكن الحركة هى الأول والهدف ، **وهذا مايفسر وجود ثغرات فى تلك الأفكار . كان العمل أهم من تكوين فلسفة ، وكان يلح علينا فنلبيه ، على حساب تنظيم الفكرة وتنسيقها وتوسيعها»** [١٥] .

---

(١٤) [فى سبيل البعث] : جـ ٥ ، ص ٣٤ طبعة بغداد ، سنة ١٩٨٨م ـ وتاريخ الحديث ٩ من أغسطس سنة ١٩٥٨م ـ.

(١٥) المصدر السابق : جـ ٥ ، ص ٣١ .

٣ ــ وفى سنة ١٩٦٣م . . يعترف عفلق « بعفوية الفكر البعثى » ـ رغم أصالته ـ وبحاجته إلى « التوسيع والتفصيل والصياغة العلمية » . . فيقول :

« إن الفكر البعثى أصيل ، ولكنه بحاجة إلى توسيع وإلى تفصيل وإلى صياغة علمية تنقله من هذا الشكل العفوى الذى ظهر فيه ، وأسباب ظهوره بهذا الشكل معروفة . فنشأة الحزب الطبيعية الصادقة ، جعلته مختلفا عن الأحزاب التى تنشأ بعد مؤتمرات ونتيجة مقررات وتبادل آراء ، أو تنشأ بعد كتابات تكتب فى الغرف ووراء المكاتب . إن كل شىء كُتب أو قيل فى هذا الحزب ، كُتب وقيل أثناء النضال . . »(١٦) .

. . إذن ، هو يعترف بحاجة مشروعه الفكرى ، المتميز بالأصالة ، إلى سد مافيه من ثغرات . . وإلى توسيع مافيه من نقص وضيق . . وإلى تفصيل مافيه من إجمال . . وإلى صياغته الصياغة العلمية التى « تنقله من هذا الشكل العفوى الذى ظهر فيه » . . يعترف بذلك فى حقبة عقدى الخمسينيات والستينيات . .

٣ ـ وفى منتصف عقد الستينيات ، حدث تطور هام فى الموقع النضالى لميشيل عفلق . . فالأزمة التى حدثت فى الحزب ، بين القيادة القطرية السورية وبين القيادة القومية ، انتهت فى سنة ١٩٦٦م . بخروجه من سورية ، وعزله عن قيادة الحزب فى سورية . .

---

(١٦) المصدر السابق : جـ ٤ ، ص ٣٧٥ ـ « البعث تعبير عن أفكار الجيل العربى الجديد » ـ ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٦٣م ـ . [بل ويعترف ميشيل عفلق فى ذات التاريخ ـ أكتوبر سنة ١٩٦٣م ـ بتقصير الحزب وعدم توفيقه فى تجسيد النزعة الروحية التى نزع إليها عند التأسيس ، فيقول : « ثورة البعث أرادت منذ البدء أن تأتى بعنصر روحى . إلى أى حد توفقت؟ ! هذا شىء آخر . وأقول : إن هناك تقصيرا ، وكلنا مسئولون ، ولكن ، هل هذا يكفى لكى نيأس من ذلك الطموح الذى غذى نضالنا منذ البدء؟ هل يجوز لنا أن نتخلى عن ذلك المطمح الأول؟ . . » ــ ذات المصدر ـ جـ ٤ ، ص ٣٨١ ـ « لقد نفذ حزبنا إلى ضمير الشعب » ـ .

وبعد سنوات من القلق . . وعندما عاد البعث إلى حكم العراق ـ ١٧ ـ ٣٠ يوليو سنة ١٩٦٨م ـ . . بدأت «الحقبة العراقية» فى حياة ميشيل عفلق . . وفى هذه الحقبة ، تطورت ووضحت وبرزت أفكاره عن مرجعية الإسلام ومكانته المحورية فى مشروعه الفكرى والحضارى . . وكان وراء هذا المنحنى فى تطور فكره حيال هذه القضية ، عوامل وملابسات كثيرة ، فى مقدمتها :

(أ) تصاعد المد الإسلامى ، على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام ، بعد تراجع بريق المشروع القومى العربى ، منذ هزيمة ٥ من يونيو سنة ١٩٦٧م . . والتى آذنت بغروب شمس أبرز تطبيقات المشروع القومى ، فى صورته «الناصرية» . . فمنذ ذلك التاريخ ، أخذ الخيار الإسلامى يجتذب ، ليس فقط الجماهير ، وقطاعات من « النخب» غير المسيَّسة ، وإنما أيضا قطاعات من «النخب العلمانية المسيَّسة» ، قومية كانت أو ماركسية . . كما أخذ هذا الخيار الإسلامى يُحْدث تأثيراته فى المشروعات والخيارات الحضارية الأخرى . . وأقربها ـ بالطبع ـ إليه هو المشروع والخيار القومى . . وخاصة إذا كان للإسلام دور فى تكوينه . . كما هو حاله عند ميشيل عفلق . .

ويزيد من أهمية هذه الحقيقة ، ماشهده ويشهده واقعنا الفكرى ، من تراجع نفر من المفكرين العلمانيين عن تبنى بعض الرؤى والأفكار والمواقف الإسلامية ، التى تبنوها لدوافع وطنية وقومية واعتبارات ثقافية ، تراجعهم عنها عندما تعاظم المد الإسلامى ، فجفلوا من الإسلام عندما رأوا جدية تياره ، وحقيقة مشروعه . . فلم يعد حديث الإسلام « شقشقة مثقفين» ، وإنما غدا مشروعا حضاريا بديلا للتغريب الذى منه ينطلقون ، ولمرجعيته فى فكرهم الولاء والانتماء . .

ولم يكن ميشيل عفلق كهؤلاء . . بل لقد صاحب تعاظم المد الإسلامى وضوح رؤيته وتطور نظرته إلى الإسلام ! .

(ب) وعامل آخر، صاحب الوضوح والتطور فى فكر ميشيل عفلق إزاء دور الإسلام ومكانته فى مشروعه الحضارى . . وهو تراجع النموذج والخيار الاشتراكى الغربى . . ودخول النظرية والتطبيق الماركسى فى مرحلة الأزمة . . وهو الأمر الذى أدركه ميشيل منذ بداية حقبة السبعينيات! . .

لقد كان الرجل ، منذ بداية مسيرته الفكرية والنضالية، رافضا لليبرالية الغرب . . وواقفا موقف الدارس المستفيد المنتقى من شمولية الغرب (الماركسية) . . وهاهى ذى الشمولية تؤذن صفحتها بالانطواء . . الأمر الذى مثّل دافعا من دوافع زيادة حجم الاستقلال الفكرى عند ميشيل عفلق . . وليس لهذا الاستقلال الفكرى ، فى الواقع العربى ، إلا معنى حقيقى واحد، وهو زيادة الاهتمام بالإسلام، باعتباره السياج الحقيقى والمنبع الحقيقى لهذا الاستقلال! . .

لقد كتب الرجل ـ فى مايو سنة ١٩٧٠م ـ عن تزعزع الأسس الفكرية التقليدية للشيوعية، بشكل ينذر بأن الشىء الذى سُمِّى شيوعية منذ نصف قرن سيصبح ـ بعد ٢٠ أو ٣٠ سنة ـ شيئا من التاريخ !! . . والعالم يشهد تطورات هى أقرب إلى أن تكون ثورات فكرية . هذا التصدّع فى المعتقدات ، التى كانت تظهر قبل عشرين سنة أو أقل بأنها معتقدات أبدية وعلمية ، ولايتطرق إليها الشك، لقد أصبحت اليوم تعانى من التصدع والتفكك! . . »(١٧) . . « لقد ضاعت الفرصة على هذه الثورات الشيوعية . . ونحن مطالبون بأن نعتبر بهذا التوقف أو التجمد الذى أصابها . . وبالإصرار على استلهام الأصالة فى تاريخنا وفى روح أمتنا، ولكى لانصل يوما إلى طريق مسدود! »(١٨) .

---

(١٧) [فى سبيل البعث] : جـ ٥ ، ص ٤٦ ، ٤٧ ـ « حزب الثورة العربية» ـ مايو سنة ١٩٧٠م.

(١٨) المصدر السابق : جـ ٥، ص ٥٩ ، ٦٠ ـ « الحزب تسوده روح الأسرة الواحدة» ـ ١٥ ـ ٩ ـ ١٩٧٧م.

ففى الوقت الـذى « اعتبر» ميشيل عفلق بجمود وتراجع منـابع الاشتراكية الغربية . . كانت دعوته لمزيد من استلهام الأصالة وروح الأمة ـ الإسلام ـ كى لايصل مشروعـه الحضارى إلى الطريـق المسدود . . فكـان مزيد انفتـاحه على الإسلام ! . .

(جـ) ولقـد تميز « المنـاخ العراقى »، الـذى ارتبط به ميشيـل عفلق ـــ منذ زيارتـه للعراق سنة ١٩٦٩م، واستقراره فيـه منذ منتصف عقـد السبعينيات ـ تميز عن « المناخ السورى »، على النحو الذى ساعد على دفع خط بيان وضوحه الفكرى إزاء قضية مرجعية الإســلام ودوره المحورى فى مشروعه الفكرى . . إلى الأمام .

ففى « المناخ الســورى ـ اللبنانى » ـ الـذى كان مسرحا لفكره وحـركته حتى سنة ١٩٧٥م ـ كـانت هناك الانقسامات الطائفيـة ، والطوائف غير المسلمة ، التـى ترفـض إسلاميـة المشروع الحضــارى . . وتستريب حتـى فى مجرد اعتماد الإســلام كمجرد تـراث ! . . وكـانت هـذه الطـوائف ـ فى غـالبيتهـا ـ تتبنـى العلمانية، التـى تفصل الـدين عن الـدولة والفكر والثقـافة والتربيـة والتعليم والسياسة والاجتماع والاقتصاد . .

أما فى « المناخ العراقـى » ، فإن الانقسامات الأساسية هـى ـ فى حقيقتها ـ تمايـز فى إطـار الإســلام . . فـالعـرب والأكـراد : مسلمـون سُنّـة . . والسُّنّـة والشيعة : مسلمون عرب . . ومن ثم ، فـإن تبنى إسلامية المشروع الحضارى ، أو إبـراز مرجعيـة الإسلام فيـه ، ليـس بالأمـر المستغـرب ، ولا بالـذى يواجـه بالـرفض ـــ فى هذا المنـاخ ـ على النحـو الحادث فى طائفيـة وانقسامـات المناخ «السورى ـ اللبنانى » . .

بل ، لقـد تميزت عـلاقة حـزب البعث العراقـى بالإســلام ـ فى هـذا المناخ

العراقى ــ عن علاقة نظيره ــ حزب البعث السورى ــ بالإسلام . . فعلى حين نجد السُّنة ـ وهى الكتلة الإسلامية الرئيسة فى سورية ــ هواها مع جماعة الإخوان المسلمين . . فإن البعث السورى ــ وخاصة منذ سنة ١٩٦٦م ــ قد غلب عليه التمثيل والتعبير عن مصالح طائفة « النصيرية » ، التى يتراوح التقييم الإسلامى لها مابين : اعتبارها من غلاة الشيعة . . وبين التشكيك فى إسلامها من الأساس !! . . فالهوية الإسلامية للبعث السورى عليها ـ بنظر الكثيرين ، على الأقل ـ علامات استفهام !! . .

أما البعث العراقى ، فإنه ، بنظر الكثيرين ، هو المعبر ـ بالدرجة الأولى ، وفى الأساس ـ عن سُنَّة العراق . . وبصرف النظر عن موقفه النظرى من الدين والتدين ، ورفعه راية العلمانية ، إلا أنه ـ واقعيا ، وفى مواجهة غير السُّنَّة من المسلمين ، وغير المسلمين من العرب ـ هو المعبر عن السُّنَّة فى العراق . . وهذا مناخ فكرى . . وظرف موضوعى متميز إسلاميا عن المناخ الفكرى والظرف الموضوعى فى سورية ولبنان . . وهو تميز لابد وأن يكون ــ مع تصاعد مد الصحوة الإسلامية ـ دافعا لميشيل عفلق كى يعود للنظر من جديد فى مكانة الإسلام فى مشروعه الفكرى ، الذى يقدمه فى هذا المناخ الجديد إلى أمته التى تدخل ـ فى موضوع الخيارات الحضارية ـ مرحلة جديدة تتميز بتصاعد جاذبية الخيار الحضارى الإسلامى . .

(د) وفى هذا الطور الجديد ، من حيث التوجه الإسلامى للأمة فى الخيار الحضارى . . والمناخ العراقى المتميز إسلاميا ، على النحو المواتى والمساعد على بروز مكانة الإسلام فى مشروع ميشيل عفلق . . بدأ الرجل مرحلة متميزة فى مهامه واهتماماته . فلقد قرر اعتزال المهام والمسئوليات السياسية والحركية ، والتفرغ للعمل الفكرى . . الأمر الذى أتاح له ـ وهو الزاهد بطبعه ـ الخلاص

مـن كل تـأثيرات المناورات الحزبيـة وتوازنـات المصالـح على الرؤيـة الفكريـة الخالصـة لـذات الفكر والضمير المفكـر . . هنـا التفـت الرجـل إلى مشروعـه الفكرى ، وعاد إلى المنطلقات الإسـلامية التى حددت خياره وميزتـه منذ فجر حياتـه ، محاولا استكمال النقص فيها ، وإزالة الغمـوض عنها ، وتجلية الـوجه الحقيقى لها ، وتطـوير نظرتـه ونظرة أتباعـه إليها . . وإن لنا على هـذه الحقيقة لشواهد عديدة . .

ففى يوليو سنة ١٩٧٠م . . يتحدث ميشيـل عفلق عن قراره التفرغ للعمل الفكـرى ـ بعـد تجربتـه مع أزمـة الحزب فى سـوريـة سنة ١٩٦٦م ، فيقـول : « . . وخرجت من تلك التجربة بـدرس نهائى ، وبقناعة نهائية . إنه بالنسبة لى على الأقل ، ليـس من مصلحـة الحزب أن أضع نفسـى فى الواجهـة ، وأمكن أعـداء الحزب وأعداء الأمـة من أن يصيبـوا الحزب مـن خلالى ، وصممـت أن يقتصر دورى على الناحية الفكرية . وهذا أطبقه وأمارسه منذ ذلك الحين حتى الآن . وتعرفـون ، بأنـى فى المؤتمر القومى العاشر الأخير [١٩] ، بعد أن تعـذر إقناع الرفاق أعضاء المؤتمر ، والرفاق العراقيين بخـاصة بأن يعفونى من مسئولية الأمانة العامة ، حتى من المسئولية الاسمية ، وافقتُ على قبول الصفة دون ممارسة المسئوليـات ، ووافق المؤتمر على طلبـى بأن أنقطع للجنـة شكلها المؤتمر بـاسم اللجنة الفكرية . . » [٢٠] .

فمن ذلك التاريخ ، « انقطع » ميشيـل عفلق للعمل الفكرى ، ولمسئولية اللجنة الفكرية . .

---

(١٩) [آفاق عربية] عدد إبريل سنة ١٩٧٦م .

(٢٠) [فى سبيل البعث] جـ ٢ ص ، ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ طبعة بغـداد سنة ١٩٨٦م ـ المؤامرة التاريخية على حزب البعث ـ كتبت فى يوليو سنة ١٩٧٠م ـ .

ولعل الحديث الذى أدلى بـه ميشيل عفلق إلى مجلة [آفاق عربيـة] ـ إبريل سنة ١٩٧٦م ــ أن يكون أول المعـالم الفكريـة التى شهـدت بروز هـذا التطور والـوضـوح والتركيـز فى كتـابـاته على مـرجعيـة الإسـلام فى مشروعـه الفكـرى والحضارى . . ففيـه تحدث عن دور الإسلام فى تحديـد وتميز اختيـاره الفكرى والسيـاسـى . . وتحدث عـن « الصـورة التى انطبعـت أثنـاء القـراءة الجديـدة للإسلام ، والتى أعطت أشياء أساسية ، بعضهـا واضح ، وبعضها واقع بين الوضوح والإبهام . . »(٢١) . . فأخذ ، منذ ذلك التاريخ يحاول إزالة الإبهام عن جوانب الصورة التى أثمرتها القراءة الجديدة للإسلام ! . .

وفى خطاب ٧ من إبريل سنـة ١٩٧٧م ، أشار إلى أن مكانة الإسلام ودوره فى تميز هـذا المشروع الفكرى ، «لم تُعطَ حتـى الآن الاهتمام الذى تستحقـه ، بل بقيت مجهولة من الكثيرين . . ولابد ، حرصا على المستقبل وسلامة الاتجاه ، من الإشارة الصريحة إلى ذلك . والتتمة على الأجيال البعثية الصاعدة ! . . » . . فهو يعلن عن تصديه لاستكمال النقص ، وإيضاح المجهول « حرصا على المستقبل وسلامة الاتجاه» . . ويعلق الآمال على الأجيال البعثيـة الصاعدة ، كى تعطى الإسلام مـرجعته الطبيعيـة فى هذا المشروع ! ! كما يقـول ـ فى ذات الخطـاب ـ : «لذلـك لم يكن غريبـا أن يعود الحزب بين الحين والآخـر ليؤكد على منطلقـاته الأسـاسية التـى لم تعط الاهتمام الـذى تستحقه ، ولم يستخـرج منها كـل العبر الكامنة فيها ، كالموقف من التراث والإسلام ! ! » (٢٢) .

وعندمـا برزت السمات الإسلامية فى أدبيـاته ، سئل فى ٢٧ ــ ٤ ـ ١٩٨٠م

---

(٢١) [آفاق عربية] ص ٦ ـ عدد إبريل سنة ١٩٧٦م .

(٢٢) [فى سبيل البعث] جـ٣ ، ص ١٢١ ، ـ « البعث وتحديات المستقبل » ـ ٧ إبريل سنة ١٩٧٧م .

. . هل هناك تغير واختلاف فى فكره؟! . . فكانت إجابته : « إنها روح واحدة ـ [فى كتاباتى] ـ عبرت عن نفسها فى مناسبات مختلفة . قناعات فكرية لم تختلف . لكن الظروف السياسية وظروف المجتمع ، وصعوبة العمل الثورى فى مجتمعنا ، هذه الأمور أخّرت ظهور هذه الأفكار ، وإعطاءها الاهتمام المطلوب . . » .

فهو، ينكر أن يكون هناك « انقلاب» فى توجهه الفكرى ، لكنه يعترف بأن الظروف السياسية والاجتماعية وملابسات العمل الثورى ، قد أخرت ظهور السِّمات الإسلامية فى فكره ، وحالت بينها وبين أن تأخذ الاهتمام المطلوب . . ثم يشير إلى دور « المناخ العراقى» فى إبراز هذه القَسمة الإسلامية ، فيقول : « . . والآن ، نشعر بأن فى تجربة حزبنا فى العراق ، للمرة الأولى ، تأخذ أفكار الحزب مداها . . »[(٢٣)] .

ونحن عندما نلقى نظرة فاحصة على كتابات ميشيل عفلق فى المرحلتين السورية والعراقية ، نجد الدليل المادى المجسَّد لصدق هذا التحليل لدوافع هذا التطور والوضوح فى فكر الرجل إزاء مرجعية الإسلام ومكانته فى مشروعه الفكرى . .

فالجزء الرابع من أعماله الفكرية الكاملة . . والمخصَّص لكتاباته فى القطر السورى ، يندر فيه الحديث عن الإسلام ، ويقل فيه الحديث عن التراث . . بينما تُكوِّن كتاباته فى العراق عن التراث والإسلام جزءا كاملا ـ هو الجزء الثالث ـ وأكثر هذا الجزء محاضرات ألقاها فى «مدرسة الإعداد الحزبى» . . أى أن التركيز على الإسلام والتراث الإسلامى ، لم يكن كلاما للمناسبات العامة ، وإنما

---

(٢٣) المصدر السابق . جـ٣ ، ص ٩٠ ـ حوار حول الدين والتراث ـ ٢٧ ـ ٤ ـ ١٩٨٠م .

كان مـادة فكريـة لإعداد القيـادات الحزبية . . . ومـواد هذا الجزء ، سـابقة فى تاريخها على قيام الثورة الإيرانية . . فلـم تكن «مزايدة إسلامية» على الشعارات الإسلامية التى رفعتها هذه الثـورة على الشاطئ الآخر للخليج ! . . فهو، إذن، موقف فكـرى أصيل ، فيه تصاعد وتفصيـل وتوضيح وتعميق وتطـوير لموقف جنينى قديم . .

* * *

تلك مقدمات ضروريـة ، كان لابد من الصعود عبر حقائقهـا وأفكارها إلى حيث نمسك بالأطراف الأولى لخيوط هذا الموضـوع . . موضوع مكانة الإسلام ودوره فى فكر ميشيل عفلق ومشروعه الحضارى . .

ـ ٧ ـ

على أن هناك سؤالا مهما ، لابد من طرحه والإجـابة عنه ، عند هذا المقام من هذا التقـديم بين يـدى هذا الكتاب . . ولابـد ، أيضا ، مـن التنبيه على ضرورة استحضار القارئ لإجابة هذا السؤال فى كل موطن من مواطن هذه الدراسة يرد فيه حـديث ميشيل عفلـق عن الإسلام . . فهـذه الإجابـة ، هى بمثابـة المعيار والميزان الـذى يوزن به مراد الـرجل عندمـا يذكر مصطلح الإسـلام . . فكى لا نظلم الإسلام ، ونحـن نتحدث عن مكانته فى المشروع الحضـارى لميشيل عفلق وكى لا نظلم ميشيل عفلق فننسب إلى فكـره أبعادا إسلامية لم يقصد إليها ، ولم يتطلع إلى آفـاقها ، ولم يستدعها أو يتبنهـا فى مشروعه الفكرى . . كان لابـدمن طرح هذا السؤال . . واستحضار إجابته ، من قبل القارئ ، على امتداد فصول وصفحات هذا الكتاب . .

أما السؤال ، فهو :

أى إسلام كان ميشيل عفلق يعنى عندما يكون حديثه عن مكانة الإسلام فى المشروع القومى ومرجعيته فى المشروع الحضارى؟! .

وبعبارة أخرى :

هل كان ميشيل عفلق ، فى حديثه عن مكانة الإسلام ومرجعيته فى مشروعه الحضارى ، يتبنى ويستدعى كامل الإسلام؟! . . أم أبعادا بعينها ، وقسمات بذاتها ، وميادين خاصة من الإسلام ، دون غيرها ، من الإسلام؟! . . ومن ثم ، فإن موقفه ـ وكذلك مشروعه متميزان عن مواقف أخرى ، ومشروعات أخرى ، لمفكرين آخرين ، ومشروعات حضارية تبنت واستدعت كامل الإسلام لكامل ميادين النهضة والمشروع الحضارى؟! . .

وبالطبع . . فنحن نعلم أن الإسلام ، باعتباره الدين الإلهى ، هو وضع الله ووحيه إلى نبيه ورسوله محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام . . وهو ، فى كماله وشموله ، نسق إلهى متكامل . . فيه العقيدة ـ التى هى محوره وجوره ـ واالشريعة التى هى منهاج الإنسان وطريقه إلى الاعتقاد بالعقيدة والتدين بها . . وفى هذه الشريعة ، تندرج العبادات والمعاملات والأخلاق والقيم . .

ونعلم أن هذا الوضع الإلهى والوحى الربانى ـ العقيدة والشريعة ـ عندما تفاعلت مع الواقع الإسلامى والتصورات الإسلامية قد صبغت إبداعات البشر المسلمين فى علوم الحياة وفنونها بالصبغة الإسلامية المتميزة . . فكانت «بصمة» الدين هى التى ميزت حضارة المسلمين عن غيرها من الحضارات . . ومن ثم ، عرف «الدين ـ الوحى» طريقه إلى التأثير فى « الحضارة» ـ ثقافة ومدنية ـ التى أبدعها المسلمون . . فكان الإسلام ، فى بنائه الشامل وآفاقه الفسيحة ، شاملا للعقيدة . . والشريعة . . والحضارة . . أى منهاجا كاملا لكامل الحياة ،

الدنيوية منها والأخروية . . وإطارا جـامعا وحاكما لكل شئون العمران، عمران النفس والمجتمع على حد سواء . .

ولأن هذا هو شمـول الإسلام ، كان « الإيمان» فيه إطارا جـامعا ، وليس ، فقط ، اعتقـادا بالألوهيـة والغيب والعبادات . . كـان الإيمان فيه إطارا جـامعا لشئـون الـديـن والدنيـا . . وأمـور الـدنيـا والآخـرة . . وقواعـد عمـران الفـرد والمجتمع . . وسياسة الـدولة والعلاقات الدولية . . وسـائر هموم حياة الإنسان والحيوان والجماد والنبـات . . إلخ . . إلـخ . . فهذا « الإيمان» الإسـلامى ـــ كما يعلمنا رسول الله ﷺ : « بضـع وسبعون شعبة . . أفضلها قـول لا إلّه إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان»[٢٤] .

والإسلام ، الـذى يظن البعـض أنه هو الأركـان الخمسة التـى تحدث عنها حديـث رسول الله ، ﷺ : « بنى الإسلام على خمس : شهـادة أن لا إلّه إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان»[٢٥] .

هذا الإسلام ليـس فقط هذه الخمس ، لأنها هى الأسس والأركـان والقواعد التى قام عليها بناء الإسلام ، وليس لعاقل أن يختزل البناء الشامخ فيما قام عليه من قواعد وأسس وأركان ! ! . .

فالعقيـدة والشريعة ـ « الـدين ـ الـوحى » ـ فى النمـوذج الإسلامى ـــ ومنذ الحقبة المدنية فى دعوة الرسول ، ﷺ ، قـد صنعتا : دولة . . وحضارة وعمرانا فغدا الإسـلام : دينا ودنيـا . . وفى الحضارة الإسـلامية ـــ التى هـى : دنيا قـد

(٢٤) رواه البخارى ومسلم والنَّسائى وأبو داود .
(٢٥) رواه البخارى ومسلم والنَّسائى والإمام أحمد .

اصطبغت بصبغة الدين الإلهى ـ . . فى هذه الحضارة : سياسة . . واجتماع . . واقتصاد . . وفلسفة . . وقانون . . وقيم . . وآداب وفنون . . إلخ . . إلخ . . إلخ . .

والتمييز ـ فى الإسلام ـ بين العقيدة . . والشريعة . . والحضارة . . ليس . . فقط ، سبيلا من سبل تسهيل البحث والدرس ، وقاعدة من قواعد تصنيف العلوم والفنون . . وإنما هو ، أيضا ، تمييز لما هو ، فى الأساس، وحى إلهى ـ فعلومه علوم شرعية ـ عما هو، فى الأساس ، إبداع بشرى ، كالحضارة ؛ فعلومها علوم مدنية بشرية ، سرت فيها روح الدين ، واصطبغت بصبغة الوحى ، وحكمتها معايير العقيدة والشريعة . .

وإذا كان « الفهم البشرى» له مدخل كبير فى «علوم الشريعة» . . فإن الشريعة هى الصبغة والمعيار لإسلامية علوم الحضارة فى أمة الإسلام وتجربتها التاريخية . .

فالصلات ، من ثم ، قائمة بين « أقسام» الإسلام ـ العقيدة . . والشريعة . . والحضارة ـ مع قيام التمايز والتمييز بين هذه «الأقسام» . . كسبيل للدرس والبحث . . وباعتبار الأصل المرجعى لكل « قسم » ، وغلبة المعايير الحاكمة فيه ـ وحيًا هى؟ أم من إبداع الإنسان المسلم المتأثر بوحى الله؟ . .

ذلك هو تكامل الإسلام ، كما نؤمن به . . ونتصوره . .

* * *

ومن الناس ، من يرى أن نهضة أمة الإسلام لاتتحقق إلا بارتكاز النهضة على كل شُعب الإسلام وأقسامه ، دون استثناء . . فهم يستدعون للمشروع النهضوى كامل الإسلام : العقيدة . . والشريعة . . والحضارة . . يصوغون

الإنسان وفاقا لمعـايرها ، ويحكمون المجتمعات بقيمها وقوانينهـا . . وهؤلاء هم «الإسـلاميون» ، الملتـزمون بكـامل الإسـلام منهـاجا شـاملا لكـامل النهضـة والحضارة الإسلامية . .

ومن الناس ، مـن يؤمن بالإسلام ــ دينا ـ فيه : العقيـدة والشريعة ، اللتان صنعتا الحضارة ــ لكنهم لايستدعون منه ـ فى مشروعهـم الحضارى ، ودعوتهم للنهضة ، ونضالهم فى سبيـل البعث ـ لايستدعـون ولا يتبنون غير « الإسلام : الحضارة» ــ وذلك دون كفـر منهم بـالعقيدة ، أو جحـد للشريعة . . ولكـن بدعوى أن «العقيدة» خصيصة تخص العابد المطيع وحده ـ فهى « شأن خاص» ـ . . بينما « الحضـارة» هى إطار جـامع للعابـد والعاصى ، على حـد سواء . . ولأبناء الأمة العربية جميعا ، مسلمين وغير مسلمين ، متدينين وغير متدينين . .

« فالإسـلام : الحضارة» ـ بنظـر هذا الفريـق من دعاة النهضـة وأصحاب المشروعـات الحضاريـة وبخـاصة قسماتـه التـى تشمـل : التراث الروحـى . . والثقافـة المتميزة بـالرؤيـة الإسلاميـة . . والتاريـخ المجسد لعبقـرية الأمـة . . والمثل . . والثورة ـ التـى مثلت حركة الأمة وتجربتها فى التغيير. والرسـالة ـ التى مثلت نزوع الأمة للتجديد وتحقيق الذات فى مـواجهة التحديات ـ يرى هؤلاء ـ مع إيمانهم بكـامل الإسـلام ـ أن المرجعية المطلـوبة للمشروع النهضـوى ، من الإسلام ، هـى مرجعية « الإسلام : الحضـارى» . . وليست مرجعية « كـامل الإسلام» ! . .

ومن هذا الفـريق كان ميشيل عفلـق . . صاحب المشروع القومـى ، الذى نعقد صفحات هذا الكتاب لنتعرف على مكانة ومرجعية الإسلام فيه . .

إن قارئ هـذا الكتاب ــ وكذلك قـارئ كتابات ميشيـل عفلق ــ فى ضوء الوعى الـذى تزوده به هذه الحقيقة التـى أثمرتها هذه الدراسة ــ إن هذا القارئ

سيجد فى نصوص ميشيل عفلق التى تتحدث عن الإسلام ومكانته ومرجعيته فى المشروع القـومى ـ مشروع البعث العـربى ـ سيجد فى هـذه النصوص تحديـدا واضحا بأن المدعو من الإسلام ليكـون غذاء للمشروع النهضوى وطاقة للبعث والنهضة هـو : الإسلام : الثورة . . الإسلام : التجـربة المفصحة عن عبقـرية الأمة . . الإسلام : التراث الروحى المكون لقومية الأمة . . الإسلام : الحضارى المميز للأمـة وقوميتها ونهضتها عـن غيرها من الأمم والقـوميات والنهضات . . الإسـلام : المتمثـل فى حركـة الأمـة العـربيـة ، بـالدرجـة الأولى ، وعلى وجـه الخصوص والتحديد ! . .

ذلك هـو الإسلام الـذى يعنيه ويعتنى بـه . . ويدعـوه ويستدعيـه ميشيل عفلق كـى يحتل المكانـة المتميزة والمرمـوقة ، وكى تكـون له ـ مـع علوم الـواقع المعاصر ـ المرجعيـة فى مشروع البعث لنهضة الأمة العربية . . وتلـك هى الآفاق والمضامين التى يريدها الرجل عندمـا يرد فى حديثه ذكر الإسلام . . لقد تطور فكره إزاء هذه القضية ـ وضوحا فى الرؤية لها . . وزيادة فى الاهتمام بها . . وتنمية لحجم الحديث عنها ولحجمها فى مرجعية مشروعه الحضارى ـ ولكن دون خروج عن هذا النطاق الذى يستدعيه من الإسلام ! . .

فالإسـلام : الإلهى . . ذو الجوانب الغيبية . . يـؤمن به ميشيـل عفلق . . لكنه لايستدعيه مرجعا فى مشروعه الحضارى .

والإسلام : الشريعة والقانون . . لا يؤمن ميشيل عفلق بضرورته إطارا حاكما للدولة القوميـة التى يدعو إليها . . وإنما هو يتبنى «علمانية الـدولة» ، فيحررها من «قانون الإسـلام» . . على حين قد رفض « علمانية القومية» التـى تحررها من «تراث الإسلام» ! . .

والروح والـروحانية عنـده ليس لهما البعـد الغيبى ـ الـذى لهما فى «الإسلام :

العقيـدة»، وإنما هـى « الإرادة» . . إرادة الأمـة ــ التـى أثمـرهـا « الـديـن» فى «الحضارة الإسلامية» ! . .

فالـرجل ــ مع اعترافـه وإيمانه بـالإسلام : الـدين السماوى ــ والغيب مـن عقائده ـ إلا أنه لايتبنى فى مشروعه الفكـرى والحضارى هذا الجانب الغيبى . . إنه يدعو إليه ويحبذه ويراه ضروريـا ، كشأن إيمانى فردى ، يحمى الإنسان من ضياع الإلحاد ، الـذى يرفضـه ، لكنه يرى فيـه شأنا فـرديا وضرورة إنسـانية ، يتساوى فى تقديمها للإنسان المتدين دين الإسلام مع غيره من الديانات الأخرى أما مايستـدعيه عفلق للمشروع الحضارى ، ويتبنـاه مرجعا فى النهضة القـومية والبعث العربى ، ويـراه «خصوصية إسلامية» ، يتميز فيهـا ويمتاز بها الإسلام على غيره من الديانات ، فهو « الإسلام : الحضـارى» كما جسدته الأمة العربية عندمـا آمنت بدين السماء . . الإسـلام كتجربة بشريـة أرضية متفاعلة ومـؤمنة بدين الله ووحى السماء ! . .

تلك هـى حدود وآفـاق مصطلح «الإسـلام» فى المشروع الحضارى لميشيـل عفلق . . كما ستشهد عليها نصوصه ، فى صفحات هذا الكتاب .

فالرجل ليس نموذجا « للمفكر الإسلامى » . . الذى يتبنى كامل الإسلام ، ويلتزم بمـرجعيته فى مشروعه الفكرى والحضـارى . . وإنما هو ـ إذا نحـن شئنا دقة التـوصيف ـ نمـوذج «للمفكر القومـى » الذى يتبنى الإسـلام الحضارى ، ويستدعـى المشروع الحضارى الإسلامـى مرجعا للنهضة القـومية العربيـة التى أراد . .

لقد تقدم على درب « الإسلام الحضارى » . . لكنه ـ وحتى انتقاله إلى بارئه ـ لم يتبن ـ فى مشروعه الحضارى ـ كامـل الإسلام . . فظل متميزا عن « المفكرين الإسلاميين» . . وظل مشروعـه متميزا عن «مشروعات النهضـة الإسلامية» . .

لكن التميز هنا ليس تميز «التناقض والعداء» بقدر ما هو تميز فى المسافة التى قطعها كل مفكر على ذات الدرب والآفاق التى استدعاها كل مشروع من آفاق الإسلام . . إنه تميز فى «الكم» وفى «المسافة» التى قطعها المفكر ومشروعه على طريق الإسلام ! . .

* * *

وإذا كانت المسيرة الفكرية لميشيل عفلق قد شهدت تطور وضوح رؤيته لمكانة الإسلام الحضارى ونمو حجمه فى مرجعية مشروعه لبعث الأمة العربية ، وخاصة منذ حقبة السبعينيات . . فإننا لانرجم بالغيب ولانبالغ إذا قلنا إن منطق هذا « التطور» فى رؤية الرجل لمكانة الإسلام ودوره فى مشروعه الحضارى حاكم بأن الطريق أمام هذا التطور ـ لدى التيار القومى ـ مايزال مفتوحا . . فيه العديد من الخطوات . . وأمامه العديد من الإمكانات والثمرات ! ! .

ذلك ، أن تبنى « الإسلام : الحضارة» له «منطق» يقول لنا : إن أى حضارة من الحضارات ـ ومنها حضارتنا الإسلامية ـ تتجاور فى سماتها وقسماتها : الفلسفة . . والسياسة . . والاجتماع . . والاقتصاد . . والقانون . . والأخلاق . . . والجماليات . . إلخ . . إلخ . .

فإذا كانت الحضارة إسلامية ، فإن مرجعية الإسلام فيها ولها تقتضى إسلامية هذه السمات والقسمات . . إسلامية قانونها وسياستها واجتماعها واقتصادها وأخلاقها وفلسفتها وجمالياتها . . وجميع مافيها من سمات وقسمات . . الأمر الذى يدعو الواقفين من الإسلام عند « الإسلام : الحضارة» ـ كى يتسقوا مع أنفسهم و«منطقهم» ـ إلى التقدم لتبنى كل الإسلام . . فلن يكون المشروع الحضارى إسلاميا إلا إذا انطلقت فلسفته من التبنى الكامل لكامل الإسلام . .

وإلا . . فأى منطق فى أن نرفض « علمانية الغرب » ، التى تجرد «القومية العربية» من «التراث الروحى للإسلام » ـ وهو ما صنعه ميشيل عفلق ـ . . وفى ذات الوقت نقبل « علمانية الغرب» التى تجرد « الدولة العربية» من «قانون الشريعة الإسلامية»؟! . .

* * *

تلك هى آفاق مصطلح « الإسلام » فى فكر ميشيل عفلق . . وهى آفاق تنتظر ــ من مفكرى التيار القومى العربى ــ من يواصل السير على طريقه ، فيفتح ويفسح أمامها سبل التطور والوضوح ، التى لاتعرف الحدود ، طالما استمرت فى التجدد والنمو حيوية العقل الإنسانى الساعى إلى الاقتراب أكثر فأكثر من المطلق والكمال المتمثلين فى الوحى الإلهى . . دين الإسلام ! . .

وكما سبقت إشارتنا . . فلقد كان من الضرورى إيضاح آفاق مصطلح «الإسلام» فى فكر الرجل . . ليستحضرها القارئ عندما يطالع نصوصه فيما سيلى من صفحات هذا الكتاب .

الإيمان الدّينى.. والنّزعة الروحيّة

فى فكـر الأستاذ ميشيـل عفلق ، على امتـداد مسيرتـه ، ومنذ فجـر حياتـه الفكرية والعمليـة حتى خطابه الأخير ــ إبريل سنة ١٩٨٩ م ــ قسمة واضحة وثابتة ومستمرة . . هى قسمة الإيمان الدينى . . والنزعة إلى تأكيد أهمية الروح ، والسلوك الروحى ، بالنسبة لضوابـط السياسة وسلوك المناضلين السياسيين . . وربط كل ذلك بمنبعه الغنى . . الإسلام ، وتـراثه . . والتأكيد على أهمية هذا الإيمان ، وهذه الروحانية فى مشروع البعث والإحياء المنشود للأمة العربية . .

تلك واحـدة من القسمات الثوابـت فى فكره ، التى مافتـئ يرددها ويـؤكد عليها فى العـديد من المنـاسبات . . حتى ليستلفـت تكراره لها وتأكيـده عليها أنظار دارسيه ، إذا هم تتبعوا خيطها على امتداد نصف قرن من الزمان ! . .

ففى المرحلة التى سبقت تأسيس حـزب البعث . . كون ميشيل عفلق سنة ١٩٤١ م ـ إبان الثـورة العراقية ، التى قـادها رشيد عالى الكيـلانى [١٣١٠ ـ ١٣٨٤ هـ ، ١٨٩٣ ـ ١٩٦٥ م] ـ ثورة مايو سنـة ١٩٤١ م ـ كون ـ فى سورية ـ تنظيما سماه : « نصرة العـراق » . . وفى أدبيات هـذا التنظيـم ، نجد أن هـدف «تنظيم الحياة الـروحية» لتكون طـاقة تحريـك لجماهير الشعب كـى تنصر ثورة العراق . . نجـد هذا الهدف منصـوصا عليه فى أدبيـات هذا التنظيـم . . فهو يدعو أئمة المساجد . . ويدعو المدرسين إلى أن يجعلوا خطبهم تدور حول نصرة

العراق ، وعـلاقتها بالقضية العـربية ، «ليوجهـوا ـ «بتنظيم الحياة الـروحية» ـ قلوب المسلمين وأرواحهم نحو هذه الغاية . . »[١] ! .

وفى خطابه الشهير : « ذكرى الرسول العربى » ـ ٥ من إبريل سنة ١٩٤٣م ـ يؤكد ، لا على إيمانه الدينـى فقط ، وإنما على أن هذا الإيمان هو مفتاح فهمه وفهم الطبيعة المتميزة لمشروعه ، فيقـول : « . . لايفهمنا إلا المؤمنون ، المؤمنون بالله . . إننا نؤمن بالله ، لأننا فى حاجة ملحة وفقر إليه عصيب . فعبئنا ثقيل ، وطريقنا وعر، وغايتنا بعيدة . ونحن وصلنا إلى هذا الإيمان ولم نبدأ به ، وكسبناه بالمشقة والألم ، ولم نرثه إرثا ، ولا استلمناه تقليدا ، فهو لذلك ثمين عندنا ، لأنه ملكنا وثمرة أتعابنا . . »[٢] . . ولقد أقمنا الـدليل ، من قبل ، على أن حـديثه هذا ، إنما كان يعنى الإيمان بالإسلام ، كدين ، والتدين به منذ ذلك التاريخ . .

والأمر الذى يعطـى هذه القضية ـ قضية التـدين . . والروحانيـة ـ أهميتها الحقيقية ، وآفاقها الواقعية ، فى المشروع الفكرى لميشيل عفلق ، لاتنبع فقط من تجاوزهـا للموقـف الفردى ، إلى حيـث غـدت دعوة يلـح على إبراز محوريتهـا وأهميتها ، دائما وأبدا ـ على النحو الذى سنشير إلى طرف منه ـ . . وإنما ـ زيادة على ذلك ـــ من وعـى الرجـل بضرورة الديـن والتديـن ، والروحـانية والنـزعة الأخلاقيـة ، لإنقاذ المشروع الحضـارى ، الذى بشر به ونـاضل فى سبيلـه ، من خطر المادية والإلحاد ، اللذين كـانا يمثلان خطرًا حقيقيـا على قطاع مؤثـر من الحركة الفكرية والسيـاسية العربية فى الحقبة التى بـدأ فيها ميشيل عفلق مسيرة الفكر والنضال . .

---

(١)[فى سبيل البعث]؛ جـ٥ ، ص ١٩ ، ٢٠ ـ .

(٢)[فى سبيل البعث] : ص ١٣٤ ـ طبعة دار الطليعة ـ بيروت ، سنة ١٩٧٤م .

كانت النزعة المادية والموجة الإلحادية ـ ومصدرهما الفكر الغربى ، وبخاصة شقه الماركسى ـ خطرين يهددان إيمان فكرنا ، وتدين سياستنا ، وروحانية وأخلاقية مشروعنا النهضوى . . وفى مواجهة هذا الخطر كتب ميشيل عفلق ـ سنة ١٩٤٦م ـ منبها ومحذرا ، فقال :

« . . نحن مهددون بأن تحل المادة محل الروح ، وأن يحتل الإلحاد مكان الإيمان ، والانفلات والتطرف محل الأخلاق ، إذا لم يع الشباب مسئوليته الخطيرة ، وهى فى أن يعطى هذه المفاهيم الروحية والقيم السامية معناها الحقيقى ، حتى تعود الروح فتسيطر مرة ثانية على الواقع وتفهمه وتستجيب لضروراته . فإذا أرجع الشباب إلى هذه القيم الروحية معانيها الأصيلة الحقيقية أنقذ أمته من أخطار العقلية المادية التى تهددنا فى أخلاقنا وحيويتنا وحرية فكرنا وأفرادنا ، كما تهددنا فى قضيتنا القومية ! . . »[٣] .

فهو ينبه على خطر « العقلية المادية » ، و«النزعة الإلحادية» على روحانيتنا . . وأخلاقنا . وحيويتنا . . وحريتنا . . على المستوى الفردى ، وعلى مستوى القضية القومية معا . ويدعو إلى إعطاء المفاهيم الروحية معانيها الحقيقية ، لصد هذا الخطر ، ولإعادة الروح إلى موقع السيطرة على الواقع ، مرة ثانية ، كما كان الحال إبان نهضة الأمة برسالة الإسلام ! . .

وهذا الملمح المهم من ملامح فكر ميشيل عفلق ، حول علاقة «الروح» بـ «الواقع» ، وضرورة «إعادة الروح إلى موقع السيطرة على الواقع» ، شديد الأهمية فى تحديد موقع الرجل فى هذا الميدان الفلسفى . . ميدان علاقة « الروح » بـ «الواقع» . . وبتعبير آخر: علاقة «الفكر» بـ «المادة» . . وهى قضية ثار حولها ،

---

(٣) المصدر السابق : ص ٣١٢ ـ « معالم الاشتراكية العربية» ـ .

فى حيـاتنـا الفكـريـة والثقـافيـة ، جـدل كبير وجـاد ، بسبـب الطـرح المادى الماركسى ، المعادى للروحانية ، أو الـذى يختزلها على النحو الذى يقطع صلاتها بالدين ، ويحولها إلى لون من ألوان الإفراز للنشاط المادى والاقتصادى للمجتمع والإنسان ! .

ولم يكن ميشيـل عفلق بالمنكر لـدور العوامل المادية والاقتصـادية . . وإنما كان واعيا بأولوية وأهمية الدين والتدين والفكر والروحانية والرسالة على عوامل المادة والاقتصاد . . فعنده أن « العـوامل الاقتصادية وإن لم تكـن كل شىء فى حياة البشر فهـى شىء كبير وخطير، وإن لم تكـن المؤثر الأول فـإن لها على كل حال تأثيرا متبـادلا، وفى بعض الأحيان حاسما مع العـوامل الأخرى(٤) . . ولو كان العـامل الاقتصـادى هو المحرك الأسـاسى الوحيـد ، لما كان هنـاك حزب البعث ، لأن حزب البعث منذ اليوم الأول لتأسيسـه ـ وكتاباته تشهد كما يشهد نضاله ـ نظـر إلى العوامل الأخرى لتطور المجتمعات ، مع أنـه يعتقد أن العامل الاقتصادى هام جدا وأساسى ، ولكنه ليس العامل الوحيد . . . » (٥) .

فليست هناك أوليـة ، ولا واحدية للعوامـل الاقتصادية ، كما تزعـم النزعة المادية الإلحادية . . وعلى العكس من المنهـج المادى الماركسى ، الذى كان يرى الفكر ـ بألوانه المختلفة ـ انعكسا للواقع . . أكد ميشيل عفلق أولية «**الرسالة**» فى مشروعه الفكرى والحضارى . . فكتب يقول :

«إن الثورة هـى من أجـل القضاء على التخلـف والاستغلال . . مـن أجل القضاء على الاستعمار . . ومن أجـل سعادة الناس . . إلخ . . ولكـن ، كل هذا يأتى بالـدرجة الثانية بعد الرسالة . . لأنك إذا لم تضع الـرسالة فى الدرجة

---

(٤) المصدر السابق : ص ١٦٣ ـ «العرب بين ماضيهم ومستقبلهم» ـ سنة ١٩٥٠ م .

(٥) [فى سبيل البعث] : جـ ٤ ، ص ٢٨٢ ـ «لقد نفذ حزبنا إلى ضمير الشعب» ـ أكتوبر سنة ١٩٦٣م ـ . .

الأولى لاتتحرر من الاستعمار ، ولاتتخلص من الصهيونية . فهذه الأشياء هى الميزة لحركتنا ، لأن التفكير الماركسى ، وشبه الماركسى ، والعلمى ، وشبه العلمى لايوصل إلى هذه الحقائق . . وأحيانا يوصل إلى الاستهزاء بها والتنكر لها ومجافاتها . . وبالتالى إلى التعثر والفشل . . »[٦] !

ونحن إذا تتبعنا « الخط البيانى » لفكر الرجل ، إزاء هذه القضية . . قضية ضرورة الدين والتدين والإيمان الدينى . . وضرورة الروحانية للمشروع النهضوى فإن باستطاعتنا أن نجد الخيط متصلا ، على امتداد عمره الفكرى ، واضحة فيه :

● الدعوة إلى تدين يجعل الدين مجددا لحياة الأمة وواقعها . . ومن ثم فهو تدين متميز عن « التدين الرائج » ، الذى يُسَخِّر الدين لتكريس الواقع البائس ، أو يقف به عند « شكل التدين » الخالى من المضمون ! . .

● والدعوة إلى « الروحانية ـ الواقعية » ، الجامعة بين المثالية ـ بل ولون من الصوفية ــ وبين مقتضيات التفكير العلمى . . الروحانية التى تهتم ببعد « الإرادة » و« الأخلاق » أكثر من الاهتمام « بالبعد الغيبى » . . وذلك لاستدعاء ميشيل عفلق « الإسلام : الحضارى » أكثر من استدعائه « الإسلام : الدين الخالص » ! .

ففى سنة ١٩٤٦م يتحدث عن معنى أن « دعوتنا الروحية دعوة واقعية » فيقول : « يجب ألا يُفهم من الدعوة إلى الروح أننا ندعو إلى المحافظة على الأوضاع الفاسدة ، أو أننا نتوهم أن الإصلاح الاجتماعى يمكن أن يتم بسهولة وذلك بمجرد توفر الرغبة وحسن النية ، وأن يظن أننا ننبذ التفكير الواقعى

---

(٦) من حديثه إلى مجلة [آفاق عربية] : ص ٩ . بغداد إبريل ، سنة ١٩٧٦م .

ونهمل ضرورات العلم ومقتضيات التفكير العلمى . إننا بعيدون عن مثل هذه الأوهام، لأننا نؤمن بأن واجبنا هو أن نكون واقعيين فى تفكيرنا كما لو كنا ماديين، لأن العودة بالمجتمع إلى الوضع السوى المنشود لاتكون بالوهم، والسحر، والغموض، وإنما بمشاهدة الواقع والتحقق من أمراضه ومداواتها مداواة حقيقية . . »(٧) .

وفى سنة ١٩٥٠م، يتحدث عن مكانة الدين والروحانية فى مشروع البعث . . وعن تميز هذه النظرة للتدين عن « التدين الرائج» يومئذ . . فيقول ـ تحت عنوان : « الدين فى البعث العربى» :

«لقد ظهر البعث العربى فى حياة العرب الحديثة، وفى وسط الجمود والجحود والنفعية والانحلال حركة إيمان عميق، تستقطب النفوس النقية السليمة . . فنشوء البعث العربى إنما هو دليل ساطع على الإيمان، وتوكيد للقيم الروحية التى ينبع منها الدين . . وقد دعا البعث العربى إلى مفهوم جديد للحياة القومية، والحياة بصورة عامة، قوامه : الإيمان بالقيم الروحية الإنسانية، وبقيمة الروح العربية الأصيلة، ومظهره : الانفصال الحاسم عن مفاسد الواقع ومكافحتها فى طريق صاعدة شاقة تسير فيها الأمة ببطء وجهد نحو الاتصال بروحها من خلال هذا الصراع الدامى بينها وبين واقعها. لذلك، لم يبق فى مفهوم البعث العربى مجال لأى تدين لايحمل آثار هذا الإيمان المثالى . والبعث العربى، الذى هو حركة روحية إيجابية، لايمكن أن يفترق عن الدين أو يصطدم معه، ولكنه يفترق عن الجمود والنفعية والنفاق . . فصفة الإيمان، المميزة للبعث العربى، هى التى فرضت عليه الاصطدام بجميع الحركات التى

---

(٧) [فى سبيل البعث] ـ طبعة دار الطليعة ـ بيروت سنة ١٩٧٤م ـ ص ٣١١ ـ «معالم الاشتراكية العربية»ـ . .

تنكر الإيمان، أو تتستر بإيمان سطحى زائف . . كما أنه لم يكن بد من التعرض للتدين الرائج، الذى تتمثل فيه أيضا هذه الشوائب . . ذلك الذى فقد كل صلة بالروح والحوافز التى كانت المصدر للدين بالماضى، والتى جعلت منه حركة إحياء وتجديد وبناء، فآل إلى حالة من الجمود والمحافظة والجهل فسحت أرحب المجال للرياء والاستغلال! . . [٨]».

وفى سنة ١٩٥٦م يكتب عن الدين، كضرورة خالدة فى الحياة الإنسانية، أزلا وأبدا . . وعن ضرورة الصدام مع التدين الرائج، لإخراج الدين من الحال التى وظفته لمقاصد منافية لمقاصده وغاياته . . فيقول :

«إن الدين تعبير صادق عن إنسانية الإنسان . . وهو ـ كما يظهر لنا من استعراض تاريخ البشر، منذ أقدم العصور إلى اليوم ـ شىء أساسى فى حياة البشر . إنه يمكن أن يتطور ويتبدل فى أشكاله، وأن يتقدم أو يتأخر، ولكنه لايمكن أن يزول . . ولكن، يجب أن نفرق بين الدين فى حقيقته ومرماه، وبين الدين كما يتجسد أو يظهر فى مفاهيم وتقاليد وعادات ومصالح، فى ظرف ومكان معينين . . فليس قدرا على الدين أن يبقى متحجرا دوما . الدين قادر على أن يعود إلى حقيقته إذا وجد أفرادا مؤمنين متجردين يعيدون إلى الدين صفاءه الأول . الدين شىء أساسى، وسيرجع إلى جوهره متغلبا على النقمة . . ونحن رغم معرفتنا الطريقة الرجعية التى استخدم الدين بها ليكون داعما للظلم والتأخر والعبودية، نثق، رغم ذلك، بأن الإنسان يستطيع أن يثور على هذه الكيفية فى استخدام الدين، وعلى هذا النوع من التدين الكاذب والمشوه، وأن يعطى فى نفس الوقت للدين الحقيقى الصادق حقه . . كثيرا

---

(٨) [فى سبيل البعث] : جـ١، ص ١٧٣، ١٧٤ ـ « العرب بين ماضيهم ومستقبلهم » ـ وانظر كذلك : ص ١٦١ ـ.

ماقيل لنا، خلال السنوات التى مر بها الحزب فى نضاله، من جماعات رجعية، متأخرة فى عقليتها، استغلالية فى سلوكها، تمثل المصالح والعقلية والأوضاع التى يتوجب علينا القضاء عليها، كثيرا ماقيل لنا: مادامت نظرتكم إيجابية ومادمتم تعرفون قيمة الدين، فما الفرق بيننا وبينكم؟!..

الفرق كبير جدا، هو الفرق بين النقيضين. نحن نعتبر أن الرجعية الدينية تؤلف مع الرجعية الاجتماعية معسكرا واحدا يدافع عن مصالح واحدة، وأنها أكبر خطر يهدد الدين.. ولذلك.. فالمناضل البعثى يجب أن تتوفر فيه شروط صعبة جدا، وتكاد تكون متناقضة. فهو حرب على كل تدجيل باسم الدين والتستر وراءه لمنع التطور والتحرر، والإبقاء على الأوضاع الفاسدة والتأخر الاجتماعى، ولكنه فى الوقت نفسه يعرف حقيقة الدين وحقيقة النفس الإنسانية، التى هى إيجابية، قائمة على الإيمان، لاتطيق الإنكار والجحود.. إذن، على المناضل البعثى، عندما يحارب الرجعية ويصمد أمام هجماتها وافتراءاتها وتهيجاتها و إثارتها، أن يتذكر دوما أنه مؤمن بالقيم الإيجابية والقيم الروحية، وأنه إنما يحارب تزييف القيم من قبل الرجعية، ولايحارب القيم نفسها. وأنه عندما يساير جمهور الشعب، ويتصرف تصرفا حكيما معه، دون أن يجرح عواطفه، لكى ينقله تدريجيا إلى مستوى الوعى اللازم، عليه أن يتذكر أنه رجل ثائر متحرر لايقبل لنفسه ولا لأمته مستوى رجعيا رخيصا من الاعتقاد، ولاصورة مشوهة للعقيدة الروحية، وأن مسايرته للشعب ليست إلا وسيلة مؤقتة لكى يهيئه لأن يفهم الأمور الصعبة..»[٩]!!

* * *

(٩) [فى سبيل البعث]: طبعة دار الطليعة ـ بيروت سنة ١٩٧٤م ـ ص ٢٠١، ٢٠٦، ٢١٢ـ٢١٧ ـ «نظرتنا إلى الدين» و«قضية الدين فى البعث العربى» ـ.

ثم يعرض ميشيل عفلق لتجربة الغرب مع التدين الفاسد، الذى وظف الدين لتكريس الفساد والظلم والجمود. . وكيف أدى ذلك إلى الإلحاد الغربى. يعرض لهذه التجربة الغربية، من موقع الناقد الرافض للفعل ولرد الفعل فيها. .

« . . . فالدين المسيحى، فى أوربا، حتى اليوم، بأكثرية ممثليه الرسميين، هو إلى جانب الفساد والظلم، يحميهما ويعطيهما مبررات البقاء، لذلك فقد نفوذه، وطغت موجة الإلحاد فى الغرب، ليس عبثا، بل لهذا التناقض، لأن الدين، بممثليه، وقع فى التناقض، لأن الدين وجد ليشجع على المحبة والإخاء، ليحمى الضعيف، ولكن أصبح بممثليه سياجا لكل المساوئ. .

والفهم السطحى. هو أن نستنتج بسرعة، بأنه مادام مظهر الدين فى هذا الوقت، ومادام ممثلو الدين الرسميون هم فى صف الواقع الفاسد، وليسوا فى صف الثورة على الفساد، فإذن الدين من أساسه فاسد، ولا وجوب له، ولا خير فيه، لذلك يجب التخلص من الدين، لأنه سلاح بيد الظالمين والمفسدين. **هذه هى النظرة السطحية والاستنتاج الخاطئ جدا، وهذه هى النظرة التى توقفت عندها الشيوعية. . نحن لا نرضى عن الإلحاد. . ونعتبره موقفا زائفا فى الحياة، موقفا باطلا وضارا وكاذبا، إذ إن الحياة معناها الإيمان، والملحد كاذب! . إنه يقول شيئا ويعتقد شيئا آخر. . إنه مؤمن بشىء. . مؤمن ببعض القيم. .** ولكننا ننظر إلى الإلحاد كظاهرة مرضية يجب أن تعرف أسبابها لتداوى. . وعندما تستيقظ الشعوب، وتسترد حقوقها وكرامتها لايمكن أن تقنع بالإلحاد، وعندها تخطو الخطوة الجديدة. . وتعود إلى دين واضح سليم منطبق تمام الانطباق على مراميه الأولى. . »[١٠].

---

(١٠) المصدر السابق: ص ٢٠٥، ٢٠٨ - « نظرتنا إلى الدين ».

فحتى فى الغرب ، لا بد من العودة إلى حقيقـة الدين . . كى تزول مبررات الإلحاد . .

وفى سنة ١٩٦٤م . . وإبان بدايات الأزمة التى تعرض لها ميشيل عفلق فى العمل الحزبى الداخلى . . أشار إلى أثر الإيمان الدينى - إيمانه هو - فى مواجهة الصعاب ، وفى التغلب على النواقص ونقاط الضعف الذاتية ، فكتب يقول :

« إن لدى نواقص كثيرة ، ومواطن ضعف ، ولولا إيمانى بالله . . إنى أومن به ، وذكرت ذلك فى كتاباتى ! ! - الإيمان بـالله . . بالأمة العربية . . بالشباب العربى . . الـذى أعطانى الثقة ، وأكثر مما أستحـق . . تغلبت ، ولم أيأس ، بل تابعت الطريق ! . . »[١١] .

وفى سنة ١٩٧٦م ، يتحدث - فى مدرسة الإعداد الحزبى ، بالعـراق - عن مميزات حركة البعـث ومشروعه الفكرى . . وعن الخصوصية التـى لم تجعل هذه الحركة جزءا مـن الحركة الشيوعية العـربية ، فيؤكد على أن الموقـف الإيجابى من الدين ، مطلـق الدين ، والإيمان بمكانة الإسـلام الأساسية فى تكويـن القومية العـربيـة ، هما جماع الخصـوصيـة التـى ميـزت طـريـق البعـث عـن طـريـق الشيوعيين . . يؤكد على ذلك فيقول :

«إن حركتنا تعتز، فى جملة ما تعتز به من مميزات تجلت فيها خصوصية الثورة العربيـة ، بل خصـوصية الأمـة العربيـة ، تعتز حـركتنا بمـوقفها الإيجابـى من الدين . وقد أعلنت ذلك بكل ثقة وقناعة يـوم كانت الحركة الشيوعية والنظرية الماركسية ، قبـل ثلاثين عـاما أو أكثـر ، عند بـداية الحزب ، تخلـق نوعـا من الإرهاب الفكرى على الأجيال العربية . وكلكم تعرفون بأن الشيوعية والماركسية

---

(١١) [فى سبيل البعث] : جـ ٤ ص ٤٢٠ - «البعث : اشتراكية علمية زائد روح» - ٢ فبراير سنة ١٩٦٤م -.

أخذت تتراجع عن شعاراتها وادعاءاتها فيما يخص الأديان وأهمية الدين ودوره فى المجتمع . ولعلكم تعرفون ما تم ، فى هـذا المجال ، فى أوربا ، وموقف الأحزاب الشيوعية فى بلـدان أوربا الغربية ـ المعروفـة بأنها القسم الراقى من العـالم ـ هذا من ناحية . وبـأن نظرتنا كانت نظرة عميقة إلى النفس الإنسـانية ، إلى التاريخ البشرى ، ونظرة أصيلة ، إلى تاريخنا نحـن ، وإلى تكوين أمتنا . فحركتنا قامت بشيئين ، فى هذا المجال : أعطت الدين ، بصورة عامة كدين ، دوره المشروع فى حياة البشر وتـاريخهم وتطـورهم . وأعطت الإسـلام ، الدين العـربى ، الـدين الإنسانى ، أعطتـه المكانة الأساسية فى تكـوين قوميتنا ، ليس فقـط بالنسبة إلى الماضى ، وإنما بالنسبة إلى كل وقت ، فمادامـت الأمة العربية على هذه البسيطة فالإسـلام هو التراث الـروحى ، وهـو المحرك لها ، هـو ملهمها ، هـو مرجعهـا الروحى ، وهو الحركة الثورية المثلى فى نظر البعث . . (١٢)» .

هنا ، وفى هـذا النص البالـغ الأهمية ــ والذى تحدث به ميشيـل عفلق إلى إطارات حزبية فى مدرسة الإعداد الحزبى ــ وليس إلى أجهزة الإعلام والدعاية ـ هنا يتجلى مكان الدين الإسلامى فى مشروع الرجل النهضوى . . فإذا هو مكان « الأساس فى تكوين القومية» ، لا من النـاحية التاريخية فيما مضى من قرون ، فقط ، وإنما «بالنسبة إلى كل وقت » . . فالإسلام «هو التراث الروحى للأمة . . وهو المحرك لها ، وهو ملهمها ، وهو مرجعها الـروحى . . وهو حركتها الثورية المثلى ! . . » دائما وأبدا « مـادامت هذه الأمـة على هذه البسيطة» . فـالإسلام ، والتـديـن به ، واستلهـامـه هـو المركـز والمحور فى أى مشروع للنهضـة والثـورة والتجديد ! . .

---

(١٢) المصدر السابق : جـ٣ ص ٢٩ ، ٣٠ ـ « أصالة الأمـة قوة نضالية متجددة» ـ ٩ ـ ١ ـ ١٩٧٦م ـ .

وعندمـا يفتش ميشيل عفلـق فى تراث تجربته الفكـرية والحزبية عـن شيء ثمين صـالح لترشيـد واقع هـذه التجربـة فى حقبة السبعينيـات . . نراه يلقـى الضوء على «الروحانية ـ الصوفية» التى تميزت بها تجربة البدايات ! . . يستلفت إليها الأنظار ، وكأن لسان حاله يقول : إن الحال قد غاير الآمال ! ! . . يقول :

«إننا إذا بحثنـا عن شيء فى ماضـى حزبنا يسـاعدنا على متابعـة النضال ، وينفعنا فى حاضرنا ، لوجدنا فى ماضـى الحزب روحا نضالية أكاد أصفها بأنها فى بعض الأحيان كـانت صوفية ، نظرة إلى النضال ، وإلى الأهـداف المقدسة ، فيها كل الإيمان وكل التـواضع وكل الزهد ، وفيها الـذوبان فى القضية ، ذوبان الأنانيـة ، ونحن بحاجـة إلى أن نتذكر هـذه الروح ، وأن نبعثها بـاستمرار وأن نحييها . . فعندمـا يكون الطموح بعثا حضـاريا للأمة العـربية فى هذا العصر، تعطى فيـه أمتنا مساهمة جديـدة متميزة للحضارة العـالمية ، عندها لاغنـى عن الرجـوع أيضا إلى تلـك الروح الأولى التى ألهمـت الأجيال البعثيـة الأولى الروح الصوفية ، وفى الوقت نفسه الروح الـواقعية العلمية ـ ولا أحد يستطيع أن ينكر علينا واقعيتنا وعلميتنـا ـ نعود إلى تلك الـروح نحييها ونجددها ، لأننـا بدونها لانستطيع أن نفى بشروط هذا الطموح الكبير ! . . »[١٣].

ثـم يعود الـرجـل ، فى مناسبـات عدة ، ليـؤكـد على ذات المعنى : أهميـة الروحـانية للنضـال ، إذا كان الهدف مـن ورائه بعث أمـة لها تراث روحـى هو الإسلام . . . ففى حديثه إلى مسئولى المنظمات الحزبية ، خارج الوطن العربى ، يقول لهم : « . . أحسن ما أستطيع تقديمه لكـم ، هو تذكيركم بهذه الروح التى

---

(١٣) المصدر السابق : جـ٣ ، ص ٥٦ ، ٥٨ ـ « وحدة التجـربة النضالية للحزب فى الزمان والمكان » ـ ١٥ ـ ٣ ـ سنة ١٩٧٦م .

ولد منها البعث ، أن أذكركم بقوة الروح بصورة عامة ، ليس فقط بالنسبة إلى البعث ، ولكن فى كل الحالات ، وفى كل الأزمان ، وعند كل الأقوام ، والروح هى الأقوى دوما . . قوة الروح ، قوة الإيمان ، قوة التصميم ، هذا هو المنشأ . . الروح تخلق المادة ، لا العكس . . والمادة نابعة من الروح وتابعة لها ! ! . . »(١٤) .

هنا ، مرة أخرى ، يؤكد الرجل تميز موقفه الفكرى واختلاف خياره الفلسفى عن الموقف والخيار ، المادى . . فهو متدين . . وتدينه يجعله ذا نزعة روحية . . والروح عنده ، هى التى تخلق المادة ، على عكس ما يحسب الماديون ! . .

بل لقد رأى ، ككل المؤمنين ، الذين يؤمنون أن إنسانية الإنسان إنما تتحقق بقيام التوازن فى ذاته ومحيطه بين المادة والروح . . فبسط الحديث حول هذه الفكرة ، فقال : إن الإنسان بصورة عامة ، فى كل مكان وزمان ، هو مادة وروح ، لايكفيه ولايغنيه أن يأكل ويشبع . ولكن إنسانية الإنسان الحقة إنما تبدأ بعد الشبع ، بعد الأكل ، عندما يحقق مواهبه وقدراته ، عندما ينظر إلى مهماته الاجتماعية والقومية التى تعطى معنى لحياته ، إنسانية الإنسان تبدأ عندما ينصرف إلى العمل والخلق والإبداع والنضال وإلى كل شىء يتجاوز شخصه ويتجاوز أنانيته الضيقة ، لأنه عندئذ يشعر بملء إنسانيته ، وبأنه ليس خلية عمياء فى جسم أو آلة ، وإنما هو فرد حر وجد لغاية سامية فى هذه الحياة ، وأنه مطالب بأن يعطى لحياته معنى ساميا . . »(١٥) .

---

(١٤) المصدر السابق : جـ ٥ ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ ـ « الموقف المسئول أمام التاريخ » ـ ٣ ـ ٨ ـ ١٩٨٠م ـ وجـ ٣ ، ص ١٢١ ـ « البعث وتحديات المستقبل » ـ ٧ ـ ٤ ـ ١٩٨٠م .

(١٥) المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ٧٥ ـ «بناء المناضل» ـ ١١ ـ ٥ ـ ١٩٧٧م .

إنها « روحـانية ــ واقعية» ــ كما يسميها ــ . . «روحانيـة ـ اجتماعيـة» . . تتحقق بعـد إشباع الإنسـان لاحتياجـاته ، لابتجـاهل هـذه الاحتياجـات . . وتزدهر عنـدما يتجاوز الإنسان ذاتـه ، لابقهر هذه الذات . . إنها « روحـانية ـ المناضل» فى سبيل بعث الأمة ، لا روحانية الذى يدير ظهره لحياة النضال! . . ولذلـك ، احتاج ميشيـل عفلق إلى إيضاح المعنـى المتميز الـذى يعنيه عنـدما يتحدث عن «الروح» . . فميز مراده عن المعنى الشائع والرائج لهذا المصطلح ، وقال :

«ليس لهذه الكلمة فى استعمالنـا وفى قصدنا أى معنى غيبـى أو ما ورائى . هى تعبير عن نزوع الإنسـان ونزوع الجماعة ـ سواء أكانت حركـة نضالية أم أمة بكاملها ـ إلى تحقيق المثل وإلى الانسجام فى الحيـاة مع المثل الأخلاقية الرفيعة . هذا هو المقصود . . »(١٦) .

فعند الرجل . . « يجب أن تتحد الصلاة مع العقل النير مع الساعد المفتول لتؤدى كلها إلى العمـل القوى المبدع . . » (١٧)! . . إنها روحانيـة ـ كما أشرنـا ـ تهتم باستدعاء « مُثُل» الإسلام الحضارى ، أكثر من اهتمامها بالجانب الغيبى ـ الدينى الخالص ـ من الروحانيـات! . . تلك هى حدود الرجل ، والآفاق التى رآها ضرورية للمشروع الحضارى من الروحانيات .

* * *

ولذلك . . كان علينا أن ننبه ـ عند هذا المقام من الحديث عن مقام التدين والروحانية فى المشروع الفكرى لميشيل عفلق ـ أن ننبه على حقيقتين هامتين :

---

(١٦) المصدر السابـق : جـ ٣ ، ص ٢٩ ـ « أصالة الأمـة قوة نضالية متجـددة» ـ ١٩ ـ ١ ـ ١٩٧٦م .

(١٧) المصدر السـابق : جـ ٥ ، ص ٣٢٤ ـ «مـزايا التجربـة الثورية فى العراق » ــ ٦ ـ ٤ ـ ١٩٨٦م .

الحقيقة الأولى : أن تـدين الـرجل ، وتديـن مشروعه الفكـرى . . إنما ينفى عنهما المادية . . لكنـه لايثبت لهما التماثل والتطـابق مع نهج الـدعاة والمصلحين الإسـلاميين والمشروعات النهضـويـة الإسلاميـة ، التـى انطلقـت من الالتـزام بالإسـلام الكامـل : عقيدة وشريعـة وحضارة ومنهـاجا متكـاملا فى الحيـاة . . ففارق ـ حضارى ونضالى ـ وليـس عقديا ـ بين «المسلم» المتدين بـالإسلام ، وبين «الإسلامى» ، الملتزم بكامل الإسلام فى شمـوله ، والمجاهد فى سبيل نهضة ملتزمة بكامل الإسلام . .

ولقد كـان عفلق واعيـا بهذا الفارق بين مشروعـه وحزبـه وبين المشروعات والجماعات الإسلامية ، والتى كان يطلـق عليها « الفكر والحركات الدينية» أو «النظريـات والأيديولوجيـات الدينية» . . وكـان واعيا ، كذلك ، بما بينـه هو وحزبه وبين هذه الدعوات والحركات من أسباب المنافسة . . بل والصراع . .

فهو يكتـب ـ فى سنة ١٩٥٠م ـ يقـول : « . . هناك عرب آخـرون يعترفون بالصفة العربية لهم ، ولكنهم يعملون ويفكـرون بوحى أفكار دينية أو طائفية . وهـم كذلـك يتعامـون عن هـذا التنـاقض وهـذا الاختلاف البين بين الفكـرة العربية ، التى هـى قومية فى أساسها وجوهرها ، وبين الفكـر والحركات الدينية والطائفية . .»[١٨] .

وفى مناسبـة أخرى . . وتاريخ آخـر ـ سنة ١٩٧٦م ـ يكـرر ذات المعنى ، فيقول : «أما النظريات والأيديولـوجيات الدينية ، فرأينا ، أو رأى الحزب فيها بأنها لاتؤدى الغرض القومى ، ولا توصل إلى نتيجة إيجابية . تصورنا تصور كلى للحياة القوميـة . الحياة القومية ، فى نظرنـا ، تشمل كل شىء والعقيـدة الدينية

(١٨) المصدر السابق؛ جـ٤ ، ص٥٣ ـ «البعثى هو العربى الجديد» سنة ١٩٥٠م ـ.

داخلة فى تكوينها دخولا عضويا . . فنحن فهمنا التراث كحركة ثورية ، وأعلى حركة ثورية يمكن أن توجد ، وهذا يعزز ثقتنا بأمتنا ، إذ منها ظهرت هذه الحركة ، وعلى أرضها نشأت ، ومن عبقريتها وعبقرية أبطالها وأخلاقهم تكونت ، فهذا إذن داخل فى تصورنا الثورى الأساسى . . »[١٩] .

هنا ، يتحدث ميشيل عفلق عن « التناقض والاختلاف البين بين الفكرة العربية ، التى هى قومية فى أساسها وجوهرها ، وبين الفكر والحركات الدينية » . .

وهنا ، نود أن نقول إن تطورا وتغيرا قد لحقا بفكر ميشيل عفلق فى قضية العلاقة بين «القومية العربية» وبين «الإسلام» . . وهذا التطور والتغير سيأتى الحديث عنهما فى الفصل الأخير من هذا الكتاب .

لكن . . يبقى التنبيه والتأكيد على أن مشروع ميشيل عفلق ، حتى بعد تطور فكره عن علاقة «القومية» بـ « الإسلام» لم يكن مشروعا إسلاميا ، مماثلا للمشروعات التى تطرحها الدعوات الإسلامية لإنهاض الأمة بالإسلام . . وإن اقترب اقترابا ملحوظا من طبيعة وحقيقة وجوهر هذه المشروعات ! . .

والحقيقة الثانية : هى أن ميشيل عفلق كثيرا ماكان يعبر عن إحساسه بقيام اختلاف كبير، وربما تناقض أحيانا ، بين رؤيته هو لمكانة الإسلام فى مشروعه النهضوى ، وبين مكانة الإسلام فى واقع الممارسات الحزبية للحزب الذى يقوده ! ! . . حتى لتبدو أفكاره عن دور الإسلام ومكانته فى المشروع البعثى غريبة فى نظر الكثيرين من البعثيين ! ! . .

---

(١٩) المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ٣٠ ـ «أصالة الأمة قوة نضالية متجددة» ـ ١٩ـ١ـ ١٩٧٦م ـ

لكنـه لم ييأس مـن دعوة الحزب وقيـاداته إلى الالتفـات إلى هذه القضيـة ، والاهتمام بإحـلال الإسلام مكـانه الطبيعى فى الفكـر والممارسات . . ففـى سنة ١٩٦٣م ، يكتب فيقول :

« ثورة البعث أرادت منذ البدء أن تأتى بعنصر روحى ، إلى أى حد توقفت؟ هذا شيء آخـر ! . وأقول إن هناك تقصيرا ، وكلنا مسئولون ، ولكـن هل هذا يكفى لكى نيأس من ذلك الطموح الذى غذى نضالنا منذ البدء؟ هل يجوز لنا أن نتخلى عن ذلك المطمح الأول ؟! . . »(٢٠) .

وفى سنة ١٩٦٤م ، ينبه على ذات الأمـر ، فيقول : «رغم مرور عشرين سنة على نضالنا ، مازلنا بحاجة ماسة حيوية إلى النظرة الأولى التى رافقت نشوء هذا الحزب . . إلى نظرة الزهد ، والصبر ، والارتفاع فـوق الأنانية ، وإلى الإيمان بكل معانيه ، فـالإيمان لايتعارض مع التفكير العلمى ، والنظـرة العلمية إنما يعطيها الإيمان الروح والغـذاء ، ويعطيها الصبر والنفس الطـويل ، ويقيها مـن اليأس والتخاذل والنفعية والانتهازية . . الإيمان بـالمثل . . الإيمان بالحقيقة . . الإيمان برسالة الأمة العربية . . الإيمان بالله . . » (٢١) .

وفى سنة ١٩٧٦م ، يعترف بـأن ثمرات قراءتـه للإسلام « بعضهـا واضح ، وبعضها واقع بين الوضوح والإبهام . . »(٢٢) .

---

(٢٠) المصدر السابق : جـ ٤ ، ص ٣٨١ ـ « لقد نفذ حزبنا إلى ضمير الشعـب» ـ أكتوبر سنة ١٩٦٣م ـ .

(٢١) المصدر السابق : جـ ٤ ، ص ٧١ ـ « نجاحنا يكمن فى صدقنا ومصارحتنا للشعب» ـ ٧ من إبريل سنة ١٩٦٤م ـ .

(٢٢) [آفاق عربية] : ص ٦ . عدد إبريل سنة ١٩٧٦م ـ .

وفى سنة ١٩٧٧م ، يعترف بأن هذه القضية « لم تعط حتى الآن الاهتمام الذى تستحقه ، بل بقيت مجهولة من الكثيرين ، ولم يستخرج منها كل العبر الكامنة فيها ، كالموقف من التراث والإسلام . . »(٢٣) .

وفى سنة ١٩٨٠م ، يعترف بأن «الظروف السياسية ، وظروف المجتمع ، وصعوبة العمل الثورى فى مجتمعنا ، هذه الأمور أخرت ظهور هذه الأفكار ، و إعطاءها الاهتمام المطلوب ! . . »(٢٤) .

فإذا كان الإيمان الدينى ، والتدين بالإسلام الدين . . وإذا كانت النزعة الروحية قد مثلت واحدة من السمات الثوابت فى المشروع الفكرى للأستاذ ميشيل عفلق . . فإن واحدة من السمات الثوابت فى فكر الرجل كانت التنبيه ، دائما وكثيرا ، على أن هذه السمة لم تجد طريقها الفسيح ، ولامكانها اللائق ، ولم تتخذ حجمها الطبيعى فى الممارسات العملية للحزب الذى تبنى هذا المشروع ! .

---

(٢٣) [فى سبيل البعث] : جـ٣ ، ص ١٢١ ـ « البعث وتحديات المستقبل » ـ ٧ من إبريل سنة ١٩٧٧م ـ .

(٢٤) المصدر السابق : جـ٣ ، ص ٩٠ ـ « حوار حول الدين والتراث » ـ ٢٧ ـ ٤ ـ ١٩٨٠م ـ .

التراث .. والتقدم :
ماذا يعنيان فى المشروع البعثى؟

فى كتابات الأستاذ ميشيل عفلق، تتردد كثيرا كلمة «التراث» . . تراث الأمة . . التراث القومى . . التراث العربى . . التراث الروحى . .

وعندما يُذكر « التراث » ، فإنه يُذكر باعتباره مرجعا من المراجع التى حددت للأمة العربية خصوصيتها بين الأمم الأخرى، فى خلود قوميتها، وفى إنسانية هذه القومية، وفى كونها أمة ذات رسالة خالدة، تستجيب دائما وأبدا الاستجابة الإيجابية ، للتغلب على التحديات ، وتنهض بأداء رسالتها، لا فى محيطها و إنما إلى العالمين . .

و إذا نحن تتبعنا المواطن والمعانى التى جاء فيها حديث الرجل عن «التراث»، فإننا نستطيع أن نتبين عددا من الحقائق الفكرية . . منها :

(أ) فهم متميز لدور التراث فى المشروع النهضوى العربى . . ومعنى متميز لعلاقة التراث بالحاضر والمستقبل . . ولكيفية تعامل الجيل الحاضر، جيل الثورة والبعث، مع التراث . .

(ب) فهم متميز لمعنى « التقدم » و«التقدمية» ـ فى علاقتها «بالتراث» و«الماضى» ـ . . يجعل لهذه المصطلحات مضامين ووظائف فى محيط المشروع

الحضارى العربى مختلفة ومخالفة لمضامينها فى المشروع الحضارى الغربى . .

(جـ) الإفصاح ، منذ حقبة السبعينيات ـ عندما وضحت مكانة الإسلام فى مشروعه الفكرى ، وأخذ يكثر من الإعلان عنه ـ الإفصاح منذ هذه الحقبة ـ وبالتحديد منذ سنة ١٩٧٧ م ـ عن أن مراده بـ « التراث » ـ الذى له هذه المرجعية فى مشروعه الحضارى ـ هو «الإسلام» ! . .

تلك بعض من الحقائق التى يلمسها المتأمل لكتابات ميشيل عفلق عن «التراث» . . آثرنا الإشارة إليها قبل تفصيل الحديث فى هذا الموضوع .

* * *

منذ مرحلة مبكرة فى الحياة الفكرية لميشيل عفلق ، تحدث باستفاضة ، وتحديد ، عن مفهومه «للتقدم والتقدمية» ، فأعطى هذه المصطلحات ، التى أشاع الماركسيون استخدامها ـ أكثر من غيرهم ـ فى الحياة الفكرية والسياسية ، أعطاها معانى ومضامين جديدة ، مغايرة لمعانيها الماركسية ، بل ولمعانيها الغربية بوجه عام . .

فالتقدم والتقدمية والحداثة ، كانت تعنى ـ لدى الماركسيين وعموم المتغربين ـ النقيض لاستلهام الماضى والتراث ـ الذى رأوه رجعية وتخلفا ! .

لكن ميشيل عفلق أخذ يلح فى كتاباته على معنى جديد للتقدم والتقدمية ، يعنى التجديد للماضى والإحياء للتراث ، وتجاوز آثار وأمراض حقبة التراجع والجمود والانحطاط فى مسيرتنا الحضارية ، لتحقيق التواصل الحضارى بين النهضة المنشودة وبين العصر الذى مثل نهضة وازدهار التراث . . فالتقدمية هى التجديد والإحياء للتراث ، لامن خلال « قراءته» و«تكراره» و«تقليده» ، وإنما من خلال «إحيائه» ، أى إحياء روحه فى مشروعنا الحضارى المعاصر . فنحن ،

بمعاناة الواقع الحاضر ـ « المعاصرة » ـ نكتشف هويتنا التراثية ، ونتقدم لاستعادة قيمنا الأصيلة ، التى تجعل « معاصرتنا » ـ فى كل مناحى مشروع النهضة الحديث ـ متميزة عن «معاصرة» أية أمة أخرى لا تدين بالولاء والانتماء لهذا التراث الذى تمنحه أمتنا هذا الولاء وهذا الانتماء ! . .

فليست « التقدمية » «الحداثة» انقطاعا عن التراث ، كما أرادها المتغربون ، يؤدى شئنا أو لم نشأ ـ إلى استبدال «الوافد الغربى» ـ بـ « الموروث العربى» . . وإنما هى إحياء وتجديد للتراث ، وتقدم لامتلاكه ، من خلال معاناة قضايا ومشكلات الواقع الذى نعيش فيه . .

يعرض ميشيل عفلق لهذه القضية ، ويقدم لها هذا الفهم ، عندما يكتب ـ فى سنة ١٩٥٠ م ـ تحت عنوان : « التقدمية : سبيل اتصالنا بماضينا » ، فيقول :

« . . النظرة التقدمية هى حب وإيمان ، وبناء وإبداع ، وجهد ومسئولية ، **لتخالف ، بل تناقض كل مايرمى تحت ستار هذا اللفظ إلى التحلل والانحلال والهدم . والتقدمية ، بمعناها الصحيح ، ليست إلا استئنافا لسير الأمة فى تاريخها الحى الصاعد قبل أن ينتابها الجمود والانحطاط . وما التحرر الذى نطلبه إلا تحرر من أثقال القيود والرواسب التى تراكمت على صدر الأمة خلال تلك الفترة الطويلة ، التى توقفت فيها عن السير وعن الاتصال بمعين روحها الأصيل . . . وعند ذلك ترجع الصلة الضائعة ، ويتبين لنا أن التقدم ، الذى كان فى ظاهره تحررا من القديم وابتعادا عنه ، لم يكن فى الواقع إلا سلوك الطريق الطبيعى الوحيد لعودتنا إلى ماضينا وذواتنا . . وكل ذلك يظهر واضحا** ومعقولا إذا نحن فهمنا من الماضى أنه كان قوة روحية فحسب ، وأن عودة اتصالنا بماضينا لايجوز أن تعنى إلا بلوغنا ذلك المستوى الروحى الذى هو وحده كفيل بأن يبنى لنا الحياة القومية المبدعة الراقية والمجتمع السليم

الأوضاع ، القويم الأخلاق ، وبأن يلهمنا استنباط الوسائل والأشكال الملائمة لعصرنا وشرائط مجتمعنا . . »[١] .

فالتقدم والتقدمية ليست التحرر من القديم والابتعاد عنه . . ولا هي استبدال التحلل والانحلال والهدم بقيمنا الموروثة . . وإنما هي العودة إلى ماضينا وذواتنا ، لتحقيق الاتصال بمعين روحها الأصيل ، استئنافًا لسير الأمة ومسيرتها الحضارية ، قبل أن ينتابها الجمود والانحطاط . إنها الإحياء والتجديد والبعث . . وليست حداثة الانقطاع الحضاري . . الذي هو مقدمة للإلحاق الحضاري بالغرب ـ كما أرادها المتغربون ! . .

وهذا التراث الذي أساء المتغربون الظن به ، فحسبوه أكفان موتى ، وآثارا عفا عليها الدهر ، وانقطع صلاحها ، وغربت شمس صلاحياتها للحاضر والمستقبل ، بتعميم وإطلاق ، يراه ميشيل عفلق في صورة مختلفة . . «فنحن نستند إلى تراث قومي أصيل ، تجلى في نهضتنا الأولى في القديم ، وبالرغم من كل ماطرأ عليه من جمود وتشويه ونسيان ، فلقد بقيت فيه عناصر حية تسرى في حياتنا سريان الماء تحت الأرض ، وتحيا في تقاليدنا الشعبية وقيمنا الأخلاقية . . »[٢] !

وإذا كان البعض قد فهم « الثورة» و«الثورية» على أنها الانقلاب الشامل على الواقع والماضي ، على النحو الذي يقتلع الجذور . كل الجذور ! . . فإن ميشيل عفلق يرفض هذا المفهوم للعمل الثوري . . ويقول : «إن العمل الثوري

---

(١) [في سبيل البعث] : جـ ٣، ص ١٥ ، ١٦ ـ «التقدمية سبيل اتصالنا بماضينا» ـ ١٥ ـ ٢ ـ ١٩٥٠م. .

(٢) المصدر السابق : جـ ٥ ، ص ٢٣ ـ « إنسانية نضال الأمة العربية» ـ يوليو ، سنة ١٩٥٨م. .

هـو اختصار الـزمن دون قلـع الجذور. . »[٣]. . فهـو إحياء، يختصر الـزمن الضـائع فى الجمود والموات، وتجديـد، لايقتلع الجذور، المحققـة لهوية الأمـة ولتواصلها الحضارى.

* * *

ومن الأفكار الأصيلـة والواضحة لدى ميشيـل عفلق، فى كل ماكتبـه عن تراث هـذه الأمة، فكـرة: مستقبلية هذا التراث . . بمعنى: ديمـومة فعلـه وتأثيره، فى حاضر الأمـة ومستقبلها المنشود، على النحو الذى كان فيـه فاعلا ومـؤثـرا فى عصر نهضتهـا الأولى إبـان ظهـور الإسـلام. . فتراثنـا العـربـى الإسـلامـى. . تـراث هـذا الشعب العـربـى المسلـم لـه المرجعيـة فى المشروع الحضارى المعاصر . . والمستقبلى . . كما كانت له المرجعية فى عصور الازدهار التـى سبقت حقبـة التراجـع والجمود والانحطـاط . . يلـح الـرجل على هـذه الأفكار الجوهريـة، التى تنقض وترفـض مفهوم «تاريخية التراث»، تلك التى يبشر بها أنصار التغريب والحداثة الغربية. . فيكتب قائلا:

« . . لأقلها ببساطة: نحن شعب عربى مسلم، تراثنا ليس للماضى فقط، وإنما نـور وضـوء على المستقبـل، ومنـه نستمـد المثـل والمبـادئ الإنسـانيـة والأخلاقية، منه نستمد الروح والنظرة إلى الإنسان بوجه عام . . »[٤].

وفى مناسبـة ثانيـة، يؤكد على هـذه الفكرة، مـع الإشارة إلى مـذهبه فى أن مستقبلية التراث تجعل من تعاملنا معه تقدما إليه، من خلال معاصرتنا، وليس رجوعا إليه عن المعاصرة والمستقبلية. . فيقول:

---

(٣) المصدر السابق: جـ ٥، ص ٥٠ ـ «حزب الثورة العربية» ـ مايو، سنة ١٩٧٠م ـ.

(٤) المصدر السابق: جـ ٥، ص ١٣٣ ـ «الجبهة الوطنية والقومية التقدميـة تتصل بأعمق مبادئ حزبنا الثورى» ـ ٢٣ ـ ١٠ ـ ١٩٧٤م.

«إن التراث . . ليس ، فى حركتنا الثورية ، شيئا من الماضى ، وليس شيئا للتسجيل فى الذاكرة ، وإنما حياة نابضة ، هو الأصالة ، والقدرة على الإبداع ، القدرة المتجددة فى أمتنا ، والتى تهتز فى كل مرحلة ومنعطف تاريخى حاسم . . لتعود الأمة العربية إلى مكان القيادة فى مسيرة البشرية . فى تصورنا : لانرجع إلى التراث رجوعا ، وإنما نبلغ حقيقة التراث ، حقيقة الأصالة بلوغا ، ونتقدم نحوه ونرتقى إليه ارتقاء يأتى بعد النضال وبعد الجهد الصادق وبعد التضحية نكتشف حقيقة تراثنا ونبلغ مستواه . . »(٥)!

وبسبب من هذا المنهج المتميز فى التعامل مع التراث . . المنهج الذى يجعل التقدم إليه عملا مستقبليا ، حرص ميشيل عفلق على تمييز هذا المنهج عن تلك المناهج التى وقفت فى التعامل مع التراث عند حدود « التكرار . . والتقليد» . . فأصحاب هذه المناهج يرجعون ليعيشوا فى الماضى ، حالمين - ربما بإعادة عصرهم أيضا إلى هذا الماضى . . وليس هكذا المنهج الذى يزكيه عفلق فى التعامل مع التراث :

« . . إننا لم نلجأ إلى التراث كما كان يفعل التقليديون ، من أجل التكرار والتقليد ، تكرار القول ، والتقليد غير المثمر وغير المنتج . ونظرنا إلى التراث عبر نظرتنا إلى العصر ، وحضارته ، إلى العصر ومشاكله ، إلى العصر ومقومات قوته ، وعبر نظرتنا إلى واقعنا المتخلف ، فكانت نظرة جديدة ، أى أننا لم نطلب من التراث أن يكون بديلا عن الجهد الذى يطلب منا أن نقدمه ، وإنما نحن عشنا الثورة المعاصرة بكل متطلباتها ، ومن خلالها وجدنا أن تراثنا يعطينا أصالة لايمكن لأى ثورة وأية نظرية فلسفية معاصرة أن تهبنا إياها . هذا الفهم للتراث

---

(٥) المصدر السابق : جـ٣ ، ص ١٨ ـ «البعث هو الصورة الحية للأمة » - ١٢ - ٢ - ١٩٧٥م .

هو الـذى جعل الحزب يستمـد منه قـوة روحية وأخـلاقية لاتستنـد إليها بقيـة الحركات. هذه الميزة لحزبنا، **نحن أحوج مانكـون إليها فى هذا الحاضر الذى نعيشه، فى تطلعنا إلى المستقبل، لأننا، فى الواقـع، نحن وأمتنا، مطالبون بأن نقدم إلى الإنسانية رسالة فى تجديد القيم، فى تجديد الأخلاق**.. هذا الجو الذى استلهمنا منذ بـداية حزبنا، من تـراثنا العربى الروحـى، التراث الخالد المبدع باستمرار، المتجدد فى كل عصر، الملهم، **هذا الجو يجب أن نعيده**. إنه دوما موجود.. هو وراء صمـود هذا الحزب. ولكن **لنجعل وجوده واضحا وبارزا** وملموسا، **ولنجعله الملهم والمقيم لأعمالنا ولنضالنا**..»[٦].

فالتراث ليس بـديلا عن الإبداع، بـل إن التقدم إليه هو ثمـرة من ثمرات الإبداع العصرى، كما أن التعـامل معـه، بهذا المنهج، هـو حافـز من حـوافز الإبداع والخلق والإضافة التى تمثل استمرارا له وتواصلا معه.. فالمطلوب هو: «التجدد، لأن التجدد هو إرادة الحياة.. وإرادة البقاء والارتقاء!..».

ونحن نلمح، هنا، كما فى مواطـن كثيرة، تنبيه ميشيل عفلق على ضرورة الاتسـاق بين «الموقف الفكـرى» وبين «الواقـع الحزبى».. فيلـح على ضرورة إعادة الجو المستلهم للتراث كى يكون واضحا وبـارزا وملموسا وفاعلا فى حياة الحزب، وكى يكـون الملهم ومعيـار التقييم لـلأعمال والممارسات!![٧].. إنه ينبه الحزب على أن خصـوصيته التى ميـزته عـن الحركات القوميـة والاشتراكية الأخـرى قـد جـاءت مـن تجاوز «معـانـاة الـواقـع» و«العـودة إلى التراث» فى

---

(٦) المصدر السابق: جـ٣، ص ٢٦، ٢٧ ـ «أصالة الأمـة قوة نضالية متميزة» ـ ١٩ ـ ١ ـ ١٩٧٦م ـ.

(٧) المصدر السابق: جـ٣، ص ١١٧ ـ «التراث عزز صمود الأمة وأعطى للثـورة العربية مستواها العالمى» ـ ٧ ـ ٤ ـ ١٩٧٦م ـ.

المنطلقات التى ميزت مشروعه النهضوى . . ومن ثم فإن غيبة جو القيم التراثية عن واقعه العملى سيفقده الخصوصية التى ميزته عن الحركات القومية والاشتراكية الأخرى . . « . . فلقد ولد الحزب فكرا وممارسة نضالية فى آن معا . ولد من معاناة التخلف فى الواقع العربى، ومفارقة هذا الواقع مع حضارة العصر، ومن العودة إلى التراث ، فقرأناه قراءة جديدة لنهتدى إلى أصالتنا وروح شخصيتنا القومية ، وكان مدخلنا إلى قلوب الجماهير ، لأنها اطمأنت إلى أن الحزب هو من نتاج أرضها وجوها وتاريخها . . »(٨).

* * *

ثم يطرق ميشيل عفلق ، فى حديثه عن التراث ، باب فكرة جوهرية من أفكاره فى هذا الميدان . . فكرة تميز مشروع البعث للأمة ، عن مشروعات الأمم الأخرى ، بسبب تميز تراثها عن مواريث الأمم الأخرى . . فتراثنا «**رسالة عظمى**» ، وليس مجرد إبداع بشرى لأسلاف عظام . . وبدونه لاسبيل لتحريك هذه الأمة على درب النهضة والتقدم ، لأن تاريخ هذه الأمة مع التحديات شاهد على أنها لاتتحرك لما هو دون «**الرسالة العظمى**»!! . . «**إن الأمة العربية لايمكن أن تنشئ مستقبلا جديرا بها ، مستقبلا فى مستوى عظمتها ، إذا لم ترجع إلى تراثها** ، وإذا لم تكتشف ، عن طريق النضال والثورة ، الجديد والخالد فى هذا التراث . تراثنا ليس شيئا مضى وانقضى ، وليس شيئا للتاريخ وللمتحف . . تراثنا هو سجل عبقرية هذه الأمة . . والثورة العربية التى لاتستلهم هذا التراث . . مقضى عليها بالفشل . . **شعبنا العربى لايتحرك ولايؤيد ولايندفع فى النضال والتضحية إلا وراء حركة فيها نفحة**

---

(٨) المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ١١٠ ـ « التراث عزز صمود الأمة وأعطى للثورة العربية مستواها العالمى» ـ ٧ ـ ٤ ـ ١٩٧٦م ـ .

الـرسـالـة ، وتكـون ميـزتها الأولى الأخـلاقيـة . . ! إن هـذه الأمـة امتـزجـت شخصيتها . . وكل ذرة من ذرات كيانها النفسى بهذا التراث ، الذى هو رسالة عظمى ، فلم تعد تقبل ما هو دون هـذا المستوى . فالثورة العربية إذا لم تستلهم التراث وتستلهم روح الرسالة ومستوى الرسالة فهى فاشلة ! . . »[٩] .

ومنذ تلك الحقبة ـ حقبة السبعينيات ـ لم يدَعْ ميشيل عفلق مجالا للخلاف حـول مـراده الـذى يعنيـه مـن وراء مصطلـح « التراث العـربـى» ، و«التراث القـومى» ، و«التراث الـروحى» . . فلقـد أفصح عـن أن مراده هـو **«التراث . . الذى هو رسالة عظمى»** . . ثم بلغ قمة الحسم والوضوح ، عندما أعلن : أن **«التراث القومى هـو الإسلام»** [١٠] . . وأن اكتشافـه لخصوصيـة هذا التراث ، ولخصوصية العلاقة بين الأمة العربية وبينه قد مثّلت فى حياته ، وحياة مشروعه الفكرى لحظة الاختيار التاريخية التى جعلـت خياره واختياره هو طريق البعث والإحياء والتجـديد ، وليس خيـار واختيار أىٍّ مـن المشروعات «الوافـدة» من الحضارة الغربية . . فيكتـب ـ فى نص مهم فى وضوحه وحسمـه ودلالته ـ على هذه القضية ، يقول :

«لقد كـانت اللحظة التاريخيـة فى حياة الثورة العـربية المعاصرة هى سـلامة الاختيـار . . ولم يكـن الاختيـار بسيطـا ، لأنـه لم يكـن بين نقيضين فحسـب ، المحافظة والثورة ، اليمين واليسار ، التجزئة والوحدة ، الرجعية والاشتراكية . بل

---

(٩) المصـدر السـابق : جـ٣ ، ص ٤٦ ، ٤٧ـ «نفهـم التراث بـالفكـر الثورى والمعـانـاة النضالية» ـ ٢ ـ ٤ ـ ١٩٧٦م ـ .

(١٠) يفضـل البعـض إخـراج الكتـاب والسُّنة مـن التراث ، وتخصيصـه بـالفكـر البشرى الموروث . . ولا يرى البعض بأسا من إطلاق مصطلح التراث على الوحى استنادا إلى الآية القرآنية ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا . . ﴾ ـ فاطر : ٣٢ ـ . وعلى أى ، فلم يكن ميشيل عفلق من أهل هذا العلم حتى تحاسب عبارته بمثل هذه المعايير ! !

كان الاختيار أيضـا بين: ثورة وثورة ، يسار ويسار، وحـدة ووحدة، اشتراكية واشتراكية. ولم يكـن بين: روح ومادة ، بل بين: مـادة مستقلة مسيطـرة ومادة نابعة من الروح وتابعة لها . . . وكان على الحزب التاريخى أن يقول كلمة واحدة أمام كـل اختيار محير، هـى الكلمة التى تنبع مـن الأصالـة ومن تجربـة الأمة ، فتجعل الأفكار المجردة مبدعة حية وصانعة تاريخ .

وقد كـان الموقف من التراث القـومى ، أى من الإسـلام ، وعلاقته الـوثيقة بمرحلـة الانبعاث القومى المعـاصرة، معبرا عن احد الاختيـارات الكبرى لفكر البعث الذى قام منذ البدء على تصـور ثورى للتراث ، فحقق فى نظرته الجديدة هذه، كما حقـق فى مفهوم القوميـة، وفى النظرة إلى الحرية سبقـا على الحركات التى أتت قبله . .

إن هذه النظـرة وهذا الموقف من التـراث، الذى أعلناه قبل أربـع وثلاثين سنة(١١) ، لم يكن موقفا تفسيريا للماضى، بقدر ماكان موقفا ثوريا من الحاضر ورؤية للمستقبل .

ولقد حرصنا دوما، منذ بداية الحزب ، وانطلاقا من حقائق نفسية معروفة، على تجنيب الثـورة العربية ما استطعنـا إلى ذلك سبيلا، الأمـراض الخطيرة التى أصابت ثورات غيرهـا، فمسخت إنسانية المبادئ فى بعضها، وكـانت سببا فى فشل وانهيار بعضها الأخر . فاستلهام التجربة الخالـدة فى حياة الأمة العربية، إنما يعنى استلهام الإبداع والدوافع والقيم الإنسانية العميقة، القيم الثورية التى لا تحمل الأمة العربيـة حقوقا وامتيازات بقدر ما تحمِّل ثـورتها المعاصرة مسئولية كبرى، وواجبات عـالية، نحـو نفسها ونحـو الإنسانيـة. إنه تـأصيل لفكـر

---

(١١) أى فى سنة ١٩٤٣م ـ والإشارة إلى خطاب عفلق فى «ذكرى الرسول العربى» ـ .

الحزب، وليس تراجعا عن تقدميته ونهجه العلمى أو عن سياسته تجاه حلفائه التقدميين فى الداخل والخارج! . . »(١٢).

فالتراث القومى لهذه الأمة، هو الإسلام. . وخصوصيته، وخصوصية العلاقة بين هذه الأمة وبينه، ومكانته فى تحريك جماهيرها على طريق النهضة. هى التى ميزت مشروعها النهضوى عن المشروعات الأخرى لنهضات الأمة الأخرى. .

صنع الإسلام ــ كتراث قومى وروحى ــ ذلك للأمة العربية، وأيضا للشعوب غير العربية التى تدينت بالإسلام . . عندما حفظ لها هويتها، التى حاول الاستعمار مسخها ومحوها . . . وفى حديثة أثناء استقباله للزعيم الغينى أحمد سيكوتورى [١٣٤٠ ـ ١٤٠٤هـ . ١٩٢٢ ــ ١٩٨٤م] ـ فى بغداد ـ قال ميشيل عفلق:

«إن شعوبنا التى عانت واضطلعت بمهام التحرر وبناء المستقبل، عبر التجارب المؤلمة، قد ارتبطت بالتراث الروحى للشعب. ومنذ لقائنا الأول ـ فى العام الماضى ـ عبرت لكم عن سرورى بأنكم وجدتم الطريق السليم والعادل لفهم الإسلام، الذى نعتبره من أقوى الروابط التى تجمعنا، الإسلام كثور إنسانية عظيمة قادرة على التجدد دوما. وخير برهان على ذلك، مانشهده فى المرحلة الحاضرة(١٣). لقد ساهم الإسلام لقرون عدة فى الحفاظ على هوية شعبنا وقيمه الروحية، وكذلك على هوية كثير من الشعوب الأخرى، ومكنها

---

(١٢) [فى سبيل البعث] : جـ٣، ص ١٢١، ١٢٢ ـ «البعث وتحديات المستقبل» ـ ٧ ـ ـ ١٩٧٧م ـ.

(١٣) الإشارة إلى دور الإسلام فى الثورة الإيرانية ــ ١٩٧٩م ــ ولم تكن الحرب بين العراق وإيران قد اندلعت بعد.

من الصمود ضد الغزوات الأجنبية. فهو الـذى ساعد الجزائر على الصمود قرنا وثلث القرن فى وجه الاستعمار والدمـار والمذابح الجماعية ومحاولات القضاء على شخصية شعبنا. . »[١٤].

وفى العـديد مـن المناسبـات ، نرى ميشيـل عفلق يـؤكد على أن الارتبـاط بـالإسـلام ، باعتبـاره التراث الـروحـى للأمـة ، هـو السبيـل لفعاليـة الحركـة السياسية ، والباب الـذى تدخل منه إلى قلب الشعب. . وعلى أنـه لاتناقض بين هذه الأصالة وبين التقدمية والمستقبلية والمعاصرة. . فالجمع بين «الإيمان» وبين «العقلانية» لاتناقـض فيه . . بل إنه التأليف بين عنـاصر أمر واحد ، لا أمرين مختلفين! ! . . يقول :

« إن حركة البعث ولدت من نظرة فكريـة ممتزجة بمعاناة وجدانية أرادت أن تجمـع شيئين أساسيين ، هما : الإيمان والعقـلانية ، التجـربة الـروحية فى حيـاة العرب ، أى الإسلام ، وروح العصر. هذان هما الإيمان والعقـلانية . ووراء هذه الإرادة قناعة بأننا لانجمع نقيضين ، ولا حتى شيئين مختلفين ، وإنما شيئا واحدا يأخذ مظهرين حسب اختلاف الزمان . . » .

وعندما يسأله سائل ـ فى مدرسة الإعداد الحزبى ، عقب المحاضرة التى قال فيها هذه العبارة ـ عن « نظرة الحزب إلى الإسلام ، كيف كانت منذ البداية »؟

وكأن السائل قد استشعر أن فى هذا الطرح لعـلاقة الحزب بالإسلام جديدا عن ذلك الذى اشتهر عن هذه العلاقة فيما سبق من عقود! ! . .

---

(١٤) [فى سبيـل البعـث] : جــ ٥ ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ ــ « وحـدة النضـال بين القـوى التقدمية والثورية فى العالم الثالث» ـ ٢٨ ـ ٢ ـ ١٩٨٠م ـ

عندما يسأل السائل ميشيل عفلق هذا السؤال ، يكون جوابه : «نظرة الحزب إلى الإسلام، هى هذه : إنه حى فى هذا العصر أكثر من أى شىء آخر. عصرى ، ومستقبلى أيضا ، لأنه خالد ، يعبر عن حقائق أساسية خالدة . لكن المهم هو الاتصال بهذه الحقائق لكى تؤثر وتكون فاعلة ومبدعة . فكان رأى الحزب ، نتيجة التفكير ونتيجة المعاناة معا ، أن هذا الاتصال لايكون بالنقل الحرفى ، ولا بالتقليد ، وإنما بأن نكتشف هذه الحقائق من جديد ، من خلال ثقافة العصر، ومن خلال الثورة والنضال . . »(١٥) .

وفى مناسبة أخرى ، يطرق ميشيل عفلق باب هذا الموضوع . . موضوع علاقة الحزب بالإسلام ، كتراث روحى للأمة ، فيتحدث إلى وفد سودانى عن أن «الوطنية السودانية هى العروبة ، والعروبة السودانية هى الإسلام» ! . . وعن أن هذا الخيار البعثى لم يكن صدفة ولا ترفا . . وإنما كان الاختيار للإسلام بسبب من أنه هو تراث الأمة ، الذى يمثل الإيمان به معيار القبول أو الرفض من قِبَل الأمة للحركات السياسية المعاصرة . . لأنه ليس «تاريخ» الأمة فقط ، وإنما « حاضرها . . ومستقبلها» أيضا . . فهو ـ بالإحياء والتجديد ـ سبيل المعاصرة والحداثة أيضا . . ومن ثم طريق التواصل الحضارى لمسيرة هذه الأمة فى مواجهة تحديات الانقطاع . . سواء منها انقطاع التخلف والانحطاط الذاتى ، أو انقطاع التغريب الوافد فى ركاب الاستعمار . .

يتحدث ميشيل عفلق عن هذه المعانى ، إلى الوفد السودانى ، فيقول : «إننا ، كما تعرفون ، لم نرد أن تكون حركتنا مجرد حركة سياسية ، لأننا استلهمنا الشعب ، وفهمنا بأن فشل وتعثر الحركات والأحزاب السياسية فى أقطارنا

---

(١٥) المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ٨٨ ـ «حوار حول الدين والتراث» ـ ٢٧ ـ ٤ ـ ١٩٨٠م .

العربية كان مرده ـ فى أكثره ـ إلى أن هذه الأحزاب لم تكن لتروى ظمأ جماهيرنا، ظمأ شعبنا الأصيل. شعبنا ظامئ لنهضة حضارية، شعبنا متهيئ ليقظة روح الرسالة العربية. هذا الشعب الذى لن ينسى تاريخه، والذى عاش قبل قرون تلك الملاحم من البطولات ومن الإنجازات الحضارية والأخلاقية التى خلقت للعالم بأسره مناخا ساميا جديدا، مناخا روحيا. هذا الشعب لايرتضى العمل السياسى الاحترافى إن لم يجد له صلة بقيمه الروحية، بتراثه الخالد.

ولا ندعى أننا أوجدنا شيئا جديدا، وإنما كل مافعلناه أننا أصغينا لروح الشعب، التقطنا الخيط العميق لضمير الشعب، التطلع الصادق لجماهير أمتنا العربية، لأنها تريد وتتوق إلى نهضة شاملة وإلى حياة كاملة يسودها الانسجام ويختفى فيها التناقض، ولاتحقق تقدما فى مجال على حساب قيمة أخرى عزيزة، لاتدخل العصر وتمتلك أدوات الحداثة على حساب تراثها وقيمها الروحية وماضيها وتاريخها . . . أن يكون «الإنسان العربى المكتمل الشخصية، المؤمن بدينه، بتراثه، برسالة أمته، وفى الوقت نفسه الإنسان العصرى المتحضر المسيطر على وسائل الرقى لكى يصمد فى التنافس مع الدول والأمم القوية، ولكى يعطى ويعبر عن جوهر العروبة وقيمها الأخلاقية، ليس بالشكل السلبى، شكل الشكوى والضعف، وإنما بالشكل الإيجابى، من منطلق القوة والثقة بالنفس والقدرة على العطاء . .»(١٦).

فتصور ميشيل عفلق لعلاقة مشروعه النهضوى بالتراث الإسلامى، هو تصور المعاصرة التى تجدد الإسلام وتحييه . . التصور الذى يرى المشروع القومى مولودا معاصرا من رحم حركة التجديد الإسلامى التى شهدتها بلادنا فى القرن

---

(١٦) المصدر السابق : جـ ٥، ص ٢٩٣، ٢٩٤ ـ «الوطنية السودانية هى العروبة، والعروبة السودانية هى الإسلام» ـ ١٤ ـ ١ ـ ١٩٨٢م ـ .

التاسع عشر للميلاد . . «فنضال البعث لم يكن مجرد عمل سياسى ، أو فكرى أوصل إليه المنطق أو استقراء التاريخ أو استشعار الحاجة الظرفية ، ولم يكن تقريرا لحقيقة نظرية ، بل كان معبرا عن رؤية ، وعن علاقة حب وتفاعل ، وأمل وتفاؤل بأن يتجدد فعل الإسلام كروح ثائرة مجددة ومبدعة فى الحياة العربية الحديثة . . . من خلال النضال الصادق ، ومواجهة تحديات الواقع العربى الممزق المتخلف ، وتحديات العصر . . فالفكر القومى الحديث نشأ فى ظروف الصدمة مع الغرب الاستعمارى . . وخرج من حركة التجديد الإسلامى ، ومن تطور الوعى للهوية القومية . . لقد استلهم الإسلام كثورة روحية قومية وإنسانية وخلقية ، كما استوعب حاجات النهضة المعاصرة للأمة . . »(١٧) .

فالتقدمية ـ التى يصنف البعث نفسه كواحد من حركاتها ـ لها فى مفهومه تميز خاص . . لأنها ، انطلاقا من معاناة الواقع المعاصر ، تستلهم تراث الإسلام ، فتجدده ، بنظرة مستقبلية ، وتصل الحاضر والمستقبل بروحه ، محققة التواصل الحضارى لمسيرة الأمة ، ومسقطة ذلك الانقطاع الحضارى الذى أحدثه الجمود والانحطاط . . إنها ـ كما يقول ميشيل عفلق ـ «صيغة حية نموذجية فى الوحدة العضوية بين العروبة والإسلام . . ولدت فى جو الحب للعروبة والقومية العربية وللإسلام كأثمن وأغلى ما فى العروبة والقومية العربية . . لقد كانت رؤية الحزب واضحة منذ البداية بأنه لايمكن الاتصال بتاريخنا المجيد عن طريق العقل الرجعى المتخلف ، بل ببتر الانقطاع الذى أوجدته عصور الانحطاط لإعادة الاتصال بالتاريخ العربى الحى عن طريق الثورة والنضال . كما كانت الرؤية أيضا واضحة بأن التقدم الذى لايستند إلى

---

(١٧) ميشيل عفلق [العمل المستقبلى . . نداء إلى الأمة] : ص ٨ ، ٩ ـ خطاب ٧ من إبريل سنة ١٩٨٨م ـ طبعة بغداد سنة ١٩٨٨م . .

التراث الروحى والحضارى للأمة، لايمكن أن يكون تقدما صادقا وناجعا، لأنه يعجز عن ملامسة روح الشعب وكسب ثقته وتفجير طاقاته، فكان على الحزب أن يشق لنفسه طريقه الخاص الذى استلهم ثورية التراث الخالد، من خلال الاستيعاب العلمى الواقعى لروح العصر ومتطلبات ثورة الأمة ونهضتها الحديثة(١٨) . . إن القومية، فى مفهوم البعث، لاتنفصل عن التقدمية، ولكنها التقدمية الأصيلة المعبرة عن تكامل الشخصية الحضارية . . وإذا كان حل مشكلات المجتمع العربى فى الحاضر والمستقبل، يتطلب فهم هذه المشكلات بمنطق العصر، فإن فهم البعث للإسلام، بأنه ثورة روحية وحضارية كبرى، يجعل من استلهام قيم الإسلام النضالية والإنسانية، ومن جرأته فى الحق، وصبره، ونظرته التجديدية، ورفضه الجمود على ما كان عليه الآباء، ونظرته المتوازنة إلى الحياة، إلى المادة والروح، والطبيعة والإنسان، والدنيا والآخرة . . يجعل من استلهام هذا التراث الغنى أمرا ممكنا، بل وواجبا فى أى تغيير ثورى للمجتمع العربى، يتطلع إلى بعث الأمة وتجديد شخصيتها الحضارية . . »(١٩).

تلك هى رؤية ميشيل عفلق - فى مشروعه الفكرى - للتراث . .

إنه المكون لخصوصية الأمة عن غيرها من الأمم . .

وهو المميز لقوميتها عن غيرها من القوميات . .

وهو المميز لمشروع نهضتها الحضارية عن مشروعات إنهاض الأمم الأخرى . .

وإحياؤه وتجديده لا يكونان بالتقليد والتكرار له . . وإنما بالتقدم إليه عبر

---

(١٨) [فى سبيل البعث] : جـ ٣، ص ٢٤٤، ٢٤٥ - « البعث حركة نامية متطورة » - ٧ إبريل سنة ١٩٨٥م -.

(١٩) المصدر السابق: جـ ٥، ص ٧٥ - « العراق قدر بطولى » - ٧ - ٤ - ١٩٨٧م -.

المعاصرة، التى هى معاناة الواقع المعاصر بمنطق العصر وأدواته. . الأمر الذى يحقق التواصل الحضارى لمسيرة الأمة. . ويجعل تقدميتها إحياء وتجديدا وليست انقطاعا عن الأصول ونسخا للهوية واقتلاعا للجذور . .

هذا هو التراث . . الذى هو الإسلام . . وخاصة فى جوانبه الثورية. . والحضارية. . والقيمية. .

نعم. . هو تراث . . لكنه «حى فى هذا العصر أكثر من أى شىء آخر. عصرى، ومستقبلى أيضا ، لأنه خالد ، يعبر عن حقائق أساسية خالدة. . . ومادامت الأمة العربية على هذه البسيطة، فالإسلام هو التراث الروحى، وهو المحرك لها، هو ملهمها، هو مرجعها الروحى، وهو الحركة الثورية المثلى. . »[٢٠].

تلك هى الرؤية . . وهذا هو الفكر. . وبهما ولهما، تميزت صيغة البعث، وتميز مشروعه عن حركات التقليد للتراث. . وعن الحركات الشيوعية التى استبدلت تراث الماركسية بتراث الإسلام . . وعن الحركات الليبرالية، التى اتخذت من ليبرالية الغرب تراثا لها! . .

لكن . . إلى أى حد نجح البعث، فى الممارسة والتطبيق ، كى يجسد هذه الرؤية وهذا الفكر اللذين صاغهما قائده ومؤسسه ميشيل عفلق ؟! .

إن ما ألمحنا إليه من شكوى الرجل ، بالتلميح والتصريح، عندما كان يتطرق إلى هذه القضية، لايدعونا إلى التسرع، فنحكم بفشل البعث فى هذا الميدان. . وإنما الذى نقوله : إن تجسيد هذه الرؤية وهذا الفكر مهمة ما زالت فى انتظار الفرسان الذين يحولونها إلى كيان حى فى ميدان الممارسة والتطبيق! . . لا فى إطار البعث وحده. . وإنما فى إطار التيار القومى العربى بوجه عام! . .

---

(٢٠) المصدر السابق : جـ٣، ص ٢٠ ـ «أصالة الأمة قوة نضالية متجددة» ــ ١٩ ـ ١ ـ ١٩٧٦م ـ.

ماهيّة «الرسالة الخالدة»؟

تتردد كثيرا فى كتابات البعث، ومنذ السنوات الأولى لتكوينه، تلك العبارة التى غدت شعارا له، تتصدر منشوراته وصحافته.. ويهتف بها جمهوره فى التظاهرات.. عبارة: «**أمة عربية واحدة.. ذات رسالة خالدة**»..

وإذا كانت كتابات البعث، وكذلك الكثير من ممارساته، لم تَدَعْ للغموض مجالا فيما يعنيه بوحدة الأمة العربية، التى جعلها همه الأكبر، حتى لقد هندس تنظيمه الحزبى ـ القطرى والقومى ـ وفقا لفلسفتها.. فإن ماهية «الرسالة الخالدة» لهذه الأمة العربية الواحدة هى مما قد يتطرق إليها الغموض فى هذه الكتابات ـ كتابات ميشيل عفلق ـ التى مثلت المشروع الفكرى لهذا الحزب، وخاصة فى الفترات الأولى من حياته الفكرية وعلى الأخص فى وعى جماهير الحزب، وفى ممارساتها.. بعيدا عن حقيقة مايعنيه القائد المؤسس ميشيل عفلق بهذا الشعار.. شعار «الرسالة الخالدة» للأمة العربية الواحدة..

* * *

أما نحن، وبعد الدراسة المتأملة للكتابات الكاملة لميشيل عفلق، ومنها ماكتبه عن تراث الإسلام الثورى والروحى.. وعن مرجعية هذا التراث فى المشروع النهضوى.. مشروع بعث الأمة.. وعن دور هذا التراث ـ الإسلام ـ

فى تميز الأمة ، وتميز نهضتها القومية . . فإننا لايخالجنا أدنى شك فى أن «الرسالة الخالدة» ، التى عناها ميشيل عفلق هى ذات الإسلام ، كثورة وحضارة ميزت الأمة العربيــة عن غيرها من الأمــم ذات الرسالات « النسبية» ، والتــى ليس لها «إطلاق» و«خلود» رسالة الإسلام! . .

ذلك هــو فهمنا لماهيــة « الرســالة الخالــدة» فى فكر ميشيــل عفلق . . على الرغم من الغموض الذى أحاط بهذه الماهية فى أغلب هذه الكتابات . . وهو ـ الغموض ـ الذى لايرتفع إلا بعد تكامل نظرة الرجل ـ بعد دراستها ـ فى مرجعية الإسلام . .

فى الممارسات البعثيــة ، وفى أذهان أغلبية أعضــاء الحزب ، وفى الكثير من كتابــات ميشيل عفلق ، لم تكــن واضحة الخيوط التــى تربط مــاهية «الرســالة الخالدة» بــالإسلام ، وخاصــة بالجانب الإلهى فى رســالة الإسلام . . ومــع هذا الغموض ، وبالرغم منه ، فإننــا نستطيع أن نقدم فى مواجهته بعض المؤشرات التى تشهد لقيام العلاقة ـ فى فكر ميشيل عفلق تحديدا ـ بين «الرسالة الخالدة» وبين «الإسلام» . . على النحــو الذى يسمح لنا بــأن نقول إنه قــد عنى ، على نحو ما ، أن «الرسالة الخالدة» للأمة العربية هى « رسالة الإسلام»! . .

● ففى سنة ١٩٤١م ـ وهو العام الأول لتكــوين الحزب ـ تحت اسم «جمعية الإحياء العربى » ـ شهدت العراق قيام الثــورة التى قادها رشيد عالى الكيلانى [١٣١٠ ـ ١٣٨٤هــ ، ١٨٩٣ ـ ١٩٦٥م] . فكــانت هــذه الثورة ـــ كما يقول ميشيل عفلق ـ « أول مناسبة يطبق فيها الحزب فكره القومى الوحدوى ، فتجند أعضــاؤه ـ ولم يكــن قــد تجاوز عددهــم بضعة عشر ! ـــ لهذه الغــاية ، ودعــوا الشباب العربى فى سورية للتجند فى منظمة باسم « نصرة العراق» . . . » .

ولقد جاء فى «الدعاء» الذى كــان يردده أعضاء منظمة «نصرة العراق» أول

حديث فى الأدبيات البعثية لـ «الرسالة» و«لماهيتها» ، على النحو الذى يقطع بعلاقة هذه الماهية بالإسلام ، كرسالة إلهية خالدة . . تقول كلمات الدعاء : **«اللهم أنت الذى أردت أن يكون العرب أمة قوية هادية تحمل إلى العالم رسالتك ، نريد اليوم أن تعود إليهم وحدتهم وقوتهم ليؤدوا هذه الرسالة من جديد .** اللهم هب لى قوة الإيمان ، وصفاء الفكر ، وصلابة الإرادة لأكون جنديا نافعا فعالا فى الجهاد الذى يقوم به العراق من أجل وحدة العرب . . »[1] .

فالحديث هنا عن الرسالة الإلهية ، التى حملتها الأمة العربية ، تاريخيا ، إلى العالم . . وعن الإرادة المعاصرة : أن تتحد هذه الأمة الواحدة ، لتؤدى هذه الرسالة الإلهية من جديد . .

● وفى سنة ١٩٤٦م ، كتب ميشيل عفلق واحدا من أدبياته الفكرية ، تحت ذات العنوان : [الرسالة العربية الخالدة] . . وفيها أشار إلى أن هذه الرسالة : **«هى إيمان»** . . ودافع عن هذا الفهم ، فى مواجهة المنطق المادى والمناهج الوضعية الغربية ، عندما أكد على سبق «الإيمان» للمعرفة الواضحة ! . . وتحدث عن معنى «خلود» هذه الرسالة . . فالأمة التى حملتها تاريخيا ، لها خصوصية الصلاح لأن تبقى دائما ـ رغم التخلف الذى انقطع بها عن هذا الدور ـ تبقى صالحة ومدعوة لأداء هذه الرسالة دائما وأبدا فهذا هو مستواها ، المتميز بين الأمم ، والذى لا يصح لها التنازل عنه بحال من الأحوال . .

أشار ميشيل عفلق إلى هذه المعانى عندما قال : . . **الرسالة العربية : إيمان قبل كل شيء ، ولايعيبها هذا أو ينقص من قدرها . فالحقيقة العميقة الراهنة ،**

---

(١) [فى سبيل البعث] : جـ ٣ ص ١١١ ـ «التراث عزز صمود الأمة وأعطى للثورة العربية مستواها العالمى » ـ ٧ ـ ٤ ـ سنة ١٩٧٦م .

هى أن الإيمان يسبق المعرفة الواضحة . . أما الرسالة الخالدة ، فالقصد منها أن هذه الأمة لاتعترف بواقعها السيىء وموقفها المنفعل ، ولاتتنازل عن مرتبتها الأصيلة بين الأمم ، بل تصر على أنها لاتزال هى هى فى جوهرها ، تلك الأمة التى بلغت فى أزمان متعددة مختلفة من التاريخ درجة تبليغ رسالتها ، فهى ، إذن ، بصلتها ببعضها ، وبماضيها ، لاتزال واحدة ، ولاتزال فيها الكفاءة لاسترجاع تلك المرتبة التى فقدتها مؤقتا . . »(٢) .

وفى عبارة أخرى ـ من كتابات ميشيل عفلق فى ذات العام . . عام ١٩٤٦م يشير إلى علاقة رسالة هذه الأمة بالسماء . . وتميزها بالخلود . . وكيف أن هذا التميز وتلك العلاقة هى التى طوعت الأرض لهذه الأمة فى الماضى . . وأنها هى سبيلها لتحقيق البعث الجديد ، الذى تواصل به مسيرة البعث القديم . . يقول : «طلب العرب السماء فملكوا الأرض ، فلما اقتصروا على طلب الأرض ، أضاعوها والسماء معا ! ! لايسيطر العرب على حياتهم حتى يؤمنوا بالخلود ، ولا تعود إليهم ملكية أرضهم حتى يؤمنوا بالجنة من جديد . . »(٣) .

● وفى سنة ١٩٤٧م . . عقد المؤتمر الأول لحزب البعث . . وصيغ دستور الحزب ، الذى أقره هذا المؤتمر . . وفى المبدأ الثالث من هذا الدستور، جاء النص على «رسالة الأمة» على هذا النحو : «الأمة العربية ذات رسالة خالدة ، تظهر بأشكال متجددة متكاملة ، فى مراحل التاريخ ، وترمى إلى تجديد القيم الإنسانية ، وحفز التقدم البشرى ، وتنمية الانسجام والتعاون بين الأمم . . »(٤) .

---

(٢) [فى سبيل البعث] ـ طبعة دار الطليعة ـ بيروت سنة ١٩٧٤م ـ ص ٩٧ ، ٩٨ ـ «الرسالة العربية الخالدة» سنة ١٩٤٦م .

(٣) [آفاق عربية] : ص ٩ ـ عدد إبريل ، سنة ١٩٧٦م .

(٤) [نضال البعث] : جـ ٤ ، ص ٢٥ . طبعة دار الطليعة ـ بيروت ، سنة ١٩٧٦م .

ولقد تميزت هذه الصيغة ، لهذه الرسالة ، فى دستور الحزب ، بالعموم الذى مكن من سيادة الغموض فى ممارسات الحزب حول «ماهية» هذه الرسالة الخالدة . . وساعد على ذلك ، أن المشروع الفكرى للحزب قد كان يتميز فى تلك المرحلة بصياغات حول علاقة القومية ـ التى هى المهمة الكبرى للحزب ـ بالإسلام ـ الذى رآه الحزب تراث الأمة ـ كانت تتميز صياغات هذا المشروع ـ حول هذه القضية ـ التى هى جماع فكر الحزب وجوهر فلسفته ـ بالنزوع الذى يرى فى القومية الإطار المفصح عن رسالة الأمة فى عصرنا ، كما أفصح عنها الدين فى عصر ظهور الإسلام . . فإذا كانت «الرسالة» نزوعا للتعبير عن الذات ، فإن ماهية هذا التعبير تختلف باختلاف العصور . كانت دينا قديما . . وهى اليوم القومية وحدها ! . .

ففى العام الذى سبق المؤتمر الأول للحزب ـ كتب ميشيل عفلق عن المحرك الأساسى للأمة فى عصرنا ، فقال إنها القومية وليست الدين . . «فلكل أمة ، فى مرحلة معينة من مراحل حياتها ، محرك أساسى . . هذا المحرك الأساسى ، كان فى وقت ظهور الإسلام هو الدين . . أما اليوم فإن المحرك الأساسى للعرب هو القومية . . وحدها . . والإيمان القومى وحده . . »(٥) ! ! .

فالرسالة الخالدة : نزوع دائم وخالد إلى النهضة وتحقيق الذات ، يتخذ فى كل مرحلة شكلا متميزا ، يناسب المرحلة . . كان ـ بالنسبة للأمة العربية ، عند ظهور الإسلام ـ هو دين الإسلام . . واليوم يتخذ صورة القومية العربية . . فكأن ماهية الرسالة الخالدة للأمة العربية الواحدة فى عصرنا هى الماهية القومية . .

---

(٥) [فى سبيل البعث] ـ طبعة دار الطليعة ـ بيروت سنة ١٩٧٤م ـ ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ ـ «معالم الاشتراكية العربية» ـ سنة ١٩٤٦م ـ . .

لكن . . بما أن قومية هـذه الأمة متميزة ، لعلاقتها بتراثها ـــ الذى هو الإسلام، وخاصة فى أبعاده الثورية والحضارية والقيمة ـــ كانت علاقة رسالتها ، حتى فى هذا العصر، بالخلود وبالمطلق من الإسلام . .

على هـذا النحو، كـانت صيـاغـة العبارات التـى تحدثـت عن «الـرسالـة الخالدة» فى دستـور الحزب سنة ١٩٤٧م . . وهى صيـاغة عامـة . . سمحت بالفهـم الذى ساد فى ممارسـات الحزب ، حول ماهيـة الرسالة الخالـدة، وهو الفهم والذى تميز بالغموض والابهام حول علاقة ماهيتها بالإسلام كدين ! . .

« إنها نزوع واستعداد أكثر من كونها أهدافا معينة محدودة . . »(٦)ـ كما يقول عفلق سنة ١٩٤٦مـ .

فالنـزوع إلى البعث القومـى ، المتميز ـــ لعلاقة قـوميتنا بتراثنا ـــ هو جـوهر الرسالة الخالدة . . إذ « الرسالة ليست إلا الانقلاب وثمراته . . »(٧) ، كما يقول ميشيل عفلق سنة ١٩٥٣م .

● وكما شهدت حقبـة السبعينيات ذلـك التطور والوضـوح اللذيـن تحدثنا عنهما فى صياغات ميشيـل عفلق حول المراد بـ« التراث» . . شهـدت إشاراته إلى ماهيـة «الرسالـة الخالدة» تطورا نسبيا ، زاد مـن وضوح العلاقـة بينها وبين «التراث» . . الذى هو «الإسلام» ! . .

ففى سنة ١٩٧٦ على وجه الخصوص كثرت هذه الإشارات :

« . . إن حزبنـا ، منذ بدايتـه ، ومنذ التصـور الأول استلهم تراثنا العربى ،

---

(٦) المصدر السابق : ص ١٠٠ ـ « الرسالة الخالدة» ـ سنة ١٩٤٦م .

(٧) [فى سبيل البعث] جـ ٢ ، ص ٢٣٣ ـ «ثورية الوحدة العربية» ـ فبراير، سنة ١٩٥٣م .

تراثنا الروحى ، وهذا متجل فى جملة كتابات وشعارات فى بداية الحزب ، متجل بصورة خاصة فى شعار الحزب الذى يقول : إن أمتنا أمة واحدة ، وبأن لها رسالة خالدة . . »(٨) .

هنا يربط « الرسالة الخالدة» بـ« التراث الروحى» للأمة . .

« . . . إن الحضارة العربية الجديدة ، ستكون مختلفة عن الحضارات التى عرفتها الإنسانية . . وستكون لها قيم جديدة . . وهذا مانسميه : الرسالة العربية . أى أنها حصيلة الرسالة الخالدة فى تاريخهم ، والمعاناة فى عصرهم الراهن . . » .

فالرسالة : حصيلة للإسلام ، ولمشكلات العصر . . ولذلك ، فهى متميزة فى القيم تميز الإسلام فى هذا الميدان على غيره من الأنساق الفكرية الأخرى . .

« . . . فقضيتنا ، إذن ، صعبة إلى حد أنه لاينجح فيها إلا المستوى الذى هو بين الأرض والسماء . . أو المستوى الذى تكون فيه الأرض والسماء ممتزجتين ! . . »(٩) .

فعلاقة الرسالة بالدين الإسلامى علاقة عضوية . . لأن مشروع النهضة ، المناسب لهذه الأمة ، لابد وأن يكون حصيلة امتزاج الإلهى بالبشرى ، والنقاء السماوى بالأرض ، فى الفكر والتطبيق . .

« . . . إن الثورة هى من أجل القضاء على التخلف والاستغلال . . من

---

(٨) المصدر السابق : جـ٣ ، ص ٢٥ ـ «أصالة الأمة قوة نضالية متجددة» ـ ١٩ ـ ١ ـ ١٩٧٦م .

(٩) [آفاق عربية] : ص ٩ ـ عدد إبريل ، سنة ١٩٧٦م .

أجـل القضـاء على الاستعمار. . ومـن أجـل سعـادة النـاس. . إلـخ . . إلخ. . ولكن كل هـذا يأتى بالدرجة الثـانية بعد الرسالـة . . لأنك إذا لم تضع الرسالة فى الدرجة الأولى لاتتحـرر من الاستعمار، ولاتتخلص من الصهيونية. فهذه الأشيـاء هى المميـزة لحركتنا، لأن التفكير الماركسـى، وشبه الماركسـى، والعلمى، وشبـه العلمى، لايـوصل إلى هـذه الحقائق. . وأحيـانا يـوصل إلى الاستهزاء بها والتنكر لها ومجافاتها. . وبالتالى إلى التعثر والفشل. . »(١٠)!

فالمنهج الإسلامى، المعاكس للمناهج الوضعية والمادية الغربية، هو الذى يجعـل للرسـالة الخالـدة هذه الماهيـة غير الماديـة، والمتقدمـة فى الأولويـة على الإنجازات والأهداف المادية. . فهى - كما سبق لميشيل عفلق أن قال - : «إيمان قبل كل شىء»!

ولأن الهدف هو «بعث حضارى» لأمة سبـق لها أن «حملت إلى العالم رسالة الإسلام»، كان لابـد من مرجعية «قيمها وتـراثها الروحى» باعتبـاره «سلاحها الأول فى معـركتها مـع أعدائهـا. . ». . ذلك هـو «مستوى الأمـة العربيـة. . مستوى الأمم التى لها رسالات إنسانية. . ».

وحـزب البعث ـــ حسب تعبير ميشيـل عفلق ـــ «لم ينشأ ليضيـف حزبـا سياسيـا إلى بقية الأحزاب العـربية، ولا حتى ليضيـف حزبا اشتراكيـا إلى بقية الأحزاب الاشتراكيـة العربية وغير العربيـة. وإنما استهوته نظرة كليـة إلى الحياة والى التاريـخ، وإلى مصير الإنسانيـة، لم يخترعها. . وإنما جـاءت غيضا مـن فيض تراثنا العظيم. . »(١١).

---

(١٠) المصدر السابق: ص ٩ - عدد إبريل، سنة ١٩٧٦م.

(١١)[فى سبيـل البعث] : جـ ٣، ص ١١٦، ٥٨ - «التراث عـزز صمـود الأمة وأعطـى للثورة العربية مستواها العالمى» - ٧ - ٤ ـــ ١٩٧٦م - و«وحدة التجربة النضالية للحزب فى الزمان والمكان» - ١٥ - ٣ - ١٩٧٦م - .

«. . لقد بدأ ـ البعث ـ بالتفاعل مع روح العصر، ولكنه بدافع من صلته العميقة بالأمة، أو صله الموقف الثورى إلى رؤية الماضى الخالد ورسالة الأمة الخالدة فى ضوء الحاضر، حاضر العصر، وحاضر العرب . . فاتخذ البعث هنا صورته: بأنه تجديد للقيم الروحية والأخلاقية التى عرفتها أرض العروبة فى عهدها الذهبى»[١٢] .

إن مشروع النهضة المنشودة، فى مثل أمتنا العربية، لابد وأن يكون نابعا من المشروع الذى أنهضها نهضتها الأولى . . ورسالتها المعاصرة، لابد وأن تكون فى مستوى رسالتها الروحية الأولى وفيضا من ذلك النبع الأول . . وتلك هى ميزة النهضة العربية المنشودة على النهضات المعاصرة . . «. . إن الأمة العربية قادرة على أن تنهض، وقادرة على أن تكون ليس فى مستوى العصر وحضارته فحسب، بل فى مستوى رسالتها العظيمة التاريخية أيضا، فى مستوى الرسالة الروحية التى تفردت بها بين الأمم، والتى ستبقى إلى الأبد هى المدد والمعين الروحى الذى سيدفع أمتنا نحو التقدم والرقى والإنجازات الحضارية العظيمة . . . إن نهضتنا العربية الحديثة، هى من ذلك النبع، من ينبوع الرسالة الأولى . . »[١٣] !

. على هذا النحو، وضحت، نسبيا، علاقة «الرسالة» ـ فى كتابات ميشيل عفلق ـ بالتراث الروحى للأمة، أى بالإسلام . . وإن كانت هذه القضية ـ قضية ماهية الرسالة الخالدة للأمة العربية ـ قد ظلت موضع غموض فى ممارسات الحزب وأفكار العديد من قياداته . . فوقفت ماهيتها كثيرا عند مفهوم «النزوع الدائم للنهضة» دونما وضوح «للماهية الإسلامية» لهذا النزوع ! . .

---

(١٢) المصدر السابق: جـ ٣، ص ٩٦، ١٠٠ ـ «روح الأمة وروح العصر» ـ ١٩ ـ ٤ ـ ١٩٨٠م .
(١٣) المصدر السابق: جـ ٥، ص ٣٥٨، ٤٠٣ ـ «القادسية وحالة الانبعاث» ـ ١٨ ـ ٥ ـ ١٩٨١م ـ . و«من كلمات وأحاديث مع جرحى معارك القادسية» ٧/ ٤/ ١٩٨٢م .

الإسلام..
فى الصراع الغربي-العربى

إن الموقف الواعى . . والثابت . . والعميق . . والشامل الذى تجلى فى فكر ميشيل عفلق إزاء موقف الحضارة الغربية من أمتنا وحضارتنا العربية الإسلامية ، ومن الصراع الحضارى والتاريخى بين الغرب والعرب . . هو واحد من أكثر الصفحات وعيا وعمقا ودقة وإشراقا فى مشروعه الفكرى ، بل وفى الفكر القومى العربى المعاصر على الإطلاق ! . .

لقد ولد ميشيل عفلق ونشأ واحدا من أبناء الأقلية المسيحية الأرثوذكسية ، التى وإن تميزت بالتوجه « العروبى » ، إلا أنها كواحدة من الأقليات الدينية فى بلاد المشرق العربى قد تميزت بالتعرض لتأثيرات الحضارة الغربية أكثر من الأغلبية المسلمة ، وبخاصة أهل السنة . كما تميزت هذه الأقليات بتزايد الخيوط الفكرية ، والميول الثقافية ، والعواطف الحضارية ، التى ربطت قطاعات من النخب المثقفة فيها بتيارات الفكر الغربى ودوائره ومؤسساته ومدارسه التبشيرية منذ مطالع الزحف الاستعمارى الغربى الحديث على عالمنا العربى ، قبل قرنين من الزمان .

ولقد تعلم ميشيل عفلق - بدمشق - حتى البكالوريا — فى مدرسة اللبسيه . . ثم كان تعليمه العالى فى باريس . . ولم ينكر هو ولا المقربون إليه

بصمات الأدب والفلسفة والفكر الغربى عليه . . من نيتشة [١٨٤٤ - ١٩٠٠م]، إلى أندريه جيد [١٨٦٩ - ١٩٥١م] ، إلى دوستويفكسى [١٨٢١ - ١٨٨١م]، إلى تولستوى [١٨٢٨ - ١٩١٠م]، إلى كارل ماركس [١٨١٧ - ١٨٨٣م] . . إلخ . . . إلخ . .

ومع ذلك كله ، فلقد جاءت صفحة موقفه من الصراع الحضارى بيننا وبين الغرب ، وصراع وقتال الغرب - بكل أسلحة الصراع والقتال - فى سبيل غزونا الفكرى واستعمارنا الحضارى . . جاءت صفحة فكر عفلق ابن الأقلية المسيحية . . خريج الليسيه وباريس . . من أكثر الصفحات وعيا وعمقا واتساما بسمات العروبة والإسلام ! . .

لقد أدرك ميشيل عفلق - فى الإشارات التى حلل فيها علاقات الغرب بالأمة العربية - كيف كان الإسلام هو الحصن الذى جعل أمتنا عصية على تطويع الغرب لها وعلى إلحاقها بمركزه الأوربى . . ومن ثم أدرك شراسة وخبث واستمرارية صراع الغرب - كحضارة متميزة عن حضارتنا الإسلامية - ضد تميزنا الحضارى عنه ، وضد الإسلام الذى حفظ لأمتنا هذا التميز عبر التاريخ . . أدرك طبيعة هذا الصراع الحضارى . . وجوهره . . وأشار إلى العديد من أساليبه . . وإلى أبرز ميادينه فيما قدم مشروعه الفكرى حول هذه القضية من صفحات . .

. . فهناك ميادين :

● الغزو الفكرى الغربى لعقلنا العربى المسلم . . الذى يستهدف إلحاقنا الفكرى والثقافى ، والقضاء على تميزنا الحضارى . .

● والتركيز الغربى على الأقليات المسيحية العربية ، محاولا جعلها مواطئ

أقدام لغـزوه الفكرى و إلحاقه الحضارى . . وثغـرات فى جدار المقاومة العـربية الإسلامية لهيمنة المشروع الغربى . .

● والتحالف « الحضارى ـ السياسى » ، الـلاأخلاقى ، الذى عقده الغرب مع اليهودية والصهيونية ، لمواجهة العرب والإسلام . .

● والامتـدادات السرطانيـة لمذاهـب الغـرب الاجتماعية فى عقـول النخـب القائدة لتيـارات فكريـة فى بلادنا . . ليبراليـة كانت أو شمـولية . . وبخـاصة الامتداد الشيـوعى ، الذى كـان يغرى فريقا مـن مثقفينا ، بل ويمارس إرهـابا فكريا على كثير من دوائر الفكر فى العقد الـذى نشأ فيه حزب البعث . . عقد الأربعينيات من القرن الميلادى العشرين . .

● والعلمانيـة ، التى مثّلـت مـذهـب الغـرب وحضـارته فى عـلاقـة الديـن بالـدولة . . والتـى جاءت إلى بـلادنا فى ركـاب غزوتـه الاستعمارية الحديثـة ، فتحمَّس لتبنيهـا نفر مـن مثقفى الأقليات المسيحيـة ـ قبـل غيرهم وأكثـر من غيرهم ـ كأداة لعزل الإسـلام وتراثه عن الدولة . . أى لتجريد الـدولة والقومية والأمة من هويتها الإسلامية ، وحتى يمتلئ الفراغ بالبديل الحضارى الغربى . . فتتحقق أهداف الغرب فى التبعية والإلحاق . .

أدرك ميشيل عفلـق ميادين الغزو الفكـرى . . وأدوات الصراع الثقافى . . وثغرات التسلل الحضـارى . . ودور الإسلام ، باعتباره الحصـن الجامع والمانع لهوية الأمة ووحدتها واستقـلالها الحضارى ـ الذى هو جوهـر الاستقلال ـ عن مشروع الغـرب الاستعمارى . . مشروع الضم والإلحاق والاستغـلال . . الـذى تعرضت له أمتنا منذ مطالع لهذا العصر الاستعمارى الحديث ! . .

ولقد كان إدراكـه لهذا الحقائق مبكرا . . وكان مـوقفه الواعى والعميـق من

حقائق هذا الصراع الحضارى سمة ثابتة ومستمرة على امتداد نصف قرن . . هو عمر المشروع الفكرى الذى قدمه إلى الأمة ، وإلى التيار القومى على وجه الخصوص . .

* * *

العَربُ والغَرب

منذ وقت مبكر، فى عمر الحياة الفكرية لميشيل عفلق سنة ١٩٤٣م ـ التفت إلى تحليل طبيعة العلاقة بين الغرب والأمة العربية . . وأبصر الطبيعة الصراعية التى فرضها الغرب على هذه العلاقة . . وأشار إلى الإسلام كهدف يناصبه الغرب العداء ، ويشن عليه الحرب ، بكل الوسائل ، ومختلف السبل ، وفى جميع الميادين . . باعتباره أمنع حصون الأمة العربية ، الضامنة لها الاستقلال الحضارى عن التبعية والإلحاق ، اللذين يريد الغرب من ورائهما تأييد وتأبيد النهب الاقتصادى والاستغلال الاجتماعى للعرب والمسلمين . .

ففى محاضرته فى «ذكرى الرسول العربى » ــ ٥ من إبريل سنة ١٩٤٣م ـ يقدم تحليلا بالغ الدقة والعمق عما نسميه «التمايز الحضارى» بين حضارتنا الإسلامية وبين الحضارة الغربية ، لا فى الشعارات وعناوين القضايا ، التى قد تتفق فيها الحضارتان . . وإنما فى المضامين ، التى قد تتوحد فيها المصطلحات ! . . ويتحدث عن محاولات الغرب تزييف « طبعة غربية » للإسلام ، تفقده الخصوصية والتميز عن الحضارة الغربية ، وتقف فيها الفروق عند « الكم» فقط . . «كم» ماعندنا ــ وهو قليل ـ «والكَمٍّ» الذى لدى الغرب وهو كثير ـ فى قضايا وميادين النهضة والمشروع الحضارى . . كالحرية . . والعقلانية . . والعدالة . . وحقوق الإنسان . . إلخ . . إلخ . . ـ وذلك ليوهمنا أن القضية المطروحة والمهمة المطلوبة هى قضية «اللحاق» بحضارة الغرب . .

فمادامت الفروق هى فى « الكمّ» وليست فى «النوع» ، فإن على « المُقِلِّين» أن «يلحقوا» «بالمُكْثِرين الأغنياء»!! . .

يكشف ميشيل عفلق عن هذه الحقائق ـ التى ماتزال غائبة عن البعض ، بل ومرفوضة من البعض حتى الآن ! ــ . . فيقول ـ تحت عنوان : « العرب والغرب» :

« . . . منذ قرن ونصف قرن عاد اتصال الغرب بالعرب بواسطة حملة بونابرت على مصر. وقد رمز هذا الداهية إلى ذلك الاتصال بأن علق لوحات كتبت فيها آيات القرآن إلى جانب حقوق الإنسان ! . . ومنذ ذلك الحين ما برح العرب (أو الرؤساء الدخلاء على العروبة) يدفعون نهضتهم الحديثة فى هذا الاتجاه الأشوه. فهم يجهدون أنفسهم ويرهقون نصوص تاريخهم وقرآنهم ليظهروا أن مبادئ حضارتهم وعقيدتهم لاتختلف عن مبادئ الحضارة الغربية ، وأنهم كانوا أسبق من الغربيين إلى إعلانها وتطبيقها . وهذا لايعنى إلا شيئا واحدا : وهو أنهم يقفون أمام الغرب وقفة المتهم ، مقرين له بصحة قيمه وأفضليتها ! . .

إن الواقع الذى لامحيد عن الاعتراف به ، هو أن غزو الحضارة الغربية للعقل العربى ، فى وقت جف فيه هذا العقل حتى أمسى قوالب فارغة ، يَسرَّ لتلك الحضارة أن تملأ بمفاهيمها ومعانيها فراغ هذه القوالب ، ولم تمض فترة من الزمن حتى انتبه العرب إلى أن مايخاصمون الأوربيين عليه ، هو نفس مايقول به هؤلاء ، وأنهم لايفرقون عن الأوربيين إلا بالكَمّ ، كما يفرق القليل عن الكثير، والمقصر عن السابق. ولن يتأخر الوقت الذى يعترفون فيه بالنهاية المنطقية لهذا الاتجاه ، أى أن فى الحضارة الأوربية مايغنى عن حضارتهم! . فحيلة الاستعمار الأوروبى ، لم تكن فى أنه قاد العقلية العربية إلى الاعتراف بالمبادئ والمفاهيم

الخالدة ، إذ إن هذه العقلية معترفة بها وقائمة عليها منذ نشأتها ولكن ـ [الحيلة الاستعمارية] ـ هي في اغتنامه فرصة جمود العقلية العربية ، وعجزها عن الإبداع ، ليضطرها إلى تبنى المضمون الأوربى الخاص لهذه المفاهيم . فنحن لسنا نخالف الأوربيين فى مبدأ الحرية بل فى أن الحرية تعنى الذى يفهمونه منها؟! . . »(١) .

ففى هذا النص ــ الذى أتمنى أن يُقرأ ، بتأمل ، لعدة مرات ! ! ــ حدد ميشيل عفلق خطر القضية وطبيعتها ، وميادين صراعها ، واتجاهات الخطأ والصواب لدى فرقائها . . فالغرب يزيف طبيعة العلاقة بين حضارتنا وحضارته ، لتكون مشكلة « كَمّ » فيما لدينا ولديه من سمات التحضر وأدواته وسبله وهو قد انتهز فرصة الجمود والتخلف الذى نحن عليه ليبرز رجحان كفته فى هذا « الكَمّ » الحضارى . . وليدعونا إلى اختيار طريق اللحاق به ، وتبنى ما لديه من مفاهيم . . فاذا كانت الشورى الإسلامية هى الديمقراطية الغربية . . والعدالة الاجتماعية الإسلامية هى الاشتراكية الغربية أو الشيوعية . . وتحرير المرأة المسلمة نموذجه هو نموذج التحرير الغربى لها . . والدولة الإسلامية هى الدولة العلمانية بالمعنى الغربى . . والدين الإسلامى هو ـ كالمسيحية الغربية ـ يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله . . والقومية العربية لها كل سمات النشأة والتكوين فى القوميات الغربية . . ومفهوم الحرية الإسلامى هو نفس مفهومها الغربى . . والعقلانية الإسلامية ـ وعلاقة العقل بالنقل ـ هى ذات العقلانية «اليونانية ـ الغربية» . . ـ إلى آخر مفاهيم وسمات المشروع الحضارى ــ . . فلم الحديث عن الأمة المتميزة والحضارة المتميزة؟! . . ولم لا

(١) [فى سبيل البعث] : طبعة دار الطليعة ــ بيروت سنة ١٩٧٤م ــ ص ١٢٩ ، ١٣٠ ـ «ذكرى الرسول العربى» ـ ٥ ـ ٤ ـ ١٩٤٣م ـ .

يكون الطريق واحدا وهو « اللحاق بالغرب»، وتبنى مشروعه الحضارى ، والقبول بمركزية وواحدية حضارته ، كحضارة للبشرية جمعاء ؟! . .

ذلك هو لب الخداع الغربى ، فى ميدان الصراع الحضارى . . وذلك هو «الطُّعْم » الذى ابتلعه فريق من مثقفينا ، الذين تحولوا إلى « مبشرين ثقافيين» ، هم أشبه مايكونون بالثغرات التى تمكن للزحف الغربى سبل الضم والإلحاق! . . وذلك هو المستوى المتألق الذى بلغه ميشيل عفلق فى رؤية وتحليل هذا الموضوع الخطير . .

* * *

ولقد اتخذ ميشيل عفلق موقفا ثابتا من تحديد السبب الأساسى والجوهرى الذى أثمر هذا العداء التاريخى من قبل الغرب وحضارته للأمة العربية وحضارتها . . فهذا السبب ، عنده ، هو خوفه من منافسة الإسلام وحضارته للحضارة الغربية . . وعداء الغرب للإسلام . .

ففى سنة ١٩٤٣م ، يكتب : «إن أوربا اليوم ، كما كانت فى الماضى ، تخاف على نفسها من الإسلام . . »(٢)!

وفى سنة ١٩٧٦م ، يؤكد على ذات المعنى ، ويفصل القول فيه ، فيقول : «إن الغرب يتابع حربا مزمنة ضد الأمة العربية منذ مئات السنين . . إن أمتنا لها دور آخر، ووزن آخر . . لها رسالة . موقعها الجغرافى المتوسط بين القارات . . العداء لها كان قبل اكتشاف ثرواتها . . أى أن الاقتصاد فيها ليس هو الشىء الأهم والباعث على هذه المنافسة وهذا العداء . إن المنافسة هى بسبب هذا الدور الحضارى الذى جاء به الإسلام . . خذ الهند مثلا ، ليس هناك

(٢) المصدر السابق : ص ١٣٠ ـ «ذكرى الرسول العربى » ـ من إبريل سنة ١٩٤٣م ـ.

عداء لها، أو للصين وفيتنام . . فبانتهاء الحرب فيها، انتهى كل شيء . أما العداء للعرب، فباطنه الخوف من إمكانات الدور الإنسانى الذى يمكن أن يئول إليهم، والذى عليه برهان من الماضى، وهو الحضارة العربية أيام العباسيين وفى الأندلس . . فعندما تكون لدى العرب هذه القابلية لخلق وتكوين حضارة كهذه ، فإن الغرب يفهم مامعنى ذلك ، ويفهم أن هذه الحضارة قابلة للتجدد ! . . »[٣] .

وهذا العداء الغربى للإسلام ، هو الذى جعل الغرب يوجه جهودا كبيرة ـ ضمن غزوه الفكرى ـ لمحاولات إعاقة التجديد الإسلامى ، الذى يجدد هذه الحضارة ذات الإمكانات العالمية المنافسة لحضارته الغربية . . إنه عدو الإحياء العربى والبعث القومى والتجديد الإسلامى ، بينما لايؤرقه ولايقلقه التدين الشكلى، أو ذلك التفسير الإفرنجى للإسلام »! . . «إن أوربا ، التى تخاف على نفسها من الإسلام . . نراها تصادق الشكل العتيق للإسلام وتعاضده . فالإسلام الأممى، الذى يقتصر على العبادة السطحية والمعانى العامة الباهتة، آخذ فى التفرنج . ولسوف يجىء يوم يجد فيه القوميون أنفسهم المدافعين الوحيدين عن الإسلام، ويضطرون لأن يبعثوا فيه معنى خاصا إذا أرادوا أن يبقى للأمة العربية سبب وجيه للبقاء ! ! . . »[٤] .

وحتى يواجه الغرب جهود المسلمين للبعث القومى والتجديد الحضارى . . وحتى يشيع « طبعات الإسلام المتفرنج »، الذى لا يقض له مضجعا . . فإنه يحرس الجمود الفكرى، لتظل أوعية الفكر العربى فارغة من

---

(٣) [آفاق عربية] : ص ٦ ، ٨ ـ عدد إبريل ، سنة ١٩٧٦م ـ

(٤) [فى سبيل البعث] : ـ طبعة دار الطليعة ـ بيروت سنة ١٩٧٤م ـ ص ١٣٠ ، ١٣١ ـ «ذكرى الرسول العربى» ـ ٥ ـ ٤ ـ ١٩٤٣م ـ .

المضامين الجديدة الحية الفاعلة، ومن ثم قابلة للامتلاء بالمضامين الغربية التى تشد العقل العربى والمسلم بخيوط التبعية الفكرية إلى المركز الحضارى الغربى . . الأمر الذى يمهد لتبعية أرضنا وخيراتها وكل مالدينا لمراكز الغرب المتخصصة فى النهب والاستغلال . . هكذا حدد ميشيل عفلق دور الغزو الفكرى فى غزو الأرض ونهب الخيرات . . وحدد مكان التعليم القومى والفكر المستقل فى حرب التحرير ضد هيمنة الحضارة الغربية الغازية . . « **إن الفلسفات والثقافات تأتى من الغرب، وتغزو العقل العربى، وتختلس ولاءه، قبل أن تغتصب أرضه وسماءه!** ولذلك، فإننا نريد تعليما قوميا موحد البرامج، يستمد أصوله من خصائص الأمة العربية، ومن روح ماضيها، وحاجات مستقبلها، ويحفظ ولاء النشء للوطن العربى والقضية العربية . . ونريد ألا تبقى الثقافة غاية فى نفسها، بل وسيلة لتقويم الأخلاق وتنشئة مناضلين فى سبيل البعث العربى! . . »[(٥)] .

ولايحسبن أحد أن دعوة ميشيل عفلق ـ وأمثاله ـ من أنصار التمايز الحضارى والخصوصية الحضارية والاستقلال الحضارى، هى محض تعصب قومى، منبعث عن الاحتكاك العنيف بين الاستعمار الغربى وبين أمتنا العربية . . لأن الرجل كان ينبه على حقيقة علمية موضوعية، صادقت عليها التجربة التاريخية، ألا وهى عدم ملاءمة النظريات الغربية، التى تمثل «خصوصية حضارية غربية»، عدم ملاءمتها لاحتياجاتنا العربية، وفشل المحاولات التى بذلت لإنباتها، قسرا، فى تربتنا الحضارية . . كما كان ينبه على أنه أبعد مايكون عن الدعوة للانغلاق الحضارى، وللعزلة الحضارية،

(٥) [فى سبيل البعث] : جـ ٤، ص ١٧ ـ «البعث والمعركة الانتخابية الأولى» ـ ٢٤ ـ ٧ ـ ١٩٤٣م ـ .

ولاكتفاء حضارتنا بذاتها . . وإنما هو من دعاة الاتصال بالغرب، والاستفادة من حضارته، ولكن بعد «تكوين شخصيتنا القومية»، لتكون لهذه الشخصية - أثناء التفاعل الحضارى - القدرة على التمييز بين مصادر القوة وبين عوامل المسخ والتشويه . . وفى هذه القضية وهذه المعانى كتب يقول :

«إن للأمة العربية تاريخا مستقلا عن التاريخ الغربى الأوربى، وإن النظريات والأنظمة المنبعثة من حضارة الغرب وأوضاعه لاتلبى حاجات البيئة العربية، ولا تلقى فيها تقبلا . . . ولكن العرب لاينكرون ضرورة اتصالهم بالعالم الحديث، إلا أنهم لايرون إمكان الإفادة من الاتصال الثقافى إلا إذا تكونت شخصيتهم القومية، وبلغت حدا كافيا من النمو والوضوح والوعى لخصائصها يسمح لها بتمثل الأفكار الأجنبية، وتحويلها إلى مايزيد فى نموها وتوضيح اتجاهها . . »[6]!

فاختلاف المسيرة الحضارية، تاريخيا، بين أمتنا وبين أمم الحضارة الغربية، قد أفصح عن اختلاف الهوية الحضارية بيننا وبينهم، الأمر الذى ميز قوميتنا عن القوميات الغربية . . ومفاهيم حضارتنا فى الحرية، والعدالة، والإنسان وحقوقه، والدين والتدين . . إلخ . . إلخ . . عن نظيرتها فى الحضارة الغربية . . لقد اختلفت مسيرة التطور . . واختلفت مشكلاتها . . ومن ثم فلابد وأن تختلف الحلول . . . وكما يقول ميشيل عفلق : «فإن الشبه بيننا وبين الغرب، فى الواقع، ضعيف جدا، أو غير موجود! . فالغرب لم يمر بما مررنا به من مآس وآلام، ومن خضوع للاستعمار والتجزئة، إلخ . . فالحركات القومية الغربية نشأت فى ظروف مختلفة مصحوبة بالطموح واكتشاف ثروات

---

(٦) [فى سبيل البعث] ـ طبعة دار الطليعة ـ بيروت سنة ١٩٧٤ ـ ص ٣٠٠، ٣٠١ ـ «موقفنا من النظرية الشيوعية» ـ سنة ١٩٤٤م ـ

جديـدة ، واكتشاف العلم الحديـث بقوانينه ، فـأصيبت منذ ولادتها بـأمراض التوسـع والسيطرة . ولكن حركتنـا القومية نشـأت كأعمق جواب إنسـانى على ظلم الإنسـان للإنسان . . على المصير الإنسانى بكـامله . نشأت ثمرة ناضجة لكل هذه الآلام التى عانيناها بأنفسنا ، وكأننا عانيناها نيابة عن شعوب الأرض كلها ! **فالاحتمال ضعيف بأن ننتهى إلى حيث انتهى الغرب ! . .**»[٧].

ولذلك ، فإن التقليد لامبرر له ، فضـلا عن أنه غير مجد ولامفيد . . علاوة على أضراره القاتلة ، المتمثلة فى ضمور ملكات الخلق والإبداع لدى المقلدين ، إلى الحد الذى يصيبهم بالضمور والذبول ، فينساقون إلى التبعية مكبَّلين بأغلال التقليد . . «**فنحن لانريد لنهضتنا القوميـة أن تكون مقلدة ، أن تنقل مجرد نقل من الحضارة الأجنبيـة ، وإن كنا بحاجة إلى التفـاعل مع حضارة العـالم ، لكن نريد أن يأتى ذلك بشكل طبيعى ، وأن يتفـاعل مع مميزات شخصيتنا القومية ، وأن يكون الاقتبـاس من الخارج مسـاعدا على نبـش واكتشاف وإظهـار مزايـا وخصائص الشخصية القومية وما فيها من قوة وإبداع . .**»[٨] .

وهذا التقليـد للنموذج الحضـارى الغربى ، الـذى رفضه وأكـد على رفضه ميشيل عفلـق ، يستوى عنـده وفيه أن يكـون تقليدا للنمـوذج الشيوعـى ، أو النموذج الليبرالى فى الحضـارة الغربية . . فـاشتراكية البعـث عربية ، منـاهضة ومناقضـة للماركسية والشيـوعية . . والحريـة ، بنظر البعـث ، ليست ليبراليـة الغـرب . . ذلك أن للتراث الـروحى لأمتنـا مقام الـرَّحِم التـى تشكل ، هـى والواقع العربى المعاصر، سبل النهضة القـومية والحضـارية العربية المعاصرة . .

---

(٧) [فى سبيل البعـث] : جـ ٥ ، ص ٢٦ ـ « إنسـانية نضال الأمـة العربيـة» ـ يوليـو سنة ١٩٥٨م ـ.

(٨) المصدر السابق : جـ ٥ ، ص ١٩٠ ـ « القطر الصامد ينهض بمسئولية المصير القومى » ـ ٢١ ـ ٦ ـ ١٩٧٤م ـ .

بينما نماذج الغرب ـ الشمولية والليبرالية ـ جميعا تتفق على اجتثاث تراثنا ونسخه إذا نحن قلدنا أيًّا منها . . « **فالاتجاه الشيوعى ينكـر كل ماض . . وهناك اتجاه آخر ينكر الماضى عامة فى مظاهره فقط ، وفى الواقع ينكر الماضى العربى ، وهذا الاتجاه هو الاتجاه المعجـب بالغرب وحضارتـه ، والذى يدعـو إلى إهمال الماضى وتناسيه وأخذ الحضـارة الغربية بكليتها** . . ونحن ننظر إلى الماضـى لنفيد منه ، لا لنفيده ، لأنه يغنـى عنا ! ولنعين الأسس التى يجب أن نبنـى عليها مستقبلنا هذ امنـذ الحاضر، **فهـذه الأسس يجب أن تكـون مطلقـة ثابتـة** ، فلا خير فى أساس يتبدل مع الزمن ، ويصلـح لقسم من المواطنين ، أو لنوع من التفكير، كما أنها يجب أن تكـون أسسا حيـة ، معجونـة بدم الـواقع ، منسـوجة بنسيـج التجارب . . »[٩] !

إن استعـارة النموذج الغـربـى ناسخـة لأصالتنـا . . وخـاصة « للمطلـق والثابت» فى هـذه الأصالة . . ثم إن هـذه الاستعارة إنما تقدم لنا نمـوذجا غير صالـح للازدهار والفعـل فى واقعنا . . فالرسـالة الشيوعيـة خاصة بطبقـة من طبقات المجتمع . . والرسالة الليبرالية خـاصة بطبقة أخرى من طبقاته . . بينما رسـالـة أمتنـا مـوجهـة لكـل الأمـة ، وهـى المكلفـة بحملهـا ، وبـلاغهـا إلى العالمين ! . .

هكذا . . وعلى هـذا النحو تألق وعـى ميشيل عفلق ، فى مواجهـة الهيمنة الحضارية الغربية ، عندما تحدث عن « الغزو الفكرى الغربى » للعقل العربى والمسلـم . . وعـن التمايـز الحضـارى لأمتنـا وحضـارتنـا وعـن عـلاقـة ذلـك بالإسلام . . وبالصراع الحضارى بين الغرب وبين أمة الإسلام ! . .

---

(٩) [فى سبيل البعـث] ـ طبعة دار الطليعـة ـ بيروت سنة ١٩٧٤م ــ « الرسالـة الخالدة» ـ ١٩٤٦م ـ .

الغرب..والأقليات المسيحية العربية

فى الغزوة الغربية الصليبية على بلادنا ـ وهى التى استمرت قرابة القرنين [٤٨٩ ــ ٦٩٠هـ ، ١٠٩٦ ــ ١٢٩١م] ـ كان الغرب فى مرحلة انحطاطه الحضارى ، فجاءنا بالقوة المدمرة وبالنهب الاقتصادى . . ولم يكن لديه «فكر» يغرى العقل العربى والمسلم بتقليد الغزاة . . ولذلك ، فعندما زالت آخر قلاعه العسكرية من فوق سواحل الشام ، زالت كل آثار تلك الغزوة الصليبية ، دون أن تترك لها أثرا فى عقل عربى مسلما كان أو مسيحيا . .

لكن حال الغرب ـ وأيضا حالنا ـ كان قد اختلف عندما بدأ غزوته الحديثة لبلادنا العربية . . وهى التى بدأت بحملة بونابرت [١٧٦٩ ـ ١٨٢١م] على مصر [١٢١٣هـ ـ ١٧٩٨م] . . كان الغرب قد نهض فغادر عصوره الوسطى والمظلمة ، فتسلحت قوته الحربية الغازية بفكر عصر نهضته ، ومن ثم فلقد كان لدى هذه الغزوة ـ على جبهة الفكر ـ ماتغرى به ، وما تدعو إلى أن نقلدها فيه . . لقد جاء بونابرت ، لا بالمدفع وحده . . ولا بالنهب الاقتصادى فحسب . . وإنما جاء بالمطبعة . . والصحيفة . . والمنشورات . . وبالبعثة العلمية . . ومنذ اللحظة الأولى ، فى غزوته ، مد الحبال وفتح القنوات بينه وبين عقل وفكر البلاد التى جاء إليها غازيا . .

وهناك حقيقة لا أعتقد أن أحدا يمارى فيها . . وهى أن هذه الغزوة الاستعمارية الحديثة ـ التى بلغ عمرها الآن عمر الغزوة الصليبية ـ قد نجحت ، على جبهة الفكر ، فيما فشل فيه الصليبيون ! . .

لقد نجحت حملة بونابرت فى استقطاب نفر من « أراذل القبط » ــ كما سماهم الجبرتى [١١٦٧ ــ ١٢٣٧هـ ، ١٧٥٤ ــ ١٨٢٢م] ، فحاربوا فى صفوفها بقيادة قائدهم « الجنرال» يعقوب [١٧٤٥ ــ ١٨٠١م] ، الذى سماه الجبرتى « يعقوب اللعين» ! . .

صحيح أن هذه الفئة قد لعنها جمهور الأقباط . . ولعنتها الكنيسة القبطية . . كما لعنها الشعب بأجمعه . . وأن صفحتها قد طويت عندما خرجوا مع جنود الحملة المنهزمة [١٢١٦هـ - ١٨٠١م] . . لكن هذا الحدث قد ولد فى الواقع السياسى والفكرى آثارا بقيت ونمت منذ ذلك التاريخ . .

لقد التقط البعض - وخاصة من أبناء الأقليات الدينية العربية - من الجنرال يعقوب مفهوما «للاستقلال» يرونه ، بالنسبة للوطن ، استقلالا عن المحيط العربى الإسلامى ، وبالنسبة للهوية استقلالا عن التراث . . وكان معنى هذا «الاستقلال» هو استبدال الغرب وحضارته بالمحيط العربى الإسلامى وهويته وتراثه . . فكان أن تخلق فى واقعنا - وخاصة بين نفر من مثقفى الأقليات الدينية - اتجاه التقليد للغرب المنتصر، والاستعارة لنموذجه الحضارى ، كبديل للإسلام . . ومفهوم للوطن والوطنية مناهض للرابطة العربية والوحدة الإسلامية . . لقد تخلق تيار «التغريب» ، الذى أراد أنصاره إلحاق بلادنا بالغرب حضاريا . . وهؤلاء الأنصار، كان منهم المسلمون الذين انبهروا بالحضارة الغربية ، فظنوا - كاجتهاد خاطئ - أن ذلك هو السبيل للقوة التى نواجه بها الاستعمار الغربى . . بينما كان الكثيرون من متغربى الأقليات الدينية غير المسلمة على وعى بأن النموذج الحضارى الغربى هو البديل للإسلام الذى يكرهون ! ! .

وإذا كان الجنرال يعقوب وفيلقه قد مثلا بداية هذه « الثغرة» التى فتحها الغرب فى جدار وحدتنا الوطنية والقومية ، إبان بدايات غزوته الحديثة لبلادنا . . فإن مدرسة «المقطم» و«المقتطف» قد كانت أبرز حلقات التبشير بالتغريب والإلحاق الحضارى لبلادنا بالغرب . . فى حقبة تصاعد الزحف الاستعمارى على بلادنا ، وبعد سقوط مصر فى يد الإنجليز [١٢٩٩هـ ، سنة ١٨٨٢م] . .

فكـانت نـواة هـذه المدرسة مسيحيـة مـارونيـة . . ثم استقطبـت العـديد مـن المثقفين ، الذين كان أغلبهم من أبنـاء الأقليات غير المسلمة . . كانت النواة : يعقـوب صروف [١٨٥٢ ــ ١٩٢٧م] ، وفارس نمـر [١٨٥٦ ــ ١٩٥١م] ، وشـاهين مكاريـوس [١٨٥٣ ــ ١٩١٠م] . . والتـف حولهم : شبلى شميـل [١٨٦٠ ــ ١٩١٧م] ، ونقولا حـداد [١٨٧٨ ـ ١٩٥٤م] ، وجـرجى زيـدان [١٨٦١ ــ ١٩١٤م] ، وفرح أنطـون [١٨٧٤ ـ ١٩٢٢م] ، وسـلامـة موسـى [١٨٨٨ ـ ١٩٥٨م] . . إلخ . . إلخ . .

وإذا كـان الغرب الاستعمارى لم ينجـح بمصر ــ لوحـدة النسيـج الوطنـى للشعب ـ فى أن يستقطب الأقلية الدينية بكاملها ، أو بغالبيتها ، فظلت تأثيراته فى بنيها أثرا من آثار التغريب الذى لم يسلـم منه العقل الإسلامى . . إلا أنه قد نجح فى شـىء من ذلـك على أرض لبنان ، فتوجهـت أقليات دينيـة ، بعقول وأفئدة أغلبية التيار العام فيها إلى الغرب ، تحتمى بنموذجه الحضارى بديلا عن نموذج العـروبة والإسـلام . . ولقد كانـت « المارونية السيـاسية » نمـوذجا لهذه «الثغرة» التى فتحها الاستعمار فى هذا الجدار ! . .

وإذا كان تيار الإصـلاح الإسلامى ، الذى تصدى لـلاستعمار وللتغريب ، قد وعى هـذه الحقائق وعيا كاملا ونـاضجا . . فإن ميشيل عفلق قـد كان أبرز قادة التيار القومى العربى وعيـا بهذه الحقائق . . وأكثرهم جرأة فى الكشف عن أبعادهـا الاستعمارية ، ومخاطرها على القـومية . . كما تألقت جـرأته فى الإصرار على أن العلاقـة العضوية بين العـروبة والإسـلام لابد أن تجعل المكـان الطبيعى للأقليات المسيحية العـربية مع الأغلبية المسلمة ، أمة واحـدة ، تناضل لإحياء وتجديد حضـارتها الواحدة ، تلك التـى اصطبغت تاريخيا بصبغـة الإسلام . . فـالمتدينـون بـالإسلام ، هـو لهم : ديـن ، وقوميـة ، وحضـارة . . والمتدينـون

بالمسيحية، الإسلام لهم: قومية، وحضارة، وثقافة . . فالجميع أمة واحدة، ذات حضارة واحدة، فى مواجهة الاستلاب الغربى وغزو التغريب! . .

هكذا رأى ميشيل عفلق القضية . . وعلى هذا النحو عالج «الثغرة» التى فتحها الغرب فى جدار الوحدة القومية والحضارية، على جبهة الأقليات . . والأقليات المسيحية على وجه الخصوص . .

ولقد كان وعيه هذا سمة من السمات الثوابت فى فكره . . منذ بدأ مسيرته الفكرية، وحتى آخر الصفحات التى سطرها فى مشروعه الفكرى . .

* * *

ففى سنة ١٩٤٣م . . يتحدث ميشيل عفلق عن التأثيرات الغربية على انتماء الأقليات المسيحية . . . وينبه على مخاطر سلبيات هذه التأثيرات على هذا الانتماء القومى والحضارى . . فيقول :

«إن الفروق الطائفية أبعدت قسما هاما من العرب، عن روح بلادهم وتقاليدها، وجعلتهم شبه غرباء فى وطنهم، وأضعفت، بالنتيجة، مساهمتهم فى الحركة القومية . . ونحن نريد أن تستيقظ فى المسيحيين العرب قوميتهم يقظتها التامة، فيروا فى الإسلام ثقافة قومية لهم، يجب أن يتشبعوا بها ويحبوها، لأنه متصل بطبعهم وتاريخهم، ولأنه الميدان الذى برهن العرب فيه على كفاءتهم فى تسامى الروح وخصب الفكر وقوة الأخلاق . . [١٠] . . » .

ثم يتحدث ـ فى مناسبة أخرى ـ بنبرة الواثق، عن أن المستقبل سيشهد توجه أبناء الأقليات المسيحية العربية فى هذا الاتجاه . . فيقول :

---

(١٠) المصدر السابق : جـ ٤، ص ١٧ ـ « البعث والمعركة الانتخابية الأولى » ـ ٢٤ ـ ٧ ـ ١٩٤٣م ـ.

« . . وسوف يعرف المسيحيون العرب ، عندما تستيقظ فيهم قوميتهم يقظتها التامة ، ويسترجعون طبعهم الأصيل ، أن الإسلام هو لهم ثقافة قومية ، يجب أن يتشبعوا بها حتى يفهموها ويحبوها ، فيحرصوا على الإسلام حرصهم على أثمن شيء فى عروبتهم . وإذا كان الواقع لايزال بعيدا عن هذه الأمنية ، فإن على الجيل الجديد من المسيحيين العرب مهمة تحقيقها بجرأة وتجرد ، مضحين فى سبيل ذلك بالكبرياء والمنافع ، إذ لاشىء يعدل العروبة وشرف الانتساب إليها ! . . »[11] .

فالرجل غير حالم . . وإنما هو مدرك أن الطموح الذى يتطلع إليه «لايزال بعيدا» . . لكنه يدعو « الجيل الجديد من المسيحيين العرب» للتغلب على العقبات القائمة على هذا الطريق . .

ولقد نبه ميشيل عفلق على أن هذه العقبات هى من صنع الاستعمار . . وأن أغلبها هى تأثيرات فكرية زرعها فى عقول القيادات والنُّخَب المثقفة المسيحية ، ومصالح رتبها الاستعمار لنفر من أبناء هذه الأقليات . . فالاستعمار « يغذيهم بأفكاره الخاطئة» ، و«المدارس الأجنبية . . والمدارس التبشيرية قد أحدثت ــ على امتداد قرن كامل ـ تشوها ثقافيا ، بما نفثت من سموم فى تلك الأوساط . . حتى خلقت تيارا انعزاليا ذا وعى وشعور منحرف ، يزعم أنه غير عربى ، ويسعى للتحالف مع الغرب ضد العروبة والإسلام ! ! . . »

ينبه ميشيل عفلق على هذه العقبات المؤقتة . . ويدعو إلى التصدى لها . . وهو يتحدث عن الأقليات المسيحية فى لبنان ــ والأقلية المارونية منها خاصة ـ فيقول ــ فى سنة ١٩٥٥م : « . . لايجوز لنا أن نضحى بفكرتنا التى نؤمن بها

(١١) [فى سبيل البعث] ــ طبعة دار الطليعة ـ بيروت سنة ١٩٧٤م ـ « ذكرى الرسول العربى » ـ ٥ ـ ٤ ـ ١٩٤٣م .

أمام عقبات مؤقتة . فلمجرد وجود مسيحيين فى لبنان يغذيهم الاستعمار بأفكار خاطئة ، هل نساير لبنان ونقول له : إنه غير عربى؟! . . كلا ، لايمكن أن نضحى بفكرتنا . وواجبنا أن نشرح للبنانيين الانعزاليين بأن العروبة التى نعمل لها تمنع الضغط الدينى وسيطرة طائفة دينية على أخرى . إنهم يتهربون من العروبة ـ وهى مرادفة فى نظرهم للإسلام ـ لأنها ، فى نظرهم لاتسمح بتكوين مجتمع يحفظ حرية الفرد ويساير التطور الحديث فى العالم . فاللبنانيون تذوقوا مظاهر الحضارة الغربية أكثر من أى قطر عربى آخر ، وتعلقوا بالحرية الفردية ، فهم يخشون ، بعد أن حصلوا على شىء من هذه الحرية ، إذا اندمجوا فى الجسم العربى أن يفقدوا حريتهم . . »[١٢] .

وفى مناسبة أخرى ، يعرض ميشيل عفلق لهذه « المخاوف» ، فينفى وجود أساس موضوعى لها . . ويرجعها جميعا إلى تأثيرات التغريب والفكر الذى زرعه الاستعمار . فيتحدث ، مشيرا إلى الصراع العنيف الذى بدأ فى لبنان منذ سنة ١٩٧٥ م ، فيقول :

«إن ماجرى ويجرى فى لبنان ليس حربا طائفية ، ولا هو صراع طبقى ، وإنما هو صراع بين الأمة وأعدائها . . صراع بين التقدم والتخلف . . صراع بين الوحدة والانفصال . . صراع بين النزوع والتوجه إلى الحضارة العربية العريقة الأصيلة وبين تبنى الحضارة الزائفة المصطنعة القائمة على النقل والتقليد . . . لقد كان واضحا فى كتابات الحزب منذ أوائل الأربعينات ، عندما انتقدنا تلك القومية المجردة ، التى كانت تتنصل من التراث ، وكأنه عاهة ، فتفقد قوميتنا دمها ولحمها وروحها وعمقها ، وتترك

---

(١٢) المصدر السابق : ص ١٧٣ ، ١٧٤ ـ «قوميتنا المتحررة أمام التفرقة الدينية والعنصرية» ـ ١٩٥٥م .

الطوائف الأخرى أسيرة لعزلتها واغترابها وارتهانها للثقافات والـولاءات الأجنبية المعادية، بدلا من طرح المسألة على حقيقتها ووضوحها، لمساعدة هذه الطوائف على تطوير نفسها ومراجعة مواقفها وعاداتها واكتشاف ذاتها وطريق مستقبلها. . »(١٣).

فمرجعية التراث القومى ـ الإسلام ـ هى الرباط الجامع لأبناء الأمة العربية، كقومية واحدة ذات حضارة إسلامية واحدة، فى مواجهة الآخر الحضارى. . وليست مبررًا للتشرذم القومى، كما يحسب ويتوهم دعاة تجريد قوميتنا من مرجعية هذا التراث. . فالإسلام وحضارته رباط جامع وموحد، على عكس الوهم الزائف الذى صبه الاستعمار فى عقول الانعزاليين المسيحيين! . .

ويمضى ميشيل عفلق ـ فى مناسبة أخرى ـ فيقدم لنا صياغته الرائعة لعلاقة العروبة بالإسلام، وكيف أن «العروبة تعنى الإسلام»، ولذلك «فلايوجد عربى غير مسلم»!! . . بل ويستشهد على فهمه هذا بكتابات نفر من عقلاء المارونيين ! . . يقول سنة ١٩٧٦م .

«البعث وضع الإسلام، كثورة أخلاقية وفكرية واجتماعية حاسمة فى تاريخ البشر، وضعها فى صلب القومية العربية. وبهذا المعنى لايوجد عربى غير مسلم. هذا إذا كان العربى صادق العروبة، وإذا كان متجردا من الأهواء ومتجردا من المصالح الذاتية. العروبة تعنى الإسلام، بهذا المعنى الرفيع الذى لاتعصب فيه ولاتمييز ولا أى شىء سلبى . ».

ثم يستطرد، مستشهدا بكتابات مسيحية مارونية . . فيقول : « . . ولابأس أن أتوسع قليلا، وآخذ من حوادث لبنان أمثلة حية، أمثلة فى

(١٣) [فى سبيل البعث]: جـ ٣، ص ١١٤ ـ « التراث عزز صمود الأمة وأعطى للثورة العربية مستواها العالمى » ـ ٧ ـ ٤ ـ ١٩٧٦م .

غاية الأهمية . . قبل سنتين على الأقل أخذت تظهر أفكار فى لبنان ، من الطوائف المسيحية ، من أفراد ومجموعات صغيرة تتمرد على المفهوم الطائفى الرائج ، ومن النظرة الضيقة ، وعلى التعصب . . الشىء الجديد هو أن بعض هذه الأفكار كان يقول ، ويصرح بجرأة بأن الموقف المسيحى من الإسلام كان خاطئا من أساسه ، وأنه متأثر بالتبعية للغرب ، ومتأثر بالتربية الاستعمارية فى المدارس الأجنبية ، وأن النظرة الجديدة إلى الإسلام يجب أن تكون أنه هو الدين الثورى الإنسانى ، وأن العروبة والإسلام متلازمان . . بل إن بعضهم خطا خطوة أكثر جرأة ، وكتب ـ وهو رجل دين مارونى ـ مقالا طويلا وعلميا ومدعوما بالشواهد التاريخية يقول بأن نشأة المارونية لم تكن ضد الإسلام ، بل إن الموارنة هربوا إلى لبنان من اضطهاد الفرق المسيحية الأخرى لهم ، التى كانت تستعين بالدولة البيزنطية ، ولم يدخلوا فى صدام أو خلاف مع العرب المسلمين . ثم يستعرض حقبا من التاريخ ، وينتهى إلى القول ، وإلى مصارحتهم بأنهم وجميع المسيحيين فى هذا الشرق العربى ، إذا لم يقبلوا ، عن طوع وإرادة واقتناع ومحبة ، بأن يكونوا ، بمعنى من المعانى ، مسلمين ، فإنهم لايكونون أمناء لفكرهم ووطنهم وعروبتهم . . » . .

ثم يعلق ميشيل عفلق على مقال رجل الدين المارونى هذا ، فيقول : « . . هذا ماقلناه قبل ثلاثة وثلاثين عاما ـ فى عام ١٩٤٣ م ـ بأن المسيحيين العرب عندما تستيقظ فيهم قوميتهم سوف يعرفون بأن الإسلام هو لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها ويحبوها ويحرصوا عليها حرصهم على أثمن شىء فى عروبتهم . . » .

ولاينسى ميشيل عفلق أن ينبه على تقصير حزب البعث فى العمل على هذه الجبهة . . جبهة إبراز الإسلام كرباط جامع بين العرب جميعا ، على اختلاف

الديانات . . فيقول : « لم يفعل الحزب شيئا كثيرا لنشر هذه الأفكار وللدعاية لها ولتوضيحها ولتوسيعها ، ولكن تطور الأحداث خلال ثلاثين عاما أوصل إلى هذه النتائج عند البعض ، وهى بدايات لاشك أنهاستكون لها تتمة . . »(١٤) .

وفى الوقت الذى أشاد فيه ميشيل عفلق بهذا التطور الفكرى لدى بعض مثقفى المارونيين ومفكريهم . . كانت إدانته للفريق الانعزالى ، الصادر فى دعاواه الانعزالية عن تأثيرات التغريب الاستعمارى . . فتحدث عن دعاوى هذا الفريق ، فقال :

«صرنا نسمع بالعنصر المارونى ، وكأنها قومية ، أو عنصر متميز ، له تاريخ وله حضارة ! ! وهم شعب عربى مثل باقى العرب . وإنما هى قيادات نفعية ، وذات أطماع سياسية وطبقية ، استندت إلى تشويه ثقافى امتد ردحا من الزمن ، مدة قرن كامل ، والمدارس التبشيرية تنفث سمومها فى تلك الأوساط وتخلق وعيا منحرفا وشعورا منحرفا بأنهم ليسوا عربا ، وأنهم شىء آخر ، وبالتالى يمكن أن يتحالفوا مع أعداء العرب لكى يستقلوا ويتحرروا . هذه افتعالات ضد طبيعة الأشياء ، لن يكتب لها البقاء ، لن تدوم طويلا . . »(١٥) .

وإذا كان ميشيل عفلق قد دعا المسيحيين العرب ، فى سنة ١٩٤٣م ، إلى أن يفهموا الإسلام ويحبوه ويحرصوا عليه حرصهم على أثمن شىء فى عروبتهم . . ثم استمرت هذه الدعوة فى مشروعه الفكرى ، بارزة وملحوظة ، فلقد كان خطابه سنة ١٩٨٦م ـ فى ذكرى تأسيس الحزب ـ مناسبة لتجديد هذه الدعوة ،

---

(١٤) المصدر السابق : جـ٣ ، ص ٣٣ ـ ٣٥ ـ «أصالة الأمة قوة نضالية متجددة» ـ ١٩ ـ ١ ـ ١٩٧٦م ـ .

(١٥) المصدر السابق : جـ ٥ ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ـ « الثورة العربية فى طريق النضج » ـ ١٠ ـ ٥ ـ ١٩٧٧م ـ .

وللتعجب من الذيـن لايستجيبون لندائها! . . يقول الرجـل، فى هذا الخطاب التاريخى :

« . . ولئن كان عجبى شديدا للمسلـم الذى لا يحب العرب، فعجبى أشد للعربى الذى لايحب الإسـلام . . لقد كانت رؤيتنا القوميـة الحضارية لمستقبل الأمة ـ وذلك منذ بداية الحزب ـ أن يسـاعد الكشف عن خصوصية العلاقة بين العروبة والإسلام، على أن تكتشف الطـوائف العربية غير المسلمة، أن الإسلام هو ثقافتها، وحضـارتها، وأثمن شىء فى عروبتها، تباهـى به حضارات الأمم الأخرى. ومـن قبل بداية الحزب بسنين عـديدة، كان إدراكنـا لخطر الاستعمار الثقـافى الغـربى على هـذه الطـوائف، وأن إنقـاذ هـذه الطـوائف من الغـربـة الحضاريـة ، لايكون بغير تعميق الثقـافة العربية الإسـلامية وتعميمها كثقـافة للأمة كلها . . »(١٦) .

هكذا . . وعلى هذا النحـو، تناول ميشيل عفلق قضيـة الأقليات المسيحية العربيـة . . وعالج « الثغـرة» التى فتحها الاستعمار فى جـدار الوحدة القـومية والحضاريـة عن طريـق الفكر الاستعمارى الذى شوه رؤيـة نفر من أبنـاء هذه الأقليات . . وقـدم الرجل ـ مـن موقع الريـادة لأبرز مشروعات الفكر القـومى العربـى ـ الرؤيـة القوميـة للمكان الطبيعى لهذه الأقليـات فى مشروع النهضة العربية . .

إن الإسلام ليس دينا فقط، حتى يكون خاصـا بالمسلمين الذين يتدينون به كعقيدة دينية . . وإنما هـو، مع ذلك، « قوميـة وحضارة وثقافة» . . ولـذلك فهو بالنسبة لغير المسلمين ، من العرب، قوميـة وحضارة وثقافة . . ومن ثم،

(١٦) المصدر السابق : جـ٣ ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ ـ «من أجل عمل عربى مستقبلى» ـ ٧ ـ ٤ ـ ١٩٨٦م.

فهو رباط جامع للأمة، يميز حضارتها ومشروعها النهضوى عن الحضارة الغربية وثقافة التغريب . .

الغرب .. واليهودية - الصّهيونية

وإذا كان « النجاح » الذى أحرزته الغزوة الاستعمارية الغربية على جبهة الأقليات المسيحية العربية، قد كان ـ وظل ـ محدودا ، وشاذا، ومحاصرا بالمنطق الوطنى والقومى والحضارى، الذى يؤكد على وحدة الأمة ، قوميا وحضاريا، فى مواجهة الغرب وحضارته . . فإن هذه الغزوة الاستعمارية قد أصابت نجاحا أكبر عندما عقدت خيوط حلف غير مقدس بين حضارتها المسيحية وبين اليهودية ـ الصهيونية لإقامة قاعدة للحضارة الغربية ورأس جسر لاستعمارها فى قلب وطننا العربى، على أرض فلسطين . .

ولقد كانت الريادة فى هذا الميدان أيضا لبونابرت ! ! .

ففى ٤ إبريل سنة ١٧٩٩م . . ومن أبواب مدينة «عكا» ـ أثناء حصاره لها ـ أصدر بونابرت نداءه الشهير إلى يهود العالم، يدعوهم فيه إلى التحالف مع فرنسا، لإقامة إمبراطوريتها الشرقية، مقابل مساعدتهم فى السيادة على الوطن الذى تزعم أساطيرهم الدينية أنه وعد الله لشعبهم المختار ! . . فى هذا النداء، خاطب بونابرت اليهود ، فقال :

« . . إن العناية الإلّهية ، التى أرسلتنى على رأس هذا الجيش إلى هنا، قد جعلت رائدى العدل، وكفلتنى بالظفر، وجعلت من (القدس) مقرى العام ، وهى التى ستجعله بعد قليل فى (دمشق)، التى لايضير جوارها بلد (داود) ! . .

يا ورثة فلسطين الشرعيين ، إن الأمة العظيمة ـ [فرنسا] ـ التى لاتتجر

بالرجال ، كما فعل أولئك الذين بـاعوا أجدادكم للشعوب ـ تناديكم الآن ، لا للعمـل على إعادة احتـلال وطنكم فحسب ، وليـس بغية استرجـاع مافقـد منكـم ، بل لأجـل ضمان ومؤازرة هـذه الأمة ، لتحفظـوهـا مصونـة من جميـع الطامعين بكم ، كيما تصبحوا أسياد بلادكم الحقيقيين ! . .

انهضـوا ، وبرهنـوا على أن القـوة السـاحقة التـى كـانـت لأولئك الـذيـن اضطهدوكـم لم تفعل شيئا بسبيـل تثبيط همة أبناء هؤلاء الأبطال الـذين كانت محالفة إخوانهم تشرف (إسبارطه) و(روما)[١٧] ! ! » .

لقد استنهض بونابـرت همة يهود العالم ، للتحالف مع المشروع الاستعماري الفرنسـي ، مذكـرا إياهـم بـأن ما يـدعو إليه اليـوم من تحالـف . إنما يستهدف استعادة الشرق من جـديد . . الشرق الذى اقتلعت فتوحات الإسـلام منه آثار غزوة الإسكندر الأكبر [٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق . م] . . ثم اقتلعت منه دول الفروسية الإسلامية دويلات الصليبيين . . وهاهو ذا بونـابرت يدعو إلى حلف «غربى ـ يهودى» يحقق لطليعة الغزوة الغـربية الحديثة موطئ قدم فى قلـب وطن العروبة وعالم الإسلام .

ومنذ ذلـك التاريـخ ، وعلى امتداد القرنين الماضيين ، استمـر وتدعَّـم هذا التحالـف «الغربـى ـ اليهـودى» ضد العـرب والمسلمين ـ مـع تغير فى القيادة الغربية لهذا التحالف ـ إنجلترا بعد فرنسا ، وأمريكا بعد إنجلترا ـ وقامت الدولة الصهيونية . . وبرزت فى الكتابات والممارسات الاستعمارية الشواهد التى تعطى هذا التحالف أبعـاده الدينية والحضارية ـ وليس فقط السيـاسية والاقتصادية ـ حتى أصبـح من الحقـائق التى لاسبيـل إلى التعامـى عن إدراكهـا أن مواجهـة

---

(١٧) انظر كتابنا : [إسرائيـل . . هل هى سامية؟] : ص ٣١ ، ٣٢ طبعة القـاهرة، سنة ١٩٦٧م.

التحدى الصهيونى إنما هى مواجهة للمشروع الغربى الاستعمارى . . مواجهة للحضارة الغربية التى أدخلت اليهودية ، مع المسيحية ، ضمن البعد الدينى فى مكوناتها وأبعادها .

لقد صرح « جون فوستر دلاس » [١٨٨٨ ـ ١٩٦٩ م] عن البعد الدينى والحضارى للتحالف « الغربى ـ اليهودى » ، فقال : « إن مدنية الغرب قد قامت ، فى أساسها ، على العقيدة اليهودية فى الطبيعة الروحية للإنسانية . ولذلك يجب أن تدرك الدول الغربية أنه يتحتم عليها أن تعمل بعزم أكيد من أجل الدفاع عن هذه المدنية التى معقلها إسرائيل ! ! » (١٨) .

فإسرائيل ـ بنظر دلاس ـ هى معقل المدنية الغربية . . ومن ثم ، فإن الشراكة بين الغرب وبين الصهيونية ذات ابعاد دينية وحضارية ، فضلا عن الاشتراك فى معاداة العرب وكراهية الاسلام ! . .

تلك هى الخلفية الحضارية والدينية للصراع « العربى ـ الغربى » على هذه الثغرة من الجبهة الممتدة لهذا الصراع التاريخى . . وهى خلفية قد وعاها ميشيل عفلق على نحو يستحق التقدير والاعجاب ! . .

* * *

ونحن لا نبالغ إذا قلنا إن ميشيل عفلق قد تميز عن جمهرة المفكرين القوميين العرب ، عندما أبصر البعد الدينى والطابع الدينى فى عداء الغرب للأمة العربية . . والطابع الدينى للغزوة الصهيونية فى قلب الوطن العربى . . فلسطين . . فكثيرون من المفكرين القوميين العرب ـ بسبب التوجه العلمانى ـ

---

(١٨) المرجع السابق : ص ٢١ .

قد غفلوا عن هذا البعد والطابع فى هذا الصراع . . وحسبوا أن من «التقدمية» ومن «التسامح» أن ينكر المرء الطابع الدينى لهذا الصراع ! .

وإذا كنا قد سبق وأن أوردنا نصوصه فى البعد الدينى لعداء الغرب للأمة العربية . . ودور عداء الغرب للإسلام فى صراع الغرب ضد أمتنا . . فإن إشارات إلى نصوصه حول الطابع الدينى للغزوة الصهيونية . . والبعد الدينى فى التحالف الغربى ـ اليهودى ـ الصهيونى . . ودخول اليهودية ـ مع المسيحية ـ ضمن مكونات الحضارة الغربية المعادية لحضارتنا ، بعد التحالف الغربى ـ اليهودى . . إن إشارات إلى نصوص ميشيل عفلق حول هذا الأمر ، هى ضرورية لإبراز هذه السمة من سمات فكره ، الذى تميز ـ كما أشرنا ـ عن كثير من تصورات كثير من المفكرين العرب القوميين . .

● فى سنة ١٩٤٦م . . كانت لمناهج التحليل الماركسى والمادى سطوة على دوائر الفكر والثقافة فى عالمنا العربى ـ وهى المناهج التى لاتبصر للصراعات السياسية أسبابا سوى الأسباب المادية والاقتصادية . . ولكن ميشيل عفلق يتحدث عن الغزوة الصهيونية ، فيرى فى البعد الدينى عاملها الأول . . كما يرى فى «الإيمان» سلاح المقاومة الأفعل لهذه الغزوة ! . . ويذكر بوجه الشبه بين هذه الغزوة وبين الحروب الصليبية ! . . «**فالخطر الصهيونى ليس مجرد غزو اقتصادى يحركه المال والطمع المادى ، وإنما هو ، بالدرجة الأولى ، غزو دينى ، لايشبه فى التاريخ إلا الحروب الصليبية ! . ولايقوى على دفعه إلا يقظة الإيمان فى نفوس العرب ، وتجسيد هذا الإيمان بشكل عملى فعال . .**»[١٩] .

---

(١٩) [فى سبيل البعث] : جـ ١ ، ص ٢٠٢ ـ « لاينتظرن العرب ظهور المعجزة . فلسطين لاتنقذها الحكومات بل العمل الشعبى » ـ ٦ ـ ٨ ـ ١٩٤٦م .

● وفى سنة ١٩٧٦م . . يشير إلى أن الحركة الصهيونية ، إنما هى ثمرة من الثمرات المرة للحضارة الغربية المريضة . . «**فالصهيونية ليست إلا نتاج هذا الغرب وحضارته المريضة ! . .**»[٢٠] .

● وفى سنة ١٩٨٠م . . يتحدث عن استمرارية عداء الغرب للأمة العربية ، على امتداد مئات السنين . . وهو عداء لم تشهد مناطق الصراع والتوتر فى العالم له مثيلا ، فى عنفه واستمراريته . . ويشير إلى أن الغزوة الصهيونية الحالية ، إنما هى الصيغة الأخيرة لحروب الغرب الصليبية ضد أمتنا ! . .

«**إن العداء الذى وجه للأمة العربية فى هذا العصر ، ومايزال ، لم يوجه لأى شعب فى العالم ، لأى بلد فى العالم . لم يهدأ هذا العداء منذ مئات السنين ، وأنتم تعرفون التاريخ ، وهو مستمر فى هذا العصر . الحروب الصليبية لم تنته بعد ، وصيغتها الأخيرة هى الكيان الصهيونى ! . .**»[٢١] .

● وفى سنة ١٩٨٥م . . يلمس ميشيل عفلق أمرا خطيرا قلما التفت إليه الكثيرون . . ألا وهو ذلك التعديل الذى أدخله الغرب على مقومات ومكونات حضارته . . فهذه الحضارة « المسيحية ـ اليونانية ـ اللاتينية » . . ذات التاريخ الطويل والشهير فى العداء لليهودية . . بعد أن نجح حلفها مع الصهيونية فى إقامة الدولة اليهودية فى قلب الأمة العربية ، قد عمقت هذا التحالف فجعلته ذا طابع حضارى دائم ، وذلك بإدخالها اليهودية ـ مع المسيحية ـ كبعد ومقوم

---

(٢٠) المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ٢١ ـ « أصالة الأمة قوة نضالية متجددة» ـ ١٩ ـ ١ ـ ١٩٧٦م ـ .

(٢١) المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ٩٨ ـ «روح الأمة وروح العصر» ـ ٩ ـ ٤ ـ ١٩٨٠م ـ .

دينى فيهـا ، تعميقا وتصعيـدا للبعد الـدينى فى صراعهـا الحضارى ضـد الأمة العربية وحضارتها الإسلامية ! ! . .

يلمـس ميشيل عفلـق هذا الأمـر ـ الـذى يغفـل عنه أو يتجـاهله أغلـب مفكرينا القوميين ـ فيقول :

« . . إنه عندما تحقق للاستعمار والصهيونية العالمية إقامة الكيان الصهيونى الغاصب لأرض فلسطين ، دخل الغرب فى علاقة جديدة مع اليهود واليهودية . فبعد مضـى أربعة قـرون على النهضة الأوربيـة ، كان الغـرب خلالها يعتبر أن حضارتـه مستندة إلى صيغـة من التفـاعل بين المسيحيـة والحضارة اليـونانيـة ـ اللاتينية القـديمة ، ويدرس ذلك فى جامعـاته ، إذا هو يجرى تعديلا جـوهريا على هذه المسلمـة ، أو يبدلها ، بأن أصبـح الأساس لحضـارته هو التفـاعل بين الديانتين : المسيحية واليهودية ! ! وهى عملية سياسية مفضوحة ، ليس لها من مبرر إلا القوة التى بلغتها الصهيونية فى الغرب ، حتى استطاعت أن تفرض مثل هذا التعـديل الأيديـولوجى الأسـاسى ، وإلا أطماع الغرب فى استغـلال البلاد العربية وثرواتها ، واعتبـار الكيان الصهيونى جزءا متقدما مـن الحضارة الغربية مزروعـا فى قلب البـلاد العربيـة ، تجمعه بـالغرب صـلات ومصالـح وأهداف مشتركة . وأصبحت اليهودية ، التى كانت إلى عهد غير بعيد موضوع تميز دينى وعنصرى واضطهـاد فى بعض الأحيـان فى الغـرب ، أصبحـت اليهوديـة جـزءا عضويا فى جسم الغرب ، وحليفا ، ليس لمحاربة العرب والإسلام فحسب ، بل ولمحاربة الاتحاد السوفيتى[٢٢] .

لقـد كشفت الأحـداث الأخيرة ــ [أحـداث العدوان الإسرائيلى على مقـر

---

(٢٢) كان ذلك بـالطبع فكر ماقبـل التئام شقى الحضارة الغـربية ، وتراجع النمـط الشمولى لحساب النمط الليبرالى ! . .

منظمة التحرير الفسطينية ، بتونس] ـ عن ظاهرة ، هى ليست بالجديدة ، ولكن كثيرا ماتنسى ، أو لاتعطى الأهمية التى تستحقها فى الأوقات العادية . هذه الظاهرة هى أن الغرب مازال يشعر بأنه حضارة معادية للعرب والإسلام كحضارة أخرى ، وأن حضارة الغرب هى المتفوقة . . وأنها رغم تفوقها ورغم سيطرتها لم تستطع أن تقضى على الصمود الراسخ فى جوهر الحضارة العربية الإسلامية ، رغم ما أصابها من نكسات ! ! . . »(٢٣) .

● وفى سنة ١٩٨٦م . . يؤكد ميشيل عفلق على هذا المعنى الخطير . . وعلى هذه الحقيقة الجوهرية من حقائق صراعنا الحضارى مع الغرب . . فيقول :

« إن الغرب الاستعمارى ، الذى يخوض صراعا تاريخيا منذ قرون عديدة ضد الإسلام والأمة العربية ، بدافع التعصب الدينى والعنصرى وحب الاستغلال والهيمنة ، أصبح اليوم أشد عداء للعرب وللإسلام منذ وجد فى الصهيونية ضالته المنشودة ، ليعطل وحدة العرب ونهضتهم ، حتى تستمر سيطرته على البلاد العربية واستغلاله لثرواتها وموقعها . هذه الشراكة السياسية الاستعمارية التوسعية بين الغرب والصهيونية هى أخطر بكثير من مجرد تحالف سياسى ، إذ إنها تستند إلى شراكة حضارية ثقافية عميقة ، عمرها مئات السنين ! ! »(٢٤) .

فالمواجهة بيننا وبين الصهيونية ودولتها اليهودية ، إنما هى جزء من المواجهة التاريخية والصراع الحضارى ، الممتد لمئات السنين ، بين الغرب الاستعمارى

---

(٢٣) من حديث ميشيل عفلق إلى مجلة [الطليعة العربية] ــ بغداد ــ عدد نوفمبر سنة ١٩٨٥م .

(٢٤) [فى سبيل البعث] : جـ٣ ، ص ٢٧٠ ـ من أجل عمل عربى مستقبلى » ـ ٧ / ٤ / ١٩٨٦م ـ .

وحضارته العـدوانية وبين الإسلام والأمة العـربية . . ينهض التعصب الـدينى والعنصرى وحب الهيمنة والاستغلال ـ وهى سمات غربيـة ـ بالدور الرئيسى فى هذه الشراكة السياسية بين الغرب والحركة الصهيـونية . . فالتحالف السياسى مؤسـس على «شراكة حضاريـة ثقافية عميقة»، مـوجهة ضد الإسـلام والأمة العربية وحضارتها الإسلامية . .

تلك هى رؤيـة ميشيل عفلق للثغرة الثـالثة ، التى فتحها الغـرب فى جدار المقـاومة العـربيـة الإسلاميـة لـزحفه الحضـارى ، المتـوالى الحلقات ، والمتكـرر الحملات ، على بلادنا عبر مئات السنين ! . .

* * *

العرب .. والشيوعية الغربية

فى باريس ، إبان دراسته فيها ، درس ميشيل عفلق الماركسية . . وكان ـ مع مجموعـة كبيرة من الطلبة العـرب الدارسين هناك ـ قـريبا من الحزب الشيـوعى الفرنسـى ، الذى كـانت شعاراتـه أقل عداء لشعـوب المستعمرات الفـرنسية ، ومنها الشعوب العربية فى سورية ولبنان وتونس والجزائر والمغرب . .

وهو يتحـدث ـ بصـدد نقده للشيـوعية ـ عن معـرفته بها ، وبمـراجعاتها والانتقادات التى وجهـت إليها ، من داخل أحـزابها ومن خارجها . . بـل لقد كان الرجل ـ كما سيتبين لنا ـ متابعا جيدا لمجريـات الفكر والتطبيق فى البلاد التى اختـارت الشيوعيـة طريقـا للتغيير . . يتحدث عـن دراسته للماركسيـة فيقول :

« إن الـذين وضعـوا الأسس الأولى لهذا الحزب ، كـانوا ممـن درسوا الفكـر الماركسى ، وأعجبـوا ببعض نـواحيه ، وبكثير من نـواحيه ، فكـانوا فى الـوقت

نفسه أبنـاء زمنهم ، وأبناء بلدهـم وأمتهم ، فلم يتجمدوا عنـد الصيغة الأولى للماركسية ، بل اطلعوا وشاهدوا أكثـر الاعتراضات التى وجهت إلى الماركسية ، سواء من ضمنها أو مـن الآخرين ، وشاهدوا واطلعوا على الـردود والتكذيبات العمليـة التـى أتــت بها الأحـداث كـدليـل على خطــأ أو نقـص فى التفكير الماركسى . . »[٢٥] .

فهـو دارس للماركسيـة . . بـل ولايخفـى إعجـابـه ببعـض أو بكثير مـن نواحيهـا . . ومن ثم ، فإن نقـده لها ، ورفضه لأن تكون صيغة التقـدم والتحرر العربية ، هو موقف فيه من الموضوعية مايجعله أهلا للتأمل والاعتبار . .

* * *

لقد نظـر ميشيل عفلـق إلى الماركسية فرآهـا وافدا غـربيا ، وامتـدادا للغزو الفكرى الـذى تمارسه الحضارة الغـربية ضد حضارتنـا العربية ، وواحـدة من الثغرات التى فتحها الغرب فى جدار صمودنا الفكرى . . فهى نافية لأصالتنا ، لا من حيث هى «وافد» فقط ـ فلم يكـن الرجل رافضا لكل «وافد» ـ وإنها من حيـث نفيهـا ونقضها لكـل « الثـوابـت» و«المطلقـات» فى أصـالتنا العـربيـة الإسلامية . .

● فهـى المبشرة بالماديـة والإلحاد . . تطمح إلى نفـى الـدين . . بينها صيغـة البعث قـد رأت للإسلام المرجعيـة الأولى فى البعث القـومى ، كديـن وعقيدة وثورة وحضارة وأخلاق . . كما رأت فى مطلق الدين حاجة إنسانية خالدة .

---

(٢٥) المصدر السابق : جـ ٤ ، ص ٣٧١ ـ «البعث تعبير عن أفكار الجيل العربى الجديد» ـ ١٢ ـ ١٠ ـ ١٩٦٣م ـ .

● وهى المبشرة بنسبية القومية ومرحليتها ــ تبعا لتحليلها القوميات الأوربية بينما يرى البعث تميز قوميتنا العربيــة بالخلود، لأنها ثمرة الإسلام الخالد. ولأنها إنسـانية ، لـن تطوى النـزعـة الإنسانيـة صفحتهـا ، كما هو حـال القوميـات العنصرية ، التى لايتصور الماركسيون قومية ما إلا على غرارها ! . .

● ومذهبهـا فى أولية المادة ، وانعكـاس كل الفكـر عن حـركتها ، وربطهـا «الأبنية الفوقيـة» ، وفيها كل الفكر، تقريبـا ، «بالأبنية التحتية» ــ المادية ـ . . يجعل كـل فكر ، بنظرها ، آيـلا إلى التطور والتغير و إخلاء مكانـه لغيره ، تبعا لتغير وتطور الأبنيـة التحتية الماديـة ، التى تفـرزه وتولـده وتعكسه . . على حين يؤمن البعث بأن لأمتنا العربية رسالة خـالدة ـ هى الإسلام وتراثه ـ وأن النهضة لابد وأن تبنـى على الثوابـت المطلقة الخالـدة ، وأن التطور لايطـوى كل القيـم وجميع الأفكار ! . . بل و يرى أنه لاخير فى نهضه لاتبنى على الثوابت . .

● وهى تسعى لحل مشكلة قطاع من الأمـة . . مجرد طبقة من طبقاتها ـ هى البروليتاريا ـ . . لأن هذه الطبقة ، بنظر الماركسية ، هى حاملة رسالة التقدم ، كما رأت الليبرالية الغـربية فى البرجـوازية حـاملة هـذا اللواء . . على حين رأى البعـث ، بحكم رؤيتـه القوميـة ، فى الأمة ــ كـأمة ــ الحامل لـرسالـة المشروع الحضارى الذى يدعو إليه .

● وهى نظـرية أوربية . . كل أصـولها وملابسات نشأتها أوربيـة . . وأيضا مالجوانبهـا الصائبـة من مسـوغات هـى مسوغـات أوربية كـذلك . . ولهذا ، كانت الحركات العربية التى اتخذتها منهاجا هـى بمثابة الرافد الغربى فى واقعنا العربى ، تحركه وتوجهه السياسات الخارجية للدول الشيوعية . . على حين رأى البعث فى الحضارة الغربية العدو التـاريخى ، الذى حاول ويحاول منع أمتنا من النهضة والبعث والانطلاق . . فالحركات الشيوعيـة العربية «ثغرات غربية» فى

جدار الاستقلال الحضارى لأمتنا العربية ، ومعاول هدم فى مكونات حضارتنا الإسلامية . .

تلك هى أهم وجوه التنافى بين الشيوعية وبين مشروع ميشيل عفلق . . وفى ضوئها ، نقف عند نماذج من نصوصه ، تمثل الخط البيانى لفكره تجاه الشيوعية والشيوعيين العرب . . وهى صفحة من صفحات فكره ، عالج فيها « الموقف العربى » المناهض لمركزية الغرب وهيمنة حضارته على غيرها من الحضارات . .

* * *

يعرض ميشيل عفلق لموقف مشروعه النهضوى من الشيوعية ، فيقول :

« . . ولأن الشيوعية أظهرت نفسها كخلاصة للفلسفات التى عرفها البشر ، وكدين جديد لمستقبل الإنسانية ، فتحديد موقفنا منها كان مفروضا علينا من هذه الاعتبارات ومن الأهمية الفكرية والعملية التى احتلتها الشيوعية فى العالم الأوربى ، لا من تماسها المباشر مع واقعنا العربى ، إذ إن هذا التماس كان سطحيا وأضعف من أن يشكل مشكلة جدية وعميقة بالنسبة إلى حياة العرب ! . .

إن مجرد كون حركتنا حركة عربية انقلابية ، يعنى أننا رفضنا نهائيا الأخذ بالنظرية الشيوعية وبحركتها ، وأن خلافنا مع الشيوعية خلاف مبدئى وأساسى . . فسياسة الحزب الشيوعى فى بلادنا تنطلق من السياسة الخارجية المستوحاة من السياسة الشيوعية العالمية ، ومن ظروف الاتحاد السوفياتى وصراعه مع المعسكر الغربى . . إن على حركتنا واجب الحذر والحيطة والجهد المتواصل للتوضيح ولمنع أى التباس بين هويتنا وهوية الشيوعية . . إن الفرق بين حركتنا وبين الشيوعية هو الفرق بين ماهو وطنى وماهو غريب ، بين ماهو طبيعى

وماهو مصطنع ، خاصة إذا عرفنا أن ظروف البلاد العربية وأوضاعها ونفسيتها فى هذه المرحلة التاريخية هى جد مختلفة وبعيدة عن ظروف البلدان الأوربية المهيأة اقتصاديا وسياسيا وحضاريا لأن تكون الشيوعية فيها أكثر من حركة غريبة توجهها سياسة دولة أجنبية . .

قد تقف الشيوعية من قضايانا ، فى بعض الأحيان ، مواقف وطنية ، ولكن هذا لاينفى عنها غربتها ، ولايكون أكثر من التقاء عارض فى المصلحة ، لا فى النظرة والشعور، لذلك ، فهى فى أحيان أخرى تتراجع عن هذه المواقف ، أو تناقضها بسهولة لايقدر عليها ولايعقل أن يقدم عليها من ربط مصيره بشعبه واستوحى أفكاره وخططه من حاجات الشعب ومصلحته التى لايمكن أن تتبدل أوتتناقض بين حين وآخر . .

إن العرب لايستطيعون أن يعتنقوا الفلسفة الشيوعية ونظرتها إلى الإنسان دون أن يتخلوا عن أثمن شىء فى إنسانيتهم[٢٦] . . » .

لقد كتب ميشيل عفلق رأيه هذا فى الشيوعية سنة ١٩٥٦م . . بعد أن عدل حزب البعث موقفه من الأحزاب الشيوعية العربية منذ سنة ١٩٥٣م . . عندما بدأت هذه الأحزاب « تدرك أنها تخلفت كثيرا عن ركب التطور، وبالغت فى التبعية والولاء الخارجى ، واكتفت بترديد الفكر الثورى العالمى ترديدا حرفيا جامدا ، فكانت بذلك عاجزة عن تقديم شىء جديد للثورة العربية . وهى الآن ، كأحزاب وأفراد، تفتش عن مكان مستقر لها فى الوطن الذى تعيش فيه . . فهى أمام عملية اندماج وطنى . . وهذا شىء نرحب به ونستبشر! . . »[٢٧] .

---

(٢٦) المصدر السابق : جـ٤ ، ص ٣١٨,٣١٥ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٥٥ ـ «موقفنا السياسى من الشيوعية» ـ يناير ، ١٩٥٦م ـ.

(٢٧) المصدر السابق : جـ٢ ، ص ٣٤٢ ـ «٥ حزيران وفرصة العمل التاريخى» ـ نوفمبر ، سنة ١٩٦٧م ـ .

فرأى ميشيل عفلق فى الشيوعية كنقيض لأثمن شىء فى إنسانية الأمة العربية، قد ظل ثابتا حتى بعد أن تغير موقف الحزب من العلاقة مع الأحزاب الشيوعية العربية، التى أخذت - برأيه - فى البحث عن « مستقر لها فى الوطن الذى تعيش فيه »! . .

وفى مناسبة أخرى . . يعرض، ميشيل عفلق لنشأة البعث، فيرى هذه النشأة لهذا الحزب - فى الملابسات التى حدثت فيها - موقف رفض للشيوعية وأحزابها! . .

«إن هذا الحزب ظهر فى زمن معين، فى مكان معين . وظهر فى وقت كانت فيه الشيوعية ترشح نفسها، كحركة ثورية وحيدة فى العالم، وفى البلاد العربية أيضا . ومن البديهى أن أمة تعيش فى مرحلة ثورية لايمكن أن تنحاز أو تتبع الحركات الوطنية التقليدية . . أو الحركات الدينية أو الحركات الإقليمية المصطنعة . . ذات التفكير السقيم المتخلف . . الذى ينكر المشكلة الاجتماعية ويتجاهلها عمدا وتآمرا منه على مستقبل الأمة . فكان من الطبيعى إذن أن تلقى الشيوعية التأييد وأن تعتبر المنقذ ما لم يظهر من أعماق الأمة العربية ومن صميم روحها ومصلحة شعبها والطبقات المحرومة منها . . الحركة التى تعبر عن الحاجات الثورية الجديدة، وتواجه الحركة الشيوعية بما يحفظ للأمة العربية شخصيتها وتوازنها ومستقبلها الحضارى، إذ لاحضارة مع التقليد والتبعية . . كان ظهور الحزب إذن، بحد ذاته تحديد موقف من الشيوعية، موقف الرفض! . . »[28] .

فظهور البعث، كمشروع نهضة حضارية هو بحد ذاته رفض للشيوعية، لأنها مشروع تبعية . . «ولاحضارة مع التقليد والتبعية»!! . .

---

(٢٨) المصدر السابق: جـ ٤، ص ٣٧١ - «البعث تعبير عن أفكار الجيل العربى الجديد» -١٢-١٠-١٩٦٣م- .

ولم يحدث فى يـوم من الأيـام ، خـلال الحقبـة الطويلـة التـى قـامت فيهـا عـلاقـات وتحالفـات وجبهـات بين البعث وعـدد مـن الأحـزاب الشيـوعيـة العربية . . لم يحدث أن غابت عن بصيرة ميشيـل عفلق المثالب والثغرات التى لأجلها تميز رفضه للماركسية بالثبات . . إنـه يتحدث عن «أن موقفنا اليوم من الماركسية والشيوعية لم يعد موقفا سلبيا . . يجب علينا أن نأخذ كل ما يفيدنا فى تخطيطنا للتحول الاشتراكى . . »[٢٩] . .

ومع ذلك ، فإنه عندما يعرض للحـديث عن الماركسية ، نراه يسلط الضوء على كل عوراتها . . فيقول :

«إن الماركسية فيهـا نواح خاطئـة وفيها نـواح سطحية . النواحـى السطحية مثلا : فهمها للدين ، فهو فهم سطحى . الخطأ مثلا ـ الخطأ الكبير ـ : إغفالها للقوميـة ، حقيقة القـومية . وأيضا : سطحيـة الفهم لـلأممية . . الفلسفـة التى قامت عليها الماركسيـة فيها تعصب ، فيها مبالغات ، فيها تـأكيد على جانب من الحقيقة يضخم كثيرا ، كما يضخـم أيضا الخطـأ الذى فى غيرها . وهذا يعنى أنها تفتقر إلى النزاهة العلميـة ، رغم ادعائها بالعلمية ، فهـى برغماتية ، بمعنى أنها تستهدف النجاح بصرف النظر عن الوسائل . . فتبتعد عن الموضوعية التى هى شرط المعرفة العلمية . . الفلسفة الماديـة ، التى بنيت عليها الماركسية ، فيها نواحـى الضعـف ، وفيهـا نواحى القـوة التى لاتنكـر . إنها أول محاولة فكـرية للنظر إلى التناقضات الاجتماعية بنظر واقعى وجدى بعيد عن الطوباوية . . أما تفـاصيـل هـذه الفلسفـة فإنها تنطـوى على تفسيرات متعسفـة وغير جـديـة ، وبخاصة إغفالها لأهمية النواحى الروحية فى حياة البشر[٣٠] . .

---

(٢٩) المصدر السابق : جـ ٤ ، ص٤٥٧ ـ «النضال ضد تشويه الحزب» ـ ١٨/ ١/ ١٩٦٦م .

(٣٠) المصدر السابق : جـ٥ ، ص٢٨٢ ، ٢٨٣ ـ «طموح البعث أن يكون حركة حضارية» ـ ٢/ ٨/ ١٩٨٠م .

إن الشيوعيـة ، التى تميـزت ببعض المزايـا ، لم تلب حـاجات الشعـوب إلى الحركة والاستقلال . . لقد جاءت كرد فعل على الأوضـاع الفاسدة التى كانت سائدة فى أوربا القرن التاسع عشر . . إنها لاتحمل الحل لمشاكلنا . . »(٣١) .

لقد ظل الرفض للماركسية قائما . . لكن مع هدوء فى الأسلوب! . .

وعندما يُسأل ميشيل عفلق ـ فى مدرسـة الإعداد الحزبى ـ سؤالا قد يوحى بأن هناك تناقضا فى موقفه من الماركسية . . وتكون صيغة السؤال :

« وردت عبـارة فى الكلمـة التـى ألقيتمــوهـا فى المؤتمر القطـرى السـورى الاستثنائى فى فبراير سنة ١٩٦٤ م هذا نصها : «أنا لست ضد الماركسية ، ولكن البعث هو: اشتراكية علمية زائد روح» . فهل لكم توضيح ذلك؟ » .

تأتى إجـابةميشيل عفلق ، على النحـو الذى يؤكد أنـه « ضد الماركسية» ، ولكن مع لطف فى التعبير! . . يقول :

«الحزب تميز عـن الماركسية ، ولكنه لم يعتبرها عـدوا . لقد وجدها نـاقصة ، وغير ملبية لحاجات الأمة العربية . وقد تصلح لأن تهتدى بها حركات أخرى فى بلدان أخرى . أما القول بأن اشتراكيتنا علمية ، فأنا قصدت ليس الاصطلاح ، وإنما المعنـى الحقيقـى للفظـة علميـة . . اصطلاح الاشتراكيـة العلمية محتكـر للماركسية ، ونحن نجادل الماركسية فى هذا ، ولانعترف لها بصحة هذا الادعاء ، بأن اشتراكيتها هى وحدها العلميـة . نحن بنينا اشتراكيتنا على أساس علمى ، ولم نكتف بالعلم ، لأن حركة البعـث ، كما قلت لكم ، من الأساس اعتبرت أن نصف الحقيقة ونصف الثورة هو التفاعـل مع الفكر العلمى ، ولكن الروح هى

---

(٣١) المصدر السـابق: جـ ٥ ، ص ٢٥٨ ـ «وحدة النضـال بين القوى التقدمية والثورية فى العالم الثالث» ـ ٢٨/ ٢/ ١٩٨٠م ـ

الأساس ، ولذلك قلت بأن اشتراكيتنا علمية وأيضا هى روح . أى قيم روحية وأخلاقية . . »[٣٢] .

فمع هدوء الأسلوب ، فى مرحلة التحالفات مع الأحزاب الشيوعية والنظم الشيوعية . . يبقى الوفاء للموقف الرافض لأساسيات الماركسية : المادية . . والطبقية . . واللاقومية . .

* * *

بل إننا لواجدون فى فكر ميشيل عفلق منذ بداية عقد السبعينيات إشارات شديدة الوضوح إلى ظاهرة التراجع والفشل والإحباط التى أصابت الفكر الماركسى وتطبيقاته فى البلاد التى اختارته منهاجا ـ فى الاتحاد السوفياتى والبلاد الاشتراكية ـ وهى الظاهرة التى وضحت وأحدثت زلزالها بعد إشارات ميشيل عفلق إليها بنحو من عشرين عاما!! . .

لقد تحدث فى سنة ١٩٧٠م ، عن «تزعزع الأسس الفكرية» للشيوعية ، على النحو الذى ينذر بتحول هذا « الشىء الذى سمى شيوعية إلى شىء من التاريخ»!! . . وأشار إلى «نسبية النظرية الشيوعية» ، ومن ثم «نسبية نظامها وتطبيقاتها» ، و«تجاوز الزمن لها» ـ ونبه إلى « الثورات الفكرية التى تصيب بالتصدع تلك المعتقدات التى كان يظن أنها أبدية وعلمية»!! . . وأكد على «ضياع فرصة تلك الثورات التى انحصرت فى النواحى المادية . . والتى ـ لذلك عجزت عن تحقيق التغيير النوعى فى الإنسان . . »!! . . ودعا حزب البعث للتأمل والاعتبار ! . .

---

(٣٢) المصدر السابق : جـ٣ ، ص١٠٤ ـ « روح الأمة وروح العصر » ـ ٩/ ٤/ ١٩٨٠م ـ.

تحدث ميشيل عفلق ، منذ بداية السبعينيات ، عن هذا «الزلزال» الذى أصاب الماركسية وتطبيقاتها، والذى هزّ العالم فى نهاية الثمانينات . . فقال : « . . إن الاتحاد السوفيتى يخطو كل يوم خطوة نحو التقرب أكثر فأكثر إلى الغرب، ويبتعد عن واقع المجتمعات المتخلفة، وهذا يعكس حقائق مهمة بالنسبة لمستقبلنا ، أين مصلحتنا؟ أين سنلاقى التجاوب ؟ ووحدة المصالح؟ ! . . » .

وهو، بذلك ، يشير إلى هذا النظام العالمى الجديد، الذى ولدته المتغيرات الدولية الحالية . . ويتساءل عن آثاره على مكانتنا وقضايانا ! . .

ويتحدث عن تراجع الماركسية . . وانهيار مصداقيتها . . فيقول : « . . . وفى الوقت الذى تتزعزع الأسس الفكرية التقليدية الشيوعية، بشكل ينذر بأن الشىء الذى سمى شيوعية منذ نصف قرن يصبح بعد ٢٠ أو ٣٠ سنة شيئا من التاريخ! فى هذا الوقت، تظهر فى الوطن العربى دعوات وبدع تحاول بعث الماركسية اللينينية بحرفيتها وحذافيرها، وكأنها كتاب منزل يحل لنا كل مشاكلنا! . . » .

ونحن لا نملك إلا الاعتراف بصدق النبوءة . . فبعد ٢٠ سنة من كتابة ميشيل عفلق لهذا الكلام، أصبح « الشىء الذى سمى شيوعية . . شيئا من التاريخ !! » .

ثم يمضى ميشيل عفلق للحديث عن رؤية صيغة المشروع البعثى، منذ البدء، لنسبية الشيوعية، كنظرية . . فيقول :

« . . لقد كان للحزب ، منذ بدايته نظرة ليست حدسية، كما يقولون ، وإنما ناتجة عن الدراسة والتتبع ، وقد توصل إلى إدراك « نسبية » الشيوعية

كنظريـة ، وبالتـالى كتطبيق ونظـام ، أى ليست هـى الشىء الـذى ليس فيـه خطأ ، وإنما كشـىء نسبى ، وأنها معـرضة لأن يتجاوزهـا الزمـن . . . إن العالم يشهـد تطـورات هـى أقـرب إلى أن تكون ثـورات فكـريـة . هـذا التصـدع فى المعتقدات التـى كانـت تظهر قبل عشريـن سنة أو أقل بـأنها معتقدات أبـدية وعلميـة . ولايتطـرق إليهـا الشـك ، أصبحـت اليـوم تعـانــى مـن التصــدع والتفكك . . » .

ثم يشير إلى تفجـر القوميات فى وجه الأممية الشيوعية السطحية ، كـدليل على صحة الصيغة البعثيـة القومية ، وخطأ الأمميـة الماركسية ، فيقول : « . . . وهنا نشير إلى ظهور الظـاهرة القومية ضمـن المعسكر الشيوعى . وهـذه تعطى لحزبنا تدعيما جديدا لأصالة تفكيره ! . . »(٣٣) .

لقد كتب ميشيل عفلق كل هذا فى سنة ١٩٧٠م . . !! ثم عاد فعرض لهذا الموضوع بعد سبع سنوات ، فأخذ يشير إلى بعـض من أسباب «ضياع الفرصة» على الثورات الشيوعية . . من مثل انحصارها فى الجانب المادى ، وإخفاقها فى التغيير النوعى للإنسان . . فكتب يقول :

«الثورات الاشتراكية التى حـدثت فى العالم من بـداية هذا القـرن ، واستمر بعضها حتى الآن فى أنظمة معروفة ، لم تحقق القفزة النوعية التى كان مأمولا منها أن تحققها . حققت تقدما اجتماعيا لبلدان وشعـوب كانت تعانى بنسب مختلفة مـن التخلف ، ولكنهـا لم تحقق التغيير النـوعى فى الإنســان ، لم يخلق الإنسـان الاشتراكى الجديد ، لم يتكون ، لم تنجح تجربتـه ، أو لم ينجح تكوينه . ومضى على هذه الثورات عدد كـاف من السنين ، عشرات السنين ، ولا يبقى عذر لأى

---

(٣٣) المصدر السابق : جـ ٥ ، ص ٤٦ ، ٤٧ ـ «حزب الثورة العربية» ـ مايو ، سنة ١٩٧٠م .

ثورة إذا هـى لم تجسد أفكارهـا الأساسيـة ، ولاتعطى خلال هـذه العشرات من السنين جوهر ثـوريتها . والواقع أن الفـرصة ضاعت على هـذه الثورات ، رغم القـوة التى بلغتهـا بعـض البلاد ، قـوة تكاد تنحصر فى النـواحـى المادية التـى لاتصمد للزمن ، أكثر منها فى تكوين الإنسان والمجتمع الاشتراكى .

إن هذه الثورات سبقتنا فى الزمن ، وكانت قد ورثت أيضا تراثا ثقافيا فكريا أغنى وأوسع مـن التراث الفكرى والسياسى الـذى فى حوزتنا . وكانت الثورة العربية ، بما فيهـا حزبنا ، تتطلع ، شاءت أم أبـت ، إلى الثورات الاشتراكية ، وتقتبس تارة عن وعى وتارة بدون شعور وبالتقليد .

إن أمام حزبنا وقفة . وقفة متأنية ومتعمقة يجب أن نطالب أنفسنا بها ، لكى نعـزز فى حزبنـا النهج الاستقـلالى ، والتفكير الأصيـل ، فنتعظ بما يجرى عنـد غيرنا ، ونتحرر ونتخلص من التقليد الذى دخل ، كما قلت ، على فصائل الثورة العربية بنسب مختلفة . . إننا مطالبـون بأن نعتبر بهذا التوقف أو التجميد الذى أصاب الثورات الاشتراكية ، والذى يجب أن نبحـث عن أسبابه . . ولكى نصر على استلهام الأصالـة فى تاريخنا وفى روح أمتنا ، ولكـى لانصل يوما إلى طـريق مسدود ! . . » (٣٤) .

لقد وصلت الثورات الشيـوعية إلى طريق مسدود ، عندما وقفـت ـ بالمنهج المادى ـ عند التغييرات المادية وحدها ، ففشلت فى التغيير النوعى للإنسان . . ولابد من وقفة تقفها فصائل الثورة العربية ، للعظة والاعتبار . . وللتحول أكثر فأكثـر إلى النهج الاستقـلالى ، والتفكير الأصيل ، الـذى يستلهـم الأصـالة فى تاريخنا وروح أمتنا . . .

---

(٣٤) المصـدر السابـق : جـ٥ ، ص ٥٩ ، ٧٠ ــ «الحزب تسوده روح الأسرة الـواحـدة» ـ ١٥/ ٩/ ١٩٧٧م ـ .

هكذا رأى ميشيل عفلق الماركسية والشيوعية ، وامتداداتها فى واقع أمتنا العربية . . رآهما : خصوصية غربية ، زعمت لنفسها العلمية والأبدية والعموم والإطلاق . . وامتدادا غربيا فى الواقع العربى ، يقود إلى التبعية ، وينفى الاستقلال ، الذى لايتحقق جوهره إلا إذا كان استقلالا حضاريا . . إذ « لا حضارة مع التبعية »!! . .

ولقد كتب ميشيل عفلق هذا الذى كتب عن غروب شمس الشيوعية الغربية . . وعن ضرورة دعم الموقف والمنهج الاستقلالى ، الذى يستلهم أصالة الأمة وروحها . . كتب ذلك فى ذات الوقت الذى كانت تتسع فى مشروعه الفكرى مساحة الحديث عن مرجعية الإسلام لهذا المشروع . فى حقبة السبعينيات!! . .

* * *

العلمانية الغربية

إن الموقف من «العلمانية» ، فى المشروع الفكرى لميشيل عفلق . . وفى فكر حزب البعث وممارساته ، يستحق التأمل والتدقيق ، وخاصة إذا كان المقام هو علاقة هذا الموقف بالإسلام ، ومدى الوفاق والخلاف بينه وبين الاحتكام إلى مرجعية الإسلام . . بل إننا لانغالى إذا قلنا **إن الموقف من « العلمانية » ، فى المشروع البعثى هو المعيار لمدى القرب أو البعد لهذا المشروع من مرجعية الإسلام فيه ، كمنهاج شامل لكامل المشروع الحضارى . .**

وبادئ ذى بدء ، فإن العلمانية تعنى عدم الالتزام بحاكمية الدين . . أى نفى إلزام والتزام المرجعية الدينية ، السماوية ، ذات المصدر الإلهى ، وأن يستبدل بها المرجعية البشرية الوضعية . . ذلك هو المعنى العام والفضفاض للعلمانية . .

نقول المعنى العام والفضفاض ، لأن العلمانية ، بناء على هذا الفهم ، أنواع ودرجات . .

● فهناك العلمانيـة ، التى يطمـح أصحابها إلى نفـى مرجعيـة الديـن ، كل الدين ، فى جميـع الشئون البشرية ، على مستوى الاعتقاد الفـردى ، والعلاقات السيـاسية والاجتماعيـة والاقتصـادية وشئـون العلم والتعليـم والثقـافة والقيـم والسلوك ، وتنظيم الدولة ، والعلاقات الدولية . . هنا تغدو العلمانية دعوة لنفى الدين واستدعاء المناهج الوضعية والمادية والإلحادية بديلا عنه . .

وأشهر الدعوات التـى دعت إلى هذا المستوى من العلمانية ، هـى الدعوات الماركسية والشيوعية والدول التى تبنـت المادية الماركسية والإلحاد الشيوعى سبيلا ومنهاجا . .

وهذا اللون من العلمانية قد رفضه ميشيل عفلق وحزب البعث ، عندما دعا مشروعه النهضـوى إلى الإيمان الدينـى ، وإلى مرجعيـة الإسلام كعقيـدة دينية ، وكثورة اجتماعية ، وروحية ، وأخلاقية ، ورسالة إنسانية خالدة ، وسياج لحماية تماسك الأمة ووحدتها ، وجوهر للمكونات التى تكونت منها القومية العربية . . رفض ميشيل عفلق علمانية المادية والإلحاد ، تلك التى تريد تجريد القومية والأمة العربيـة من المنـابع الروحيـة والأخلاقية المتمثلـة فى الإسلام : الثـورة والحضارة والروحانية والتراث . وسماها « العلمانية المستوردة» من الغرب . . ورأى فيها أحد الامتدادات ، المشبوهة ، التى غزتنـا بها الحضارة الغربية ، فى صراعها الفكرى والحضارى مع أمتنا العربية وحضارتنا الإسلامية . .

ذلك موقف واضح فى المشروع البعثى ، لا لبس فيه ولا غموض . .

●وهناك العلمانية ، التى تنفى الالتزام والإلزام بمرجعية الدين فى قطاع بعينه

من قطاعات الدولة وميدان بذاته من ميادين العمران الاجتماعى . . فتستدعى الديـن حينا ، وترفض التـزامه حينا آخر . . وهـذا اللون من العلمانية هـو الذى قبل به ميشيل عفلق ، واشتهر به حزب البعث فى التطبيقات والممارسات . .

فالمشروع البعثى ، كما أسلفنا ، وكما سيأتـى الحديث عنه ــ وهو بالـدرجة الأولى : مشروع حزب قومى ـ يرفض تجريد القـومية العربية من الإسلام . . بل يراهـا ثمرة لـه ، ويراه الأب الحقيقى لها . . كما يـرى فى تراثـه الثورى والـروحى والأخلاقى المنابع التى غذت هذه القومية بخصائصها التى ميزتها عن غيرها من القوميـات . . منابـع « الإطلاق والخلـود والإنسانيـة» ، التى وسمـت قوميتنـا بالإنسـانية وبقدر مـن الإطلاق والخلود . . كما يـرى فى تراث الإسلام الـروحى والأخلاقـى المنابـع التى يجب أن يـرتوى منهـا الحزب والأمة فى التربيـة القوميـة والسلوك النضالى والممارسات الحياتية . .

هنا . وفى هذه الميادين ، يستدعـى المشروع البعثى الإسلام ، فيجعله المرجع . . وينفـى العلمانية ــ عن هـذه الميادين ــ . . بل ويهاجـم الذيـن يريـدون استدعاءها ، بدلا من الإسلام ، فى هذه المجالات . .

أما عنـدما يكـون الأمر خـاصا بـدستور الـدولة ، التـى يريـدها البعـث ، وبقوانين دولـة القوميـة العربيـة ، فهنا يصبـح المشروع البعثى ــ فى فكر عفلـق وممارسات الحزب ـ مشروعا علمانيا . . « ففى النصوص الدستورية والقانونية . . وفى التطبيقات القانونية والدستوريـة» ، يسلـم البعث بالعلمانية ، ويقبل بها . . ولا يستدعى حاكمية الإسلام ، كشريعة ، فى دستور الدولة وقوانينها . .

إنه يتبنى مرجعية الإسلام ، كعقيدة ، ضد الإلحاد والمادية . . ويتبنى مرجعية الإسـلام ، كثورة ، وحضـارة ، وتراث روحـى وأخـلاقى ، كـان ولايزال المنبـع والملهم والمكون الأول لقـومية الأمة وثقافتها ووحدتها ونهضتهـا . . لكنه لايتبنى

مرجعية الإسلام كشريعة حاكمة فى ميدان دستور الدولة وقانونها . . فهو يأخذ الإسلام عقيدة وثورة وقيما . . ويتخلى عنه كشريعة وقانون ! . .

تلك هى حقيقة موقف المشروع البعثى من العلمانية . . وذلك هو مستوى التزامه بمرجعية الإسلام . .

وهى الحقيقة التى سنقدم عليها البراهين من نصوص ميشيل عفلق ، متتبعين تسلسلها التاريخى ، منذ أن بدأ يطرق هذا الميدان سنة ١٩٥٠م . . وحتى خطابه الأخير ـ عام وفاته ـ سنة ١٩٨٩م . .

* * *

● فى سنة ١٩٥٠م . . عرض ميشيل عفلق لقضية علاقة الدين بالدولة ، وكانت المناسبة الحوار الدائر حول هذا الأمر ، إبان وضع دستور جديد لسورية . . فرفض وجهة النظر الداعية لما أسماه «مزج الدين بالدولة» ، وتلك هى الصيغة التى يطلقها ذوو الثقافة الغربية على دعاة حاكمية الدين فى الدستور والقانون . . لأنهم يقيسون الأمور على تجربة الدولة الدينية فى العصور الوسطى الأوربية . . رفض ميشيل عفلق وجهة النظر هذه . . لكنه رفض ، أيضا ، وجهة النظر التى تريد تعميم استبعاد الدين كمرجع يحدد طبيعة علاقة الأمة بماضيها وبمستقبلها . . الدين ، باعتباره « الأسس الروحية والحقوقية التى تقوم عليها القومية العربية» . .

فهو يرفض علاقة الدين بالدولة ، كمرجعية حاكمة فى دستور الدولة وقانونها . . لكنه ينبه على ضرورة مرجعيته فى الدائرة الأوسع من دائرة الدستور والقانون . . دائرة القومية والمشروع الحضارى ، كتراث مكون للماضى وفاعل فى المستقبل . .

«إن علاقة الدين بالدولة ـ التى تثار الآن فى سوريا ، بمناسبة وضع الدستور الجديد ، هى من أهم القضايا القومية ، لا كما يريد البعض أن يصورها بأنها مسألة تافهة . فهذه القضية تشمل شيئا أوسع من علاقة الدين بالدولة ، وهو علاقة الأمة بماضيها ، وموقفها من مستقبلها ، كما أنها تعنى الأسس الروحية والحقوقية التى تقوم عليها القومية العربية فى المستقبل . أما الذين يقللون من شأن هذه القضية ، فالمرجح أنهم يقصدون فساد الأسس التى يبنى عليها دعاة مزج الدين بالدولة نظريتهم ، وفساد الأساليب التى يلجئون إليها لدعم هذه النظرية ، وسوء النوايا والأغراض السياسية والاجتماعية التى تحرك بعض المتزعمين لهذا الموقف ، أو بعض المناوئين له ! . . »[٣٥] .

فهو يهاجم دعاة حاكمية الدين فى الدستور ـ أى إقامة العلاقة بين الدين «والدولة» ـ التى يسميها : «مزج الدين بالدولة» . . وفى ذات الوقت يرفض وجهة النظر التى تحصر الدين ـ وجودا أو غيابا ـ فى إطار « الدولة» ، ويرى له مرجعية ضرورية فى قومية الأمة ، التى هى ـ بنظر البعث ـ جماع مشروعها الحضارى المعاصر . .

ثم يزيد هذه الفكرة تحديدا وتفصيلا ، عندما يقول : «إن الدولة العربية التى يعمل لها البعث العربى . . هى نقيض الإلحاد والفساد وكل ماهو سلبى هدام . وعلمانية الدولة ، بهذا المعنى ، ليست إلا إمعانا فى الحرص على اتجاهها الروحى والأخلاقى ، لأنها ليست إلا إنقاذا للروح من شوائب الضغط والقسر ووضع العراقيل المصطنعة أمام يقظة الروح واستقلال الخلق وانطلاق النشاط فى نفس كل عربى . وما دام الدين منبعا فياضا للروح ، فالعلمانية التى نطلبها

---

(٣٥) المصدر السابق : جـ١ ، ص١٦٩ ـ «العرب بين ماضيهم ومستقبلهم» . ـ ١٩٥٠م ـ .

للدولة هى التى ، بتحريرها الدين من ظروف السياسة وملابساتها ، تسمح له بأن ينطلق فى مجاله الحر فى حياة الأفراد والمجتمع ، وبأن تبعث فيه روحه العميقة الأصيلة ، التى هى شرط من شروط بعث الأمة . . »[٣٦] .

إنه يتصور : «دولة» . . و«أمة» . . فيدعو إلى علمانية «الدولة» . . وإلى روحية «الأمة» . . يريد ــ حسب تعبيره ــ «تحرير» الدين من السياسة وملابساتها ، وإعماله فى الأمة ، كشرط من شروط بعثها ! ! . . إنه لايستدعى كامل الإسلام ـ العقيدة ، والشريعة ، والقيم ، والحضارة ــ إلى كامل الدولة والأمة . . وإنما يسقط من مرجعية الدين شريعته فى المعاملات وقانونها . . ويسقط من مجال عمل الدين فى الحياة الإنسانية الدولة ، كدستور وقانون ! . .

هذا هو موقف البعث ، الذى رفضه ويرفضه ـ بالطبع ـ كل الإسلاميين ، الملتزمين بكل الإسلام ، مرجعا لكل مناحى حياة الإنسان . .

● وفى سنة ١٩٦٠م . . يعرض ميشيل عفلق لذات القضية ، فيكرر ذات المعنى ، ويقول عن رأى البعث فى هذا الموضوع . . موضوع العلمانية . . وأصنافها . . وما يقبله البعث منها ومايرفضه ، يقول :

« . . وكان ثمة مفهوم آخر رائج ـ [للقومية] ـ مفهوم مجرد ، مستعار هو أيضا من الخارج ، يحصر القومية فى اتفاق المصلحة ، وفى الذكريات الماضية والآلام والآمال . . فكان هذا جوابا جافا لايروى ظمأ الشعب العربى إلى مايحرك فيه طاقات دفينة . وكانت الخطوط التى رسمناها لقوميتنا العربية لا تكتفى بالروابط الحقوقية بين الأفراد ، وإنما تجعل فى وجود الأمة رسالة تاريخية وأمانة فى عنقها تحيا حياتها وتجربتها بصدق ، وتخلص للقيم والعقل ، وتقدم

---

(٣٦) المصدر السابق : جـ ١ ، ص ١٩١ ، ١٩٢ ـ «معالم القومية التقدمية» ـ ١٩٦٠م ـ .

خير ماعنـدها . وهذا ماجعلنـا نرجع إلى تـراثنا الحضارى التاريخى وننظـر إليه نظرة جديدة . . ففى حياة العرب تجربة ضخمة ورسالة سامية . وكان التفكير السطحى قبل ظهور حركتنا يوحى أو يوهم بوجود التضاد بين القومية وبين هذا التراث الروحـى بحجة الحرص على العلمانية ، ولكـن وجدنـا أن لاتعارض بين العلمانيـة وبين الاعتراف بما يغـذى روح حضـارتنا مـن تجارب مـاضـى شعبنـا الغنية ، فكانت هذه النظرة الجديدة إلى تراثنـا القومى نظرة حية واقعية عميقة ، أرجعت إلى نفوس الشباب الاستقرار الذى فقدوه زمنـا ، وصالحتهم مع ماضى أمتهم دون أن تجمدهم فى هذا الماضى . . » .

فهو هنا يعبر عن الإسلام بمصطلحات « تجارب الماضى الغنية » ، و«التراث الروحى » ، و«التراث الحضارى » ، و«التراث القومـى »! . . ويسلم بالعلمانية ، التى لا يرى تعارضًا بينها وبين «تغذية روح حضارتنا» بهذا التراث .

● ومنذ حقبـة السبعينيات ، التـى تزايد فيهـا حديـث ميشيل عفلـق عن الموقف الإيجابى من الدين ، وعـن مرجعية الإسلام للمشروع الحضارى ، وعن أبوته للقومية . . والتى زاد فيها استخدامـه لمصطلح ، الإسلام ـ صراحة ـ بعد أن كان يـواريه خلف مصطلـح «التراث» . . وبعد ما تعدلـت ـ فى كتابـاته ـ موازيـن العلاقة بين «القوميـة ـ العروبـة» وبين «الإسلا م» ، فأخذ يـؤكد على أولوية الإسلام ، الذى ولدت منه العروبة ولادة جديدة ـ على نحو ما سنفصل حـديثه فى الفصـل القادم ـــ . . منذ حقبـة السبعينيات ، التـى شهدت هـذا التطور فى فكر ميشيل عفلق ، أخذت الأسئلة تنهال عليه ، من أعضاء الحزب وخـاصة عقـب محاضراتـه فى مدارس الإعـداد الحزبـى ـ مستفسريـن عما رأوه تناقضا بين هذا الموقف الإيجابى من الدين وبين علمانية الحزب ، التى هى واقع معيش ومتعارف عليه ، وليس عليه ـ فى صفوف الحزب أو خارجه ـ خلاف . .

حتى لقد جاءت أحاديث عفلق عن العلمانية، منذ هذه الحقبة، أساسا فى شكل إجابات عن هذه الأسئلة والاستفسارات! . .

ففى سنة ١٩٧٦م . . سئل ميشيل عفلق، فى مدرسة الإعداد الحزبى -:

« كيف توفق بين الموقف الإيجابى من الدين وعلمانية البعث »؟! . .

والسؤال هنا يوحى بأن علمانية البعث أمر مقرر - وهى كذلك - . . والتساؤل عن اتساق هذه العلمانية مع «الموقف الإيجابى من الدين»!! . . ولقد كان جواب ميشيل عفلق بما يلى :

« . . كلمة صغيرة عن العلمانية ، وكيف واجهها البعث .

فى تراث الحزب إشارة إلى ذلك ، قد لاتكون وافية ، ولكنها أكيدة ، ولاتحتاج إلا إلى توسيع وتفصيل .

عند ظهور الحزب، كانت هناك دعوات واتجاهات قومية تقول بالعلمانية، وتعتبر بأن القومى العربى هو الذى يتجرد من معتقداته الدينية، ويلتقى مع أخيه العربى على صعيد القومية العربية الحقوقية والرابطة الوطنية، وكان لهذا المذهب رواج كبير بين الشبيبة المثقفة ، ولكننا لم نستسغه ولم ننخدع به، واعتبرناه، فى أحسن الحالات والتفسيرات، سطحيا وجامدا وغير معبر عن الروابط العميقة التى تربط العربى بقوميته، وكان من الجائز الاشتباه بهذه الدعوة، لأن المستعمر الأجنبى الغربى الذى كان يحتل أقطارنا لم يكن يخفى ارتياحه لهذه العلمانية، بل كان يشجعها، لأن ذلك كان يؤدى إلى إفقار قوميتنا من دمها ومن نُسْغ الحياة [٣٧] فيها ، من أصالتها ، من روحها ، لذلك كان من أول ما تصدى له حزبنا فى بدايته هو هذه القومية المجردة .

---

(٣٧) النسغ - بضم النون وسكون السين - : السائل الغذائى الذى يمثل مصدر الحياة للكائن الحى، عندما تمتصه عروقه فيجرى فيها .

أذكركم ببعض الكلمات التى كانت تشير إلى ذلك . . فهناك إشارة فى كراس «ذكرى الرسول» إلى القومية التى تأتينا من الغرب على النمط الأوربى ، ونشير إلى الفارق بين قوميتنا وبين القوميات الغربية ، وإلى أن الإسلام هو تاريخنا ، وهو بطولاتنا ، وهو لغتنا وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون ، وأشياء كثيرة يصعب حصرها وتعدادها . فما الذى يضطرنا ، لكى نكون قوميين سليمى الانتماء ، أن نطرح كل هذا من حياتنا ونضعه على الهامش ؟! فإذن نحن ذهبنا ، بكل بساطة وصراحة ، إلى واقعنا الحى ، ماهو واقعنا؟ هو العلاقة العضوية بين العروبة والإسلام .

أما العلمانية ، بمعنى أن الدستور والقوانين لاتميز مذهبا على آخر فى القبول للوظائف أو فى كذا وكذا ، هذه أمور بسيطة ، ونسلم بها ، ونحن نمشى مع هذا العصر ، ولانجادل فى ذلك إذا كانت المسألة مسألة نصوص دستورية وقانونية . ولكن البعث وضع الأمور فى نصابها ، عندما وضع الإسلام ، كثورة أخلاقية وفكرية واجتماعية حاسمة فى تاريخ البشر ، وضعها فى صلب القومية العربية . بهذا المعنى لايوجد عربى غير مسلم ، هذا إذا كان العربى صادق العروبة ، وإذا كان متجردا من الأهواء ومتجردا من المصالح الذاتية . العروبة تعنى الإسلام بهذا المعنى الرفيع الذى لاتعصب فيه ولاتمييز ولا أى شىء سلبى . .

فإذن ، لم يكن ممكنا لنظرة كنظرة البعث ، أن تؤخذ بخرافة العلمانية وسطحيتها ، وإن كنا لانجادل فى الحدود والتطبيقات القانونية والدستورية لما يفهم من العلمانية . ولكن العلمانية ، كإهمال وبتر لأهم شىء فى قوميتنا وفى تاريخنا وفى تكويننا النفسى والعقلى ، هذا شىء غير مقبول ، وغير واقعى ، وقد

سقط منذ أن ظهر حزب البعث، ولم يعد لتلك النظرة قيمة كبيرة . . »[٣٨] .

فعلمانية الدستور والقوانين مقبولة ولا جدال فيها . . أما علمانية القومية، بتجريدها من الإسلام ـ الذى هو فى صلبها ـ فتلك خرافة وسطحية، رفضها ويرفضها البعث دونما جدال ! . .

وفى ذات العام ـ عام ١٩٧٦ م ـ . . وعقب محاضرة أخرى فى مدرسة الإعداد الحزبى . . سئل ميشيل عفلق، مرة ثانية :

«يُرْجَى توضيح مفهوم العلمانية» . . فكان جوابه، الذى فصل فيه الحديث، كما لم يفصله فى مناسبة أخرى، عندما قال :

«كان هناك، عند ظهور الحزب، مفهوم سائد للعلمانية، اعتبرناه مفهوما سطحيا، غير متجاوب مع روح الأمة وطموحها الحضارى . . والحزب منذ بداية إعلانه عن فكرته، حاول تصحيح هذا المفهوم .

العلمانية، بمفهومها الذى كان رائجا فى ذلك الحين، أى فى بداية الأربعينيات، سواء فى الأوساط الثقافية المتأثرة بالثقافة الغربية، أو فى الأوساط المتأثرة بالماركسية . العلمانية، فى ادعائهم، تعنى : التحرر من الدين، الإهمال لكل ما له علاقة بالدين والتراث، لكى يلتقى المواطنون على صعيد واحد أمام المفهوم القومى، أو أمام القومية أو الوطنية . وهذا كان تبريره : تعدد المذاهب والأديان فى وطننا العربى وفى بعض أقطاره، وأقطار المشرق بصورة خاصة . . فكنا ضدهذه النظرة . لماذا ؟

---

(٣٨) [فى سبيل البعث] : جـ ٣، ص ٣٣ ـ ٣٥ ـ «أصالة الأمة قوة نضالية متجددة» ـ ١٩ / ١ / ١٩٧٦م ـ .

نحن انطلقنا من تصور حي لواقع الأمة العربية، الأمة لها ماض . . لها تراث ضخم، هو أثمن شيء في حياتها، وهو داخل في حاضرها، مؤثر إذن في تربيتها . . في تكوين شخصيتها . . في عواطفها وأفكارها في آمالها وتطلعاتها . وعندما نقول للعربي : تجرد من كل ذلك حتى تصبح عربيا، كأننا حكمنا عليه بالموت أو بما يشبه الموت! ، إذ مايبقى من العربي عندما يتجرد من تراثه؟! .

الحزب ، كما تعرفون، بدأ بنظرة جديدة إلى التراث، هي من أهم أفكار الحزب . . أنا أقولها بصراحة، فيما يخصني . خلاصة أفكاري وضعتها في تلك الكلمة : (ذكرى الرسول العربي) . . لأن القومية العربية ليست هكذا مجردة، مجرد انتماء مواطنين في وطن ، لهم حقوق وعليهم واجبات ، يشتركون في مصالح وعواطف . . نحن إذا دققنا في العواطف، سنجد بأن جماهير شعبنا لها عواطف نحو هذا التراث، الذي هو شيء حي في حياتها . . وليس تاريخا تقرؤه، وإنما تمارسه وتحياه . عقيدتها الدينية هي هذا التراث الضخم . . عندما نقول : «أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة»، أي رسالة هي ؟ ماذا أعطى العرب أعظم من هذه الرسالة؟ ماذا يقدمون عندما تتبارى الأمم؟

الفرق، هو أن حزبنا لم يكن مثل التقليديين الجامدين الذين كانوا يتوهمون بأن تكرار قراءة التراث والتغني به تجيء للعرب بالتقدم مجانا . . كهبة جاهزة . . هكذا . في كتابات الحزب . . انطلقنا من النظرة بأن التراث لانفهمه إلا عندما نناضل ، لانستحقه إلا عندما نعمل الثورة العربية . . التراث يبقى أصم جامدا وبلا معنى إذا لم نرتق في نضالنا وبثورتنا، ونتجدد ونقطع المراحل النضالية والثورية التي لابد منها لنهوض أي شعب ، عندها تحل أسرار التراث، ويصبح مفهوما، ويصبح متفاعلا مع حياتنا، ونصبح مجددين لهذا التراث ومتابعين لقيمه ومعانيه .

فالعلمانية التى تعنى شطب وإلغاء كل هذا الجانب . . مرفوضة ، وهى سطحية ، وأحيانا مشبوهة . . عندما تكون كذلك . . لكن نظرتنا هذه إلى التراث تمنعنا من القول بأن المواطنين جميعا ، فى الدولة العربية المقبلة ، متساوون فى الحقوق والواجبات ، لاتفريق فى المذهب بين فئة وأخرى . هذا شىء . . وإعطاء التراث حقه ، وهو أضخم شطر فى حياتنا الفكرية والعاطفية من تاريخنا ومن حاضرنا ، وبالتالى من مستقبلنا هذا شىء آخر .

فى الناحية التى نحن بصددها ، كان هناك شعار سائد : الدين لله والوطن للجميع . . وكان هذا شعارًا تقدميا ، استطاع أن يوحد فئات الشعب وطوائفه فى وجه المحتل الأجنبى ، استطاع أن يحقق نوعا من الوحدة الوطنية . التجديد الذى عمله الحزب ، يمكن تسميته ارتقاء من منطق التطور إلى منطق الثورة والانقلاب . . الارتقاء من مفهوم الوطنية إلى مفهوم القومية . الشعار الذى كان وليد المرحلة السابقة أوجد وحدة على السطح وترك الخلافات فى الباطن وفى الأعماق . . أوجد وحدة فى الوعى الوطنى المحدود والسطحى ، وأبقى الخلافات فى جزء كبير من العواطف والارتباطات والولاءات النفسية والفكرية . أوجد وحدة وطنية وترك المجال واسعا لتشتت وانقسام حضارى ، أوجد جبهة شكلية وسطحية فى وجه الاستعمار ، وترك مجالات عديدة لأكثر من جهة أجنبية لكى تفسد البنية الداخلية لكيان الأمة والمجتمع . لذلك ، فإن هذا المفهوم للعلمانية ، الذى كان فى وقت ما خطوة تقدمية ، أمسى عامل تشويه وخنق لانطلاقة الأمة على المستوى الحضارى والإنسانى . وبكلمة مختصرة ، كان ذلك المفهوم يسىء من ناحيتين :

الأولى : أنه بحجة التقاء جميع فئات وطوائف الشعب على صعيد الوطنية ، كان يطلب من الأكثرية الساحقة من الجماهير العربية ـ وهى مسلمة ـ أن تنسى

أو تغفل التراث القومى . . أو على الأقل لايكون لقاؤها به لقاء صريحا مطلوبا وحارا ، وإنما لقاء له طابع الشىء الخاص الفئوى المتهم بالتعصب ، بدلا من أن يكون الغذاء الروحى والفكرى والنضالى للأمة كلها . .

الثانية : حرمان الطوائف الأخرى ، من غير المسلمين ، من التراث العربى ، الذى هو تراثها ، وبالتالى إبعادها عن تحقيق شخصيتها الكاملة ، وتركها فريسة للأيدى والتوجيهات الأجنبية . . ولشتى التيارات التى تستلب جزءا من شخصيتها . وترك الفجوة بينها وبين القسم الآخر والأكبر من بنى قومها وشعبها تتسع مع الزمن لتصل أحيانا إلى التناقض .

فتفكير الحزب تناول المسألة القومية من الجذور التاريخية والفكرية والنفسية ، واعتبر أن للعرب جميعا تراثا قوميا واحدا يشتركون فيه ، بصرف النظر عن العقيدة الدينية ، وإن كان هذا التراث هو، أيضا ، عقيدة بالنسبة للأكثرية .

وعندما قلنا بأن ذلك المفهوم للعلمانية كان فى بعض الأحيان مشبوها ، كنا نقصد أن بعض المروجين له كانوا من الاستعماريين أو أدوات الاستعمار ، ويريدون من ورائه ليس لقاء الجميع على صعيد الوطنية ، كما كان الادعاء ، بل نسيان الأمة لتراثها ، يقابل هذا النسيان ترويج وتعميم للثقافة الغربية والحضارة الغربية . أى أنه كان هناك عملية احتيال ! ! . . »[٣٩] .

ففى هذه الإجابة المسهبة ، التى قدمها ميشيل عفلق لتوضيح مفهوم العلمانية ، ركز على رفض وإدانة مفهومها الذى يجرد القومية وروابط وحدة الأمة ومقومات نهضتها ومشروعها الحضارى من التراث القومى ، الذى هو

---

(٣٩) المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ٤٢ ـ ٤٥ ـ «نفهم التراث بالفكر الثورى والمعاناة النضالية» ـ ٢ / ٤ / ١٩٧٦م ـ .

الإسلام بما فيه عقيدته الدينية . . واعتبر هذا المفهوم ، الذى كان يتبناه المتأثرون بالثقافة الغربية ، ، الليبراليون منهم والماركسيون ، اعتبره مفهوما سطحيا . . بل ومشبوهـا ، لأنه يجرد قـومية الأمة مـن المكون الحقيقى لـوحدتها . . الـذى هو عقيدة وتـراث لم الأغلبية ، وتـراث الأقلية . . وذلك لحسـاب ترويـج وتعميم الثقافة الغربية والحضارة الغربية ! . .

وفى سنة ١٩٨٠م . . يتوجه عدد من البعثيين السودانيين إلى ميشيل عفلق أثناء لقائهم به ـ بذات السؤال :

«كيف نوفق بين علمانية البعث ونظرته الإيجابية للدين ؟ ! » . .

وعن هذا السؤال يجيب ميشيل عفلـق إجابة مسهبة ، لاتخرج عن الأفكار التى قدمها فى النـص السابق الذى أوردناه . . إجابـة يشير فيها إلى عدة أفكار محورية . . من مثل :

● إنـه لاتناقـض بين علمانية البعـث وبين موقفـه الإيجابى مـن الديـن . . فالعلمانية للدولة والقانون الذى يسوى بين المواطنين . . والدين ـ كتراث روحى لوحدة الأمة وتغذية روحها الحضارى . .

● إن الدين حاجة إنسانية خـالدة ، حتى وإن تجددت أشكال التدين . . وتلك حقيقة قد تحدى بها البعث الإرهاب الفكرى للمادية الماركسية . .

● إن مهمة البعث قوميـة ، وليست دينية ، تعنى بشئون الآخرة ، أو بـإقامة دولة دينيـة . . فتدين الحضارة ، بتغـذيتها من تـراثها وعقيدتها لايستلزم تـدين الدولة ، بدستورها وقانونها . . فمرجعية الدين فى القومية تجعله يحقق الانسجام فى تكوين الأمة ، وعلمانية الدولـة تحقق المساواة لمواطنيها على اختلاف العقائد والمذاهب الدينية . .

حـول هذه القضـايا والمعـانى ، تحدث ميشيـل عفلق عـن رأيه فى اتسـاق علمانية البعث مع نظرته الإيجابية للدين ، فقال :

« . . علينا أن نتعمق لنرى أن مايبدو متناقضا ، هو ليس كذلك . فالبعث علمانـى ، ولـه نظـرة إيجابيـة ، ونظـرة عميقـة ورائدة للـديــن ، سبـق فيهـا الكثيرين . .

فى الوقت الذى ظهر فيه الحزب ، كانت الماركسية سائدة فكريا بين المثقفين فى العالم ، فلم يستسلم لإرهاب فكرى عالمى ، **وأعطى للدين أهميته فى النفس الإنسانية ، وفى التـاريخ الإنسانى ، وفى المستقبل الإنسـانى أيضا ، لأن الحزب نظر إلى الدين كشىء خالد .** فالحاجة للدين شىء عميق وأساسى ، ولا يمكن أن يزول ، فأشكاله وصوره يمكن أن تتطور. التدين قابل للتطور، لكن الدين ، من حيث إنه حاجة إنسانية ، خالـدة . هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، نظر إلى تراثه الـروحى من خلال الأمة العـربية ، فأعطاه المعنـى الحى الثورى الذى يمكن أن يكون أساس الثورة العربية الحديثـة . فالفهم العميق للدين ، **والفهم العميق لـلإسلام ، كـدين وكتراث عـربى ثـورى حضارى ، أوصـل إلى نتيجة يمكن أن نعبر عنها هكـذا : الحياة العربية الحديثة . . والمستقبل العـربى الذى نريده . . لايمكـن أن يكون إذا لم يرتو إلى أبعد حـدود الارتواء من معين التراث الروحى لـلأمة العربية ، وإذا لم تكـن نظرتها إلى الروح نظرة إيجابيـة عميقة . . . فعندما تنهض الأمة نهوضا سياسيـا واجتماعيا ، لابد أن تنهض نهوضا دينيا . . إن نظـرتنا أدخلـت الشىء الأسـاسى والجوهـرى فى الديـن ، أدخلته فى الحيـاة القوميـة ، إلا أنها لم تجعل مهمتها دينيـة . يعنى ، مهمـة البعث العربـى ليست شئـون الآخرة وشئـون العقاب والثـواب .** جوهـر الدين : حركـة تنقية وتطهير للنفس والمجتمع ، ورجوع إلى الصفـاء ، إلى البديهة ، إلى الفطرة ، إلى التجاوب

السليم مع قوانين الحياة التى لاتستقيم إلا بالمقاييس الأخلاقية ، وبمقاييس العدل ، وبمقاييس الرحمة ، وهذه الأشياء التى نص عليها الدين .

بالإضافة إلى كل ذلك ، نحن فهمنا من الإسلام الوصايا ، وصايا نموذجية لحياة العرب ، ولها إشعاع إنسانى . وهو ثورة إنسانية ظهرت فى أرض العرب ، ومادتها العرب . العرب هم مادة الإسلام ، لكن هى ثورة إنسانية بأعمق معانى هذه الكلمة ، لأن الإسلام يعالج كيف ينبغى للعربى وغير العربى أن يتصرف . . فالإسلام يتوجه إلى البشر عامة ، لكن هذه الرسالة ظهرت عند العرب ، وجنودها وأبطالها هم من العرب . . كل هذا كان فى نظر الحزب درسا ثمينا ، يمكن أن يتجدد دوما ، وليس شيئا للحفظ ، للتقديس ، للإعجاب فقط ، إنما فيه قابلية دائمة فى الأمة العربية لأن تجدد نفسها حسب هذا النموذج ، أى نموذج الإسلام . .

ونحن فى هذا العصر، وفى سعينا لبناء المستقبل الجديد الناهض ، مهمتنا ليست إنشاء دولة دينية ، بل دولة قومية ، الدين جزء أساسى فيها ، كروح ينبث فى فكرها ، ينبث فى نظرتها الأخلاقية ، فى نظرتها الإنسانية . نحن أمة عربية ، تعيش ضمن شعوب لها ديانات مختلفة وحضارات مختلفة . . وعلينا أن نتعامل مع هذا العصر ومع هذه الإنسانية . فلا يمكن أن نتقيد بحرفية النصوص ، أو نرجع إلى أمور تكون هى عامل تفرقة ، وقد تكون مظهر تخلف بدلا من أن تكون عامل نهوض .

هذا المقصود بالعلمانية . العلمانية : تريد أن تبنى مجتمعا قوميا ودولة قومية ، لاتفرق بين المواطنين ، تحترم حرية كل الفئات وكل المذاهب والمعتقدات . ليس هناك تمايز أو تمييز بين فئة لها امتيازات على فئة أخرى ، الكل فى عرف القانون ، فى عرف الدولة ، متساوون ، أمامهم نفس الغرض ، نحترم حرية الإنسان ، كرامة الإنسان .

ولكـن، هل هـذه العلمانية، تعنـى فقط أن نجمـع فئات متبـاينة فى هـذا المجتمع ونسميها أمة عربية؟! أم أننا نحرص على الانسجام الحقيقى العميق، الإنسجام الفكرى والروحى فى هذه الأمة؟

الإنسجام هو أساس تكوين الأمة، وأسـاس استمرارها، وأساس تطورها وعطائها. هناك التربية القوميـة التى يدخل جوهر الـدين فيها وروح الإسلام، لأنه هـو النموذج الثورى العربـى، المثل العربيـة، الأخلاقية الإنسانيـة فيه، تدخـل فى التربية القومية عنـدما تؤمـن لكل المواطنين تربيـة قومية توحـدهـم، عندها لايهمنـا أن يكون هناك هذا المذهـب، وهناك هذا الديـن، وهناك هذه الطائفة، طالما أن كل المواطنين انصهروا فى تربيـة قومية واحدة، عندها الانتماء للأديان وللطوائف يصبح انتماء لأشياء، قد تكون تراثية، تاريخية، أى شىء، لكن لايتناقـض ولايتعارض مع أهداف الـدولة العربية، بهذا نكـون قد ضمنا نموذجا واحدا موحدا لكل المواطنين فى الدولة العربية! . . »[٤٠].

هنا ـ كما سبقت إشارتنا ـ يستدعى ميشيل عفلق من الإسلام الروح الموحدة للأمـة، تلك التـى تسرى فى تربيتها القـومية من تـراثها الـروحى، وتسرى فى فكرها، وفى نظرتها الأخلاقية، وفى نظـرتها الإنسانية. . ويستبعد منه شريعته وقانونه، بزعم أن ذلك سيؤدى إلى دولة دينية غير عصرية، تكون نشازا فى عالم معـاصر، لامنـاص فيه مـن التعـامـل مـع شعوب ودول وحضـارات متعـددة الأديان. . وهو يخشى أيضا من تعدديـة المذاهب والأديان داخل الأمة العربية والدولة العربية، فيكتفى « بروح الإسلام الموحدة» دون «شريعته التى توهم أنها مفـرقة» . . فهـل كان ـــ وهو الـذى قـال ذلك فى حقبتـه العراقيـة ـ يفكـر فى الانقسام «السنى ـ الشيعى» ! . .

---

(٤٠) المصدر السابق: جـ ٥، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٨ ـ «طموح البعث أن يكون حركة حضارية» ـ ٢/ ٨/ ١٩٨٠م ـ.

مهما كانت أسباب هذا الموقف، فإن النتيجة هى أن هذا الرأى الذى استبعد شطرا من الإسلام، مراعاة لاختلافات المذاهب والأديان، قد وقع أسير «المنطق» الذى استبعد أهله كل الإسلام مراعاة لهذا الاعتبار. . وهو « المنطق» الذى سبق أن انتقده ميشيل عفلق، ووسمه بالسطحية وعدم التجاوب مع روح الأمة وطموحها الحضارى. . وحقيقة الأمر، أن شريعة الإسلام ـ كعقيدته وقيمه وحضارته ـ هى سبيل توحيد، وهى أنجح النماذج التاريخية التى حققت التعايش بين مختلف المذاهب والأديان ! . .

لقد كانت القضية الكبرى للمشروع الفكرى البعثى، هى القضية القومية. . القومية العربية. . ولذلك، كان شاغله الأعظم هو علاقة «العروبة» بـ «الإسلام». . وليس علاقة «الدولة» بـ «الإسلام». . فالبعث ـ كحزب قومى قد استدعى من الإسلام ما يجعل العروبة رباطا قوميا يحقق للأمة العربية العزة والمنعة والوحدة والنهوض. . ولذلك، وقف من العلمانية عند رفض «مفهومها الغربى، الذى يهمل التراث» معتبرا إياه « انحرافا بالفكر القومى» (٤١) عن الطريق السديد. . واكتفى «بنقد العلمانية المستوردة من الغرب، وألح على الصلة العضوية المصيرية بين العروبة والإسلام. . »(٤٢).

لقد وقف ضد العلمانية، بمفهومها الغربى. . اتساقا مع تصديه لثغرات الغزو الفكرى الذى شنه الاستعمار الغربى وحضارته على أمتنا العربية وحضارتها الإسلامية. . واتساقا مع ضرورة استدعاء الروح الإسلامية، روح الإسلام كعقيدة. . وثورة . . وحضارة. . وأخلاق. . وتجربة إنسانية. .

---

(٤١) من خطاب ميشيل عفلق « العمل المستقبلى ـ نداء إلى الأمة ـ ٧ ـ ٤ ـ ١٩٨٨م ـ طبعة بغداد سنة ١٩٨٨م .

(٤٢) من خطاب ميشيل عفلق فى ٧ ـ ٤ ـ ١٩٨٩م ص ٩ . طبعة بغداد سنة ١٩٨٩م ـ مطبعة العمال المركزية ـ .

ورسالة خالدة للأمة العربية . . استدعاء ذلك ، كروابط تقيم وحدة الأمة ، وتعطى قوميتها أبعاد الإنسانية والخلود . . لقد استدعى من الإسلام مايميز القومية العربية عن القوميات الغربية . . وأهمل منه الشريعة والقانون . . فوقف عند «الصيغة القومية» ، ولم يبلغ مستوى «الصيغة الإسلامية» التى تستدعى كامل الإسلام لكل ميادين الحياة! . . ومن ثم ، فلقد وقع ــ حيال قضية الغزو الفكرى ـ فى تناقض لايخرجه منه سوى التبنى لكامل الإسلام : عقيدة . . وشريعة . . مع الحضارة . .

ذلك ، أن الغزو الفكرى الغربى ، الذى رفضه المشروع البعثى ، بسبب تجريده «القومية» من «التراث» . . أى تجريده «العروبة» من «الإسلام» . . هو ذاته الغزو الفكرى ، الذى جاءنا بــ «الدولة العلمانية» . . أى « الدولة» المجردة من «الشريعة الإسلامية والقانون الإسلامى » . . فكان الواجب ـ والذى لايزال واجبا ـ على المشروع البعثى أن يرفض هذا الغزو هنا ـ فى مجال الدولة ـ كما رفضه هناك ـ فى مجال القومية ـ ! .

فالموقف «الإسلامى» . . الذى يتبنى كامل الإسلام لكامل سمات وميادين المشروع الحضارى ، هو الموقف الوحيد الذى يحظى بالمصداقية والموضوعية والاتساق ! . .

أيهما أولاً.. العروبة ؟.. أم الإسلام ؟!

كان ميشيل عفلق ـ بكل المقاييس ـ واحدا من أبرز المفكرين القوميين العرب المعاصرين . . وكانت القضية القومية ، هى ميدان اهتمامه الأول . بل لقد كانت ، بالنسبة إلى كتاباته ونضالاته ، زاوية الرؤية التى يرى من خلالها كل شىء ، والمعيار الذى يزن به سائر الأمور ، والقانون الذى يحاكم إليه كل النظريات والدعوات والحركات . . . ولذلك ، فلقد كان طبيعيا أن نرى فى علاقة القومية العربية بالإسلام ، من خلال مشروعه الفكرى ، الميدان الأول والرئيسى لقضية مكانة الإسلام فى مشروعه الحضارى ، وموقعه فى مرجعية هذا المشروع . .

لقد كانت « القومية ـ أى العروبة» هى محور المشروع البعثى . . فأين منها وفيها موقع «الإسلام»؟! .

* * *

هنا . . وفى الإجابة عن هذا السؤال ، سنرى الخط البيانى الصاعد لتطور فكر ميشيل عفلق إزاء مرجعية الإسلام ومكانته بين مكونات القومية العربية . . وهو تطور احتفظ فيه الرجل «بثوابت» بدأ بها منذ فجر حياته الفكرية والنضالية ، تؤكد على العلاقة الخاصة بين الإسلام والعروبة ، وتنبه على دور

هذه العلاقة فى تميز القومية العربية عن القوميات الأخرى . . تميزها بالخلود والإطلاق النابعين من خلود الدين الإسلامى ومن اتسام الفكر الدينى بالإطلاق . . وهو تميز امتد إلى أمة هذه القومية ـ الأمة العربية ـ عندما جعل الإسلام لها «رسالة خالدة» ، حملتها وتحملها إلى الناس أجمعين . . ولهذه الخصوصية فى العلاقة بين العروبة والإسلام ، ولامتياز الإسلام بخاصية التجدد الدائم ، فلقد تميزت هذه العلاقة هى الأخرى بالدوام ـ فى مشروع النهضة المعاصرة كما فى النهضة العربية التى فجرها ظهور الإسلام ـ . . ومن ثم ، فلقد تميزت صيغة البعث فى المسألة القومية عن الصيغ القومية التى نشأت فى الحضارة الغربية ، والتى استعارها قوميون عرب ، جردوا القومية من هذه العلاقة العضوية والخاصة بالإسلام . .

تلك أمور « جوهرية ـ وثوابت» فى المشروع الفكرى القومى لميشيل عفلق ، على امتداد الخمسين عاما التى قضاها الرجل فى الكتابة والنضال . .

أما القضايا التى شهدت « تطورا» فى فكره إزاء علاقة العروبة بالإسلام ، ومن ثم مكانة الإسلام بين مكونات القومية العربية . . فلعل أبرزها ، بعد وضوح الرؤية . . واتساع مساحة الحديث عن الإسلام ودوره فى المسألة القومية :

● أن الرجل كان يرى فى العقود التى سبقت عقد السبعينيات انفراد القومية وحدها كمحرك للأمة العربية نحو الثورة والنهوض . . **والإسلام الحضارى هنا هو مجرد مكون من مكونات القومية يغذيها بتراثه الروحى ، وهو مُتَضَمَّن فيها . .**

● أما منذ عقد السبعينيات . . وبعد اتساع مساحة الحديث عن الإسلام فى مشروعه الحضارى ، **فلقد أصبح الإسلام أكبر من مكون من مكونات** القومية العربية . . **أصبح أباها الذى ولدت منه ولادة جديدة . . كما أصبح**

الإسلام الحضارى خيارا قائما بذاتـه ضمن خيارات النهضة الثلاثة ، كما تحدث عنها ميشيل عفلق ، وهى : القومية . . والتقدم . . والإسلام الحضارى . .

لقد كانت العـروبة ـ فى المرحلة الأولى ـ هى الأصـل . . وكان الإسلام مجرد «مفُصِح» عـن رسالة الأمة العـربية ، إبان ظهوره . . وكـانت القومية ـــ وليس الإسلام ـ هى « المفُصِح» عن رسالة الأمة فى العصر الحديث . . . أما فى المرحلة الثانيـة ـ مـرحلة «الحقبـة العراقية» فى تطـور ميشيل عفلـق ـ فلقـد تحدث عن الإسلام باعتبـاره الأب الشرعى للعروبة ـــ وليس المفصح عنها ـــ . . وباعتباره المكوِّن الأول لها . . وجـوهر مشروعهـا النهضوى . . بل وبـاعتباره وطـن الأمة والسياج الحامى لوحدتها ، فى الماضـى والحاضر والمستقبل على السواء ! . . لقد أصبح : دينـا . . ووطنا . . ووطنية . . وقوميـة . . وحضارة . . وثقافـة . . بل ومبرر الوجود للأمة العربية ! . .

* * *

لقد بدأ عفلق مؤمنا بالإسلام ، كـدين سماوى . . لكن ما كان يهمه منه فى مشروعه الفكرى ، ويستدعيـه منه فى حركته القومية هـو « الحركة» التى قام بها العرب عندما تدينوا بهذا الدين . . كانت «الحركة ـ العربية» ، المتمثلة فى إنجاز الأمة العربيـة هى مايحفل ويحتفـل به ويبرزه ويستدعيه . . ولعـلاقة «المُحَرِّك ـ الإسلام» بـــ «الحركة ـــ الأمة ـ وقـوميتها» ، فلقد رفـض ميشيل عفلـق نموذج القومية الغربى ، المجرد من الدين ، ورأى للعرب وقوميتهم خصوصية متميزة فى هذا الميدان ، جاءت ثمرة للعلاقة العضـوية بين العروبة والإسلام . . فالمفهوم الغربـى للقومية يجعلها نقيضـا للدين ، لثبات الـدين ونسبيتها ولإلهية الـدين وبشريتها : وهو يجردها مـن التراث ـ لأنها ، لديه ، ظاهرة حـديثة لاعلاقة لها بالتراث ـ بينما نرى ـ فى الواقع العربى ـ علاقة الإسلام بالعروبة قد منحتها شيئا

من خلوده وإطلاقه . . كما أصبح تراثه الروحى المعين الذى ترتوى منه العروبة والقومية العربية دائما وأبدا . . فالإسلام غير أجنبى عن الأمة العربية ، كما هو حال الدين المسيحى مع القوميات الغربية . . واللغة العربية هى ـ عندنا ـ لغة الدين والقومية معا ، وليس كذلك لغة الدين والقوميات فى الغرب . . والإسلام الحضارى . . الحركة . . الثورة . . التاريخ . . الرسالة الإنسانية . . التجربة التى امتزجت فيها تأثيرات السماء باستجابات الأرض . . كل هذا الجانب البشرى من الإسلام ـ والذى هو وليد الآلام العربية ، ومفصح عن عبقرية الأمة العربية ـ قد غدا مكونا ومغذيا للقومية العربية . . الأمر الذى ميزها ويميزها على القوميات الغربية . .

يحدثنا ميشيل عفلق عن هذه القضية ، منذ السنوات الأولى فى حياته الفكرية والنضالية ، فيكتب فى سنة ١٩٤١م ، يقول :

«إن هذه القومية التى تأتينا من أوربا مع الكتب والمجلات تهددنا بخطر مزدوج . فهى من جهة تنسينا شخصيتنا وتشوهها ، ومن جهة أخرى تسلبنا واقعنا الحى ، وتعطينا بدلا منه ألفاظا فارغة ورموزا مجردة . . وإن فى مقارنة القومية بالدين والتقاليد والفن ، مثلا ، ماينم عن إخلال بدقة التفكير، وفهم جزئى للقومية كأنها شىء مستقل عن الدين والتقاليد والفن ، مع أنها التربة التى تنمو فيها مواهب أمة ما فى كل الميادين. وعلى هذا ، لايعود جائزا أن تختلق خصومة بينها وبين أحد أجزائها الأصيلة المنبعثة منها ، ولا أن نساويها به . إن التفكير المجرد منطقى مع نفسه إذ يقرر أن القومية لابد أن تصطدم بالدين مثلا لأنهما يختلفان فى المنبع والمظاهر .

ولكن ، لنهجر اللفظ قليلا ، ولنسم الأشياء بأسمائها وصفاتها المميزة ، فنستبدل بالقومية «العروبة» وبالدين «الإسلام» ، تظهر لنا المسألة تحت ضوء

جديد . فالإسلام ، فى حقيقته الصافية ، نشأ فى قلب العروبة ، وأفصح عن عبقريتها أحسن إفصاح ، وساير تاريخها ، وامتزج به فى أمجد أدواره ، فلا يمكن أن يكون ثمة اصطدام . وبعد ، فهل القومية محصورة بالأرض ، كما يظن ، بعيدة كل البعد عن السماء ، حتى يعتبر الدين شاغلا عنها مبذرا لبعض ثروتها ، بدلا من اعتباره جزءا منها مغذيا لها ومفصحا عن أهم نواحيها الروحية والمثالية؟! . . إن القومية العربية ليست نظرية ، ولكنها مبعث النظريات ، ولاهى وليدة الفكر ، بل مرضعته ، وليست مستبعدة الفن ، بل نبعه وروحه ، وليس بين الحرية وبينها تضاد ، لأنها هى الحرية ، إذا ما انطلقت فى سيرها الطبيعى وتحققت ملء قدرتها . . »[١] .

هنا يرفض ميشيل عفلق نموذج القومية الغربية ، الذى تتجرد القومية فيه من الدين وذلك لإيمانه بعلاقة الإسلام بالعروبة ، فى النموذج القومى العربى . . لكنه يرى الإسلام «جزءا» من أجزاء القومية العربية . . «نشأ فى قلب العروبة ، وأفصح عن عبقريتها» . . فهى الأصل وهو الفرع ! . . وهى الكل وهو الجزء ! . .

وفى سنة ١٩٤٣م . . يعيد عفلق تأكيد هذه المعانى التى تدعو إلى تمييز قوميتنا عن القوميات الغربية ، فيقول :

« . . فالفكرة القومية المجردة فى الغرب ــ [أى المجردة عن الدين] ـ منطقية إذ تقرر انفصال القومية عن الدين ، لأن الدين دخل على أوربا من الخارج ، فهو أجنبى عن طبيعتها وتاريخها ، وهو خلاصة من العقيدة الأخروية والأخلاق ، لم ينزل بلغاتهم القومية ولا أفصح عن حاجات بيئتهم ، ولا امتزج

---

(١) [فى سبيل البعث] : جـ ١ ، ص ١٣٧ ـ ١٣٩ ـ «فى القومية العربية» ـ سنة ١٩٤١م ـ .

بتاريخهم ، فى حين أن الإسلام بالنسبة إلى العرب ليس عقيدة أخروية فحسب ، ولا هو أخلاق مجردة ، بل هو أجلى مفصح عن شعورهم الكونى ونظرتهم إلى الحياة ، وأقوى تعبير عن وحدة شخصيتهم التى يندمج فيها اللفظ بالشعور والفكر ، والتأمل بالعمل ، والنفسى بالقدر . وهو فوق ذلك كله أروع صورة للغتهم وآدابهم ، وأضخم قطعة من تاريخهم القومى ، فلا نستطيع أن نتغنى ببطل من أبطالنا الخالدين بصفته عربيا ونهمله أو ننفر منه بصفته مسلما . قوميتنا كائن حى متشابك الأعضاء ، وكل تشريح لجسمها وفصل بين أعضائها يهددها بالقتل .

فعلاقة الإسلام بالعروبة ليست إذن كعلاقة أى دين بأية قومية . .

فملحمة الإسلام لاتنفصل عن مسرحها الطبيعى ، الذى هو أرض العرب ، وعن أبطالها والعاملين فيها ، وهم كل العرب . . . فالإسلام ، إذن ، كان حركة عربية ، وكان معناه : تجدد العروبة وتكاملها ، فاللغة التى نزل بها كانت اللغة العربية ، وفهمه للأشياء كان بمنظار العقل العربى ، والفضائل التى عززها كانت فضائل عربية ظاهرة أو كامنة ، والعيوب التى حاربها كانت عيوبا عربية سائرة فى طريق الزوال ، والمسلم فى ذلك الحين لم يكن سوى العربى ، ولكن العربى الجديد ، المتطور ، المتكامل . . . إن هذا الدين يمثل وثبة العروبة إلى الوحدة والقوة والرقى . . » .

فعفلق هنا ـ مع اعترافه « بسماوية » الإسلام ، كدين إلهى . . إلا أنه يسلط كل الضوء على الجانب « البشرى » فيه . . على « الحركة العربية » التى أفصحت عن عبقرية الأمة فى صورة الإسلام . .

وهو ينفى أن يكون الإسلام قد «وجد ليكون مقصورا على العرب» . . ولكنه يعتبر بعده الإنسانى التعبير عن نزوع الأمة العربية « فى أصل تكوينها إلى القيم

الخالـدة الشاملـة ، والإسـلام خير مفصح عـن نزوع الأمـة العـربية إلى الخلـود والشمول . . فرسالة الإسلام إنما هى : خلق إنسانية عربية ! » .

وهو ـ فى هـذه المرحلة من مراحل فكـره ـ لايرى اليقظة العـربية الأولى ثمرة للإسلام ، وبعضـا من آثاره وتجلياته ، وإنما يـرى فى الرسالة الدينيـة الإسلامية مفصحا عن تلك اليقظة القومية العربية الأولى ! ! . . فيقول ، مغلبا « البشرى» على «السماوى» فى هذا الذى شهده العرب إبان ظهور الإسلام :

«إن العرب ينفـردون دون سائر الأمـم بهذه الخاصية : أن يقظتهـم القوميـة اقترنت برسالة دينية ، أو بالأحرى كانت هذه الرسالة مفصحة عن تلك اليقظة القومية . . ! . . وما الإسلام إلا وليد الآلام ، آلام العروبة ! ! . . » .

وبسبب مـن هذا الموقف ، المتأثـر ـ رغم تديـن صاحبه ـ بـالتحليل المادى لنشـأة الأديـان . . الموقـف الـذى رأى فى الإسلام مجرد مكـون ومغـذ للقـوميـة العربيـة ، أفصح ـ بلغـة السماء ـ عن يقظـة العرب الأولى ، وعبقريـة أمتهم ، وتجسد فى الحركة البشرية العربيـة : الثورة . . والعلوم . . والتراث . . والمثل . . والحضـارة . . بسبب مـن هذا الموقـف الذى غلـب عفلق فيـه « البشرى» على «السماوى» ـ حيـال النظرة للإسلام ــ رأيناه ـ رغم حـديثه عن البعد الإنسـانى والعالمى للإسلام ـ يرى « أن الإسلام لا يمكن أن يتمثل إلا فى الأمة العربية ، وفى فضائلها ، وأخـلاقها ومواهبها . . ولـذلك . . وجب أن توجـه كل الجهود إلى تقـويـة العـرب وإنهاضهـم ، وأن تحصر هـذه الجهـود فى نطـاق القـوميـة العربية»[٢] ! .

---

(٢) [فى سبيل البعث] ـ طبعة دار الطليعة سنة ١٩٧٤م ـ ص ١٢٦، ١٣١، ١٢٩، ١٣٣ ـ «ذكرى الرسول العربى » ـ إبريل سنة ١٩٤٣م ـ .

وفى سنة ١٩٤٦ م . . يعود عفلق ، فيطرق ذات الموضوع ، وليؤكد على ذات الفكرة . . . فالأصل والمنبع هو أن للأمة العـربية « رسالة خالدة » ، هى «نزوع واستعداد» لتحقيق الذات والإفصاح عـن هذه الذات . . نزوع واستعداد دائم وخالد . . أما أشكال الإفصاح والتعبير، فإنها تختلـف باختلاف مراحل تطور هـذه الأمة . . فقبـل الإسلام ، أفصحـت الأمـة عن ذاتها ورسـالتها فى صـورة «تشريـع حمورابـى » [١٧٩٢ ـــ ١٧٥٠ق . م] مـرة . . وفى صـورة «الشعـر الجاهلى» مرة ثانية . . وعند ظهور الإسلام ، كان الإفصاح عن الذات والرسالة فى صورة هذا الديـن ـ «دين محمد» ! . . ثم جاء عصر أفصحـت فيه الأمة عن ذاتها ورسالتها فى صورة «ثقافة عصر المأمون» . . والآن . . غدت «القومية» هى الصورة العصريـة التى تفصح بها الأمـة العربية عـن ذاتها وعن نزوعهـا الدائم ورسالتها الخالدة . .

يعبر ميشيـل عفلـق عـن هذه الفكـرة عنـدمـا يقـول : «**فهذه الأمـة التى أفصحت عن نفسها وعن شعورها بالحيـاة إفصاحا متعددا متنوعا ، فى تشريع حمورابى ، وشعـر الجاهلية ، وديـن محمد ، وثقافـة عصر المأمون ، فيهـا شعور واحد يهزها فى مختلـف الأزمان ، ولها هدف واحد ، بالرغـم من فترات الانقطاع والانحراف . . . لقد أفصح الدين ، فى الماضى ، عن الـرسالة العربية التى تقوم على مبادئ إنسـانية ، فهل معنى ذلـك بأنه يتعـذر على هذه الرسالـة أن تكون قوميـة؟ . . . إن هذه الرسالـة يجب أن تفهم على أنها نزوع واستعداد أكثـر من كونها أهدافا معينة محدودة**»[٣] . . .

ويـذهـب عفلـق على درب التأكيـد لهذا الـرأى ، الذى يـرى الإسلام ـــ فى

---

(٣) المصدر السابق : ص ٩٨ ، ٩٩ ـ « الرسالة الخالدة» ـ سنة ١٩٤٦م ـ .

آثاره الأرضية والبشرية ـ ثمرة لعبقرية الأمة العربية . . وليس ثمرة للوحى الإلهى والوضع الربانى ـ . . عندما يمضى مؤكدا حلول «القومية» محل «الدين» كالمحرك الأول ، بل والوحيد للأمة العربية فى هذا العصر الذى نعيش فيه . .

« . . فمشكلتنا هى : القضية القومية . لكل أمة ، فى مرحلة معينة من مراحل حياتها محرك أساسى يهز أعماقها ويفجر فيها ينابيع النشاط والحيوية والحماسة ، ويتفتح له قلبها ، وهو بمثابة نقطة يتركز فيها انتباه الأمة ، وتكون مفصحة عن أعماق حاجاتها فى مرحلة ما .

فإذا نظرنا إلى العرب فى الماضى ، وجدنا هذا المحرك الأساسى كان فى وقت ما ، عند ظهور الإسلام ، هو الدين ، فقد قدر وحده على استثارة كوامن القوى فى النفس العربية ، واستطاع أن يحقق الوحدة والتضامن ، وأن يلهب النفوس ، ويفتح القرائح ، وأن يحقق بالتالى تلك النهضة . فى ذلك الوقت ، دعى العرب إلى الإيمان بإله واحد ، فقادهم ذلك الإيمان إلى تحقيق الانقلاب الاجتماعى والاقتصادى الذى كانوا بحاجة إليه . فالإصلاح الاجتماعى كان فرعا ونتيجة للإيمان العميق بالدين .

أما اليوم ، فإن المحرك الأساسى للعرب . . هو القومية ، التى هى كلمة السر التى تستطيع وحدها أن تحرك أوتار قلوبهم ، وتنفذ إلى أعماق نفوسهم ، وتتجاوب مع حاجاتهم الحقيقية الأصيلة . . لذلك ، لا يمكنهم أن يفهموا لغة غير لغة القومية . . وكما استجابوا ، فى الماضى ، لنداء الدين ، فاستطاعوا أن يحققوا الإصلاح الاجتماعى ، فإنهم يستطيعون اليوم تحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة بين المواطنين وضمان الحرية بين العرب جميعا ، نتيجة الإيمان القومى وحده ! . . »[٤] .

---

(٤) المصدر السابق : ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ ـ «معالم الاشتراكية العربية» ـ سنة ١٩٤٦ م ـ .

فـ«الإيمان القـومى وحده» ـ بنظـر عفلق ـ هـو المحرك الوحيد لـلأمة ، فى عصرنـا الراهـن ، كما كان « الإيمان الـدينـى» هو المحـرك لها على عهد ظهـور الإسلام ! . .

ولقد قـادت هذه الأفكـار ـ التـى اختزلـت الإسلام فجعلتـه « جزءا» مـن «الكل القومى» . . واستبدلته ، «كمحرك تاريخى » «بالمحرك القومى» المعاصر قادت هـذه الأفكار ميشيـل عفلق إلى فكـرة أخطر ، جعلتـه يتبنى «**الإسلام : التراث**» ، إذ هو من مكونات القومية ، يحقـق وحدة الأمة الثقافية والروحية . . على حين قـد أهمل «**الإسلام : الـدين الصرف**» ، بدعوى افتقـاره إلى مايميزه ويفضله على الديانات الأخرى فى الواقع العربى ، وبدعوى أنه عامل «تفريق» لـلأمـة ، وليـس عـامل «تـوحيـد»!! . . فكتـب فى سنـة ١٩٥٠م . . وسنـة ١٩٥٥م . . وسنة ١٩٥٧م . . داعيا إلى الوقوف من الإسلام عند تبنى « ناحيته القوميـة» ، لأنها هى أداة التوحيد للـدولة القوميـة العربية ، دون تبنى «نـاحيته الدينية» ، بـدعوى أنها عامل «تفريـق ـ لاتوحيد» . . ومُتـوهِّما وجود تماثل بين «الدولة» فى الإسلام ، وبين نظيرتها فى المسيحية الغـربية إبان حكم الكنيسة فى العصور الأوربية الوسطى والمظلمة ! . .

قـادت هذه الأفكـار إلى هذه النتـائج . . فكـانت عبـارات ميشيل عفلـق المفصحة عـن رؤيته لموقـع كل من «الإسـلام» و«العروبة» فى معـادلة العـلاقة بينهما ، فى تلـك المرحلة السـابقـة على تطوره الفكـرى . . والتـى كتب فيهـا ، فقال :

« . . إن البعث العربى حركة قوميـة ، تتوجه إلى العرب كافة ، على اختلاف أديانهم ومذاهبهـم ، وتقدس حريـة الاعتقاد ، وتنظر إلى الأديان نظرة مساواة فى التقديس والاحترام . ولكنها ترى ، إلى جانب ذلـك ، فى الإسلام ناحية قومية لها

مكانتها الخطيرة فى تكوين التاريخ العربى والقومية العربية ، وتعتبر هذه الناحية ذات صلة وثيقة بتراث العرب الروحى وبمميزات عبقريتهم . .

فالإسلام ، من حيث هو دين صرف ، مساو لغيره من الأديان فى الدولة العربية التى تساوى بين جميع مواطنيها وتحترم حرية معتقدهم . والإسلام ، من حيث هو حركة روحية امتزجت بتاريخ العرب واصطبعت بعبقريتهم وأتاحت ظهور نهضتهم الكبرى ، له مكانة خاصة فى روح القومية العربية وثقافتها وحركة انبعاثها . .

وبهذا المعنى ، تستلهم حركة البعث العربى من الإسلام تجدده وثورته على القيم الاصطلاحية . تستقى من نبعه فضائل الإيمان والمثالية والتجرد عن المنافع الشخصية والمغريات الدنيوية فى سبيل نشر المبادئ التى تنقذ العرب فى هذا العصر من ضعفهم وتفككهم وانخفاض مستواهم الروحى والاجتماعى . . »[٥].

فهو الموقف الانتقائى . . الذى يستدعى من الإسلام «ناحيته القومية» دون غيرها من نواحيه ! . .

وهذه « الناحية القومية» من الإسلام ، والتى هى من مكونات العروبة ، ومتضمنة فيها ، هى «عامل التوحيد القومى» فى الإسلام . . بينما ـ فى رأى عفلق ـ تكون «النواحى الدينية» ، وكذلك «العالمية ـ غير العربية» هى عوامل «تفريق» ! . .

« . . فالاسم الذى هو أقرب مايكون إلى الواقع وإلى الماضى وإلى المستقبل هو العروبة . فإذا قلنا : الإسلام ، فسنختلط مع عالم آخر نصطدم معه

---

(٥) [فى سبيل البعث] : جـ ١ ، ص ١٧٤ ، ١٧٥ ـ «العرب بين ماضيهم ومستقبلهم» ـ ١٩٥٠م ـ.

بالمصالـح . فالفروق القائمة فى وسـط مجتمعنا العربى، تظهـر أنها لاشىء أمام الفروق فى وسـط العالم الإسلامى . إذا أخـذنا الأقليات العنصرية مـا بين العالم العربى والإسلامـى نجدها كثيرة [٦] . . فـالعرب اليـوم لايـريدون أن تكـون قوميتهم دينية ، لأن الـدين له مجال آخر، وليس هو الرابط لـلأمة ، بل هو على العكس قد يفـرق بين القوم الواحد، وقد يـورث ـ حتى ولو لم يكـن هناك فروق أساسية بين الأديان . . نظرة متعصبة وغير واقعية[٧] . . والدولة الدينية كانت تجربة فى القرون الوسطى انتهت بالفشل، وكلفت البشرية كثيرا من الجهد ومن الدماء ومن المشاكل، وحدثت تقريبا فى أوقات متقاربة فى البلاد الإسلامية وفى أوربا المسيحية! . . » [٨] .

هكذا . . وعلى هذا النحو، رأى ميشيل عفلق علاقة الإسلام بالعروبة ، فى المرحلة الأولى من مرحلتى فكره إزاء هذا الموضوع . .

فرغم إيمانه بـالإسلام دينا سماويا . . إلا أنه قد دعـا إلى استلهام الإسـلام : الثـورة . . الإسلام: الحضـارة . . الإسلام: التراث . . لأن هـذا الجانب مـن الإسلام هو «الحركةالعربية» التى أفصحت عن عبقرية الأمة ورسالتها فى صورة إسلامية . . ولأن « الجانب القومى» من الإسـلام قد غدا مكوِّنا قوميا فى قوميتنا العـربيـة ، ومتضمنًا فى « العـروبـة»، التـى هـى الصـورة العصرية لـرسـالـة

---

(٦) [فى سبيل البعث] ـ طبعة دار الطليعة سنة ١٩٧٤م ـ ص ١٧٠ ـ « قوميتنا المتحررة أمام التفرقة الدينية والعنصرية» ـ سنة ١٩٥٥م ـ .

(٧) [فى سبيل البعـث] : جـ ١ ص ١٨٨ ــ « القوميـة العربيـة والنظريـة القوميـة» ـ سنـة ١٩٥٧م ـ .

(٨) [فى سبيل البعث] ـ طبعة دار الطليعة سنة ١٩٧٤م . ص ١٧٠ «قوميتنا المتحررة أمام التفرقة الدينية والعنصرية» ـ سنة ١٩٥٥م ـ .

الأمة ، المفصحة عن عبقريتها ، والمحرك الأول والوحيد ، فى عصرنا ، للعرب كى ينهضوا لأداء رسالتهم الخالدة . وأيضا ، لأن هذا « الجانب القومى » فى الإسلام هو «عامل التوحيد» ، بينما ــ فى رأى عفلق ـ يمثل «الإسلام : الدين الصرف» عامل تفريق بين العرب أنفسهم ، وبين العرب وغيرهم من القوميات التى اعتنقت الإسلام ! . .

وإذا كانت قد سبقت إشاراتنا إلى تطور فكر ميشيل عفلق حيال مكانة الإسلام وحجم مرجعيته فى المشروع البعثى للنهضة الحضارية العربية ، وخاصة منذ «الحقبة العراقية» ، التى بدأت فى عقد السبعينيات . . فلقد حان الحين كى نتتبع الخط البيانى لهذا التطور الفكرى حيال هذه القضية . . قضية علاقة العروبة بالإسلام . . ووزن كل منهما بالنسبة إلى الآخر فى المعادلة البعثية التى جمعت بينهما . .

* * *

منذ حقبة السبعينيات ــ واستقرار ميشيل عفلق بالعراق ـ برزت قسمة الحديث عن الإسلام فى مشروعه الفكرى . . فاتسعت ـ على نحو ماسبقت إشارتنا إليه ــ مساحة الحديث عن الإسلام . . وضمن هذا التطور، أخذ الرجل يلقى الأضواء على الدور المحورى والمصيرى «لاكتشافه الإسلام» ، منذ فجر حياته الفكرية والنضالية . . واكتشافه خصوصية العلاقة بين الإسلام والعروبة . . والدور المحورى والمصيرى لهذا « الاكتشاف» فى تميز صيغة البعث عن الصيغ التى كانت سائدة فى ساحة الفكر والسياسة العربية فى عقد الأربعينيات . . صيغ القوميةالمجردة من الدين ، كرد فعل ضد هيمنة الدولة العثمانية على العالم العربى ، أو تقليد للقوميات الغربية العلمانية . . والصيغة الليبرالية الغربية . . وكذلك الصيغة الماركسية الشيوعية المادية . .

وأخذ ميشيل عفلق ينبه على أن هذه المنطلقات . . منطلقات الإسلام الحضارى . . لم تعط فى المشروع البعثى حقها من البحث والدرس والإيضاح ، واستخلاص الدروس . . وإلى جانب مزيد عنايته بها فى كتاباته وخطبه ومحاضراته فى مدارس الإعداد الحزبى ، نبه الأجيال البعثية الجديدة على ضرورة بذل المزيد من العناية بجلاء وتطوير الرؤية البعثية لهذه المنطلقات . . منطلقات الإسلام الحضارى ، ومكانته المرجعية فى المشروع القومى لإنهاض الأمة العربية . .

فإلى جانب التركيز على دور الإسلام فى تحديد الاختيار البعثى المتميز عن الخيارات الأخرى التى أهملت الإسلام أو حاربته . . أخذ ميشيل عفلق يربط بين «الإسلام : الدين» و«الإسلام : التجربة» ــ بعد أن كان يعلن أن مايعنيه من الإسلام هو «الإسلام : التجربة» فقط ، لأن «الإسلام : الدين الصرف» مفرِّق للأمة وليس جامعا لها . . ومساو لغيره من الأديان ، وليست لعلاقته بالقومية تلك الخصوصية التى «للإسلام : الحضارى» . . أخذ ميشيل عفلق يطور فكره حيال هذه القضية . . فتناثرت فى كتاباته الإشارات إلى الربط بين «الإسلام : الدين» وبين « الإسلام : التجربة . . الثورة . . والحضارة . . والتراث» . .

وأخذ يؤكد على أن «تجربة العرب الإسلامية» فيها شىء «مطلق» و«خالد» ، اكتسبته من «الإسلام : الدين» ، فتميزت به عن «تجارب» الأمم الأخرى . . وعلى تداخل «السماء» و«الأرض» فى تراث الأمة وثورتها وحضارتها ورسالتها الإنسانية . . فى ذلك كله امتزجت «البشرية» بـ «السماوية» . . بل وبلغ درجة القطع «بأن الأمة العربية لا تستطيب شيئا أقل من الوحى الإلّهى . . الشىء السماوى»! . .

وبعد أن كان الإسلام ـ فيما قبل حقبة الوضوح والتطور، مجرد مكون من

مكونــات القومية، وتــراث روحى يغذيها، وهــو مُتَضَّمن فيها . . أصبــح ـ فى كتابــات عفلق الأخيرة ـ : الأب الشرعــى للقوميــة والعروبة، ولــدت منه ولادة جديدة ومتميزة . .

وبعــد أن كان الإســلام ــ فيما قبل المرحلــة الجديــدة ــ مجرد «مُفْصِح» عــن عبقريــة الأمة ورسالتهــا ـ التى هــى سابقــة عليه ـ غــدا الإسلام ـ فى الكتــابات الجديدة ــ كل شىء: فهو العــروبة . . وهو الــوطن . . وهو الثقافــة . . وهو القومية . . وهو الحرية . . وهو الحضارة . . وهو أثمن شىء فى العروبة . .

وبعد أن كان الحب للإسلام نابعا من حب الأمة العربية، غدا الحب لذات الإسلام!! . .

كانت «العروبة أَوَّلا ً» . . ثم اقترب ميشيــل عفلق من الإسلام، حتى قال مرة: «الإسلام أَوَّلاً »!!

تلك هــى حقيقة الوضــوح والتطور اللذين حــدثا لفكر ميشيــل عفلق إزاء مكانــة «الإسلام: الحضارى» وحجم مــرجعيته فى المشروع البعثى لنهضــة الأمة العربية . . وهو وضوح وتطور قد استتبعــا امتداد رؤية ميشيل عفلق إلى ما وراء حدود الــوطن العربــى والأمة العــربية، فاختفــت نظرته السلبيــة لعلاقــة الأمة العربية بــالمسلمين غير العرب . . وبرز حديثــه عن الشعوب الإسلاميــة، وعن العلاقة المتميزة بين الأمة العربيــة وبين هذه الشعوب . . بل ودعا إلى الحوار مع «الإسلاميين»، بعد أن كانت هذه الدعوة قاصرة على القوميين والماركسيين! . .

كل ذلك ، حــدث فى فكر ميشيل عفلق، إزاء عــلاقة الإسلام بالعــروبة، منذ عقد السبعينيــات . . مصاحبا لتعاظــم المد الإسلامى ـ الــذى جفل منه، فازور عن الإســلام قوميون آخرون ــ . . وقبل الثورة الإيرانيــة ـ سنة ١٩٧٩م ـ

التى زايد عليها ، بالشعارات الإسلامية ، قوميون وعلمانيون آخرون ! ! . . الأمر الـذى يجعلنا نحترم هـذا التطـور فى فكر الـرجـل ، ونرى فيـه الموقـف القومـى المخلـص والطبيعـى إزاء مـرجعيـة الإسـلام ، فى أمـة رسـالتهـا الخالـدة هـى الإسلام . . وفى عـالم تتهاوى فيـه معابـد وأصنام الأيـديولـوجيات المستـوردة ، والمعادية منها . . أو المهملة للدين على وجه الخصوص . .

لقـد فتح ميشيـل عفلـق ، بهذا الـوضوح والتطـور، الطـريـق أمام التيـار القـومـى . . طـريـق التبنـى لكـامـل الإسـلام مـرجعـا أول لكـامـل المشروع الحضارى . . ودعا الإجيال الجديدة إلى السير على هذا الطريق . .

أما نصـوص الرجل وعباراتـه الشاهدة على هـذا الوضوح والتطور اللـذين حدثا لفكره حول هذه القضية . . فإننا نقدمها فى هذه النقاط ـ التى تقدم قراءة جديدة لفكر الرجل حول هذا الموضوع ـ :

● فى سنة ١٩٧٦م ـ بدأ ميشيل عفلق يولى الأهمية لإلقاء الأضواء على دور الإسلام فى تحديد «الخيار البعثى» . . وعلى تداخل «خلود » الدين «و إطلاقه» فى «التجـربـة العـربيـة» ، على النحـو الـذى ميـزهـا بنسبـة مـن « الخلـود» و«الإطلاق» ، فيه تداخلت «السماء» و«الأرض» ! . . فكتـب ، فى نص طويل ومهم ، يقول :

« . . قراءة جديدة لـلإسلام كشفت لنا عن حقائق أسـاسية فى روح شعبنا ونفسيته ، وأضاءت لنا طريق العمل الثورى .

وثمة واقع ذاتى ، جاء فى الـوقت نفسـه تعبيرا عن واقع موضوعى . الواقع الذاتى : هو أننى شخصيا فى بداية تكوين الحزب ، اكتشفت الإسلام . أقول : اكتشفت ، ولا أعنى أننى لم أكن أعرف الإسلام . فقـد كانت هنالك ألفة منذ

الصغر . اكتشفت الإسلام كثورة كتجربة ثورية هـائلة ، وقرأته قراءة جديدة من هذا المنظار . . إنه عقيدة ، ونضـال فى سبيلها . . وقضية ، هى قضية أمة ، وقضية إنسانية . . بل إنه قضية أمـة بتصور إنسانى أوسع . . ونضال على أروع مايكون ، بأعلى مراحله ، وبما فيه مـن تنظيم دقيق ، وتثقيف ، إلا أنه ، أيضا ، دين . فهو تجربة ثورية ، السماء فيها متداخلة مع الأرض .

ولولا هذا الاكتشـاف ، لما كان مستبعدا أن يأخذ تفكيرنـا ، كشباب مثقف مخلص لبلـده ، يريد أن يعمل شيئـا ، بإحدى الصيـغ : إما بالتحرر بـالصيغة الغربية . . وهذه كـانت معـروفة عند الكثيريـن ، ولم تكن شيئـا معيبا . . وإما صيغة أخرى أحدث ، وفيها نزعة تقـدمية ، وجِدَّة . . وهى صيغة الماركسية ، أو الشيوعية ، وفيها النقد للمجتمع والاستغلال الرأسمالى الطبقى .

كل هذا كان واردا . وقد مشى عشرات المثقفين العرب فى هذه السبيل .

لماذا اختط حزب البعـث طريقا خاصـا به؟! . . هذا أمر لم نتحـدث فيه ، لأننا لانريد الدعاية . . ولكن ، بعد أكثـر من ثلاثين سنة مـن نشوء الحزب ، علينا أن نذكر ذلك ، ونقول : إن الفضل فى ذلك يرجع إلى اكتشافنا الإسلام .

إن المسلـم لايكتشـف الإسلام . . وكـذلـك البعيـد عن الإسـلام . الـذى يكتشف ينبغى أن يجمع بين الاستعـداد النفسى وبين الجدَّة . . أى ذلك الذى لم تضعف العادة والألفة حسـاسية عينيه وأذنيه . . فالمسلم الـذى نشأ فى بيت مسلم منـذ طفولته ، واعتـاد سماع الكلام عن الإسـلام ، يتكون عنده نـوع من الضعف فى رهافة الحس والذهن ، فـلا يرى الجديد فى هذا الكلام ، ولا يدرك المعنى العميق والهزة الروحية . . كما يحصـل حين يهزك الكلام الـذى تسمعـه لأول مرة .

ولكن، هل اكتشاف الإسلام وقراءته قراءة جديدة، هو، فقط، أن شخصا وضع جهده وقرأ الإسلام قراءة جديدة؟

لا، فهناك ظروف موضوعية للأمة العربية . . للثورة العربية، هى مواجهة الاستعمار الغربى والحضارة الغربية، والسؤال عن سبيل الخلاص؟ عن كيفية الإنقاذ؟ كيف نتحرك ؟ كيف نتقدم؟ هل بالشيوعية؟

قرأنا الإسلام . . بعد قراءة الشيوعية . . بعد مواجهة التحدى الاستعمارى الغربى وحضارته، وبعد الاطلاع على الحل الشورى الشيوعى الآتى من الغرب أيضا ، فهى، إذن ، قراءة من خلال موقف مصيرى من تحديات الاستعمار والحضارة الغربية، ومن تحديات الفكر الشيوعى .

المهم هو هذه الصورة التى انطبعت أثناء القراءة الجديدة للإسلام، والتى أعطت أشياء أساسية، بعضها واضح، وبعضها واقع بين الوضوح والإبهام!

إن الأمة التى يختارها القدر لتكون مسرحا لمثل هذه التجربة، البشرية السماوية، هى أمة حكم عليها، وإلى الأبد، أن تكون متميزة عن باقى البشر، لأنها ذاقت طعم شىء لم يشاركها أحد فيه . . إنها لايمكن أن تستطيب شيئا أقل من مستوى الوحى الإلهى . . الشىء السماوى، الذى هو ، أيضا، بشرى ومتجسد فى عقل بشرى واضح .

عندما نضع يدنا على هذه الميزة التى للأمة العربية، بهذا الوضوح وبهذه الواقعية، وهذه القوة، فلا شك أنها توحى بطريق خاص للثورة العربية، ليس المطلوب فيه أن نخالف العقل البشرى، أو نخالف العصر، والقوانين العلمية . فمن ضمن قوانين العقل والعلم يعطى هذا الاكتشاف لحركة الثورة العربية خصوصية . . يعطيها مستوى، وأخلاقية معينة . . كما يعطيها سعة إنسانية، وكونية . . يعطيها اتساعا وشمولا . .

لا أريد القـول إن الأفكار كـانت كلها جـديدة. لأنها فى الجو العـربى . . ولكن الحزب كثفهـا وأحس بها بقـوة أكبر، انبعثت كلها مـن لحظة اللقـاء مع التجربة الخالدة.

الأمة العربية لها رسالة لا تستطيع التنازل عنها وتبنى غيرها. فالأمة العربية شغلـت بحضـارتها ثلث التـاريـخ البشرى، وكـانـت هذه الحضـارة إحـدى الحضارات الإنسانية الثلاث المؤثرة . .

فالتراث وحـده يعطى الأمة شعورا بـالوحدة، كما يعطيها حـق الطموح إلى حمل الرسالة . . قراءة التراث تعطـى للثورة فى العالم، ولثورات العصر، بما فيها الثورة العربية، نسبية معينة، لأنها جميعا ثورات بشرية، بحدود طاقة الإنسان، مهما بلغت هذه الطاقة. وتجربة الأمة العـربية، من خلال الإسلام، فيها شىء مطلق . . فى حين أن كل شـىء آخر نسبى، قد يعيـش عشر سنوات، أو مائة سنة . . ولكن ليس فيه الخلود . .

هذا بالذات أعطانا جـرأة معينة لنقد الشيوعية. تجاوزنا أوضاعنا القومية، إلى الأوضاع الإنسانية عامة. أى أن نقـدنا للشيوعية لم ينحصر فى أن الشيوعية لاتلائمنا كعرب، بل تعداه إلى الكشف عـن النقص الأساسى فى هذه النظرية بالنسبة للعرب ولغيرهم.

وعندما نقول : إن القومية شـىء خالد، وأن الشيوعية قفزت مـن فوقها، وأرادت أن تحطمهـا، فـإننا نكـون قـد وصلنـا إلى أن نكتشـف شيئا لـه صفـة الشمول، بالمعاناة كأمة وكعرب، تأتـى نظرية ثورية وتدعى أنها تقدم لنا الحل للخلاص، ولكن بثمن باهظ لايمكن أن نقبل به . . أن نعتبر قوميتنا مرحلة، وشيئا من مخلفات الماضـى . . فتقرير حقيقة العامل القومـى شىء إنسانى . . وهو شىء عام وليس خاصا . .

من الطبيعى أن نكتشف حقيقة ثانية، لاتقل أهمية عن الأولى، وهى حقيقة الدين. فطريق البعث كان نتيجة اكتشاف الإسلام. وهذا شىء إنسانى، لاينحصر بالعرب، لأن الدين حقيقة إنسانية. إلا أن عوامل سلبية قد تطرأ عليه فتشوهه، وتضعفه، وتزيفه، وتجعله أحيانا عامل تخلف، وعامل استغلال وعبودية، ولكنه فى الأساس شىء إيجابى موجود فى أعماق النفس البشرية.

استلهام التراث يعطى الثورة شيئا مميزا، هو أخلاقية متميزة.. »(٩).

هكذا، بسط ميشيل عفلق ـ فى أول مناسبة يفسح فيها المكان من فكره لهذه القضية ـ بسط الحديث عن دور اكتشاف «الإسلام: الحضارى» ـ الممتزج «بالإسلام: الدين»، فى تميز الخيار البعثى.. وكيف كان هذا الخيار، ذو المرجعية الإسلامية، حتمية اقتضتها المواجهة مع هيمنة الحضارة الغربية على بلادنا.. إذ لا خلاص ولا إنقاذ من هيمنة الغرب إذا نحن انضوينا تحت خيارات المهيمنين!..

● وفى سنة ١٩٧٧م.. يعود ميشيل عفلق، فيطرق ذات المبحث.. منبها على أن مكانة الإسلام ودوره فى تحديد المنطلقات البعثية وفى تميز خياراته، وحجمه فى مرجعية المشروع الحضارى البعثى.. قضية لم تعط، فى أدبيات البعث وفكره، القدر الواجب لإيضاحها وتطويرها.. فيكتب قائلا عن الموقف من «التراث والإسلام».

«.. لقد كانت اللحظة التاريخية فى حياة الثورة العربية المعاصرة: سلامة الاختيار.. ولم يكن الاختيار بين روح ومادة، بل بين مادة مستقلة مسيطرة، ومادة نابعة من الروح، وتابعة لها. والروح، فى تفكيرنا، ليست شيئا غيبيا

---

(٩) مجلة [آفاق عربية]: ص ٥ ـ ٧. عدد إبريل سنة ١٩٧٦م.

ولاسحريا يناقض منهجنا العلمى، وإنما هى الوعى، وهى الإرادة والأخلاق وكل النزعات التى تشدنا إلى الخير والجمال والتضحية والبطولة، وهى الإيمان بالحقيقة والعدالة والحرية . . .

وقد كان الموقف من التراث القومى، وعلاقته بمرحلة الانبعاث القومى المعاصرة، معبرا عن أحد الاختيارات الكبرى لفكر البعث، وقد قام منذ البدء على تصور ثورى للإسلام. . لذلك لم يكن غريبا أن يعود الحزب بين الحين والآخر يؤكد على منطلقاته الأساسية التى لم تعط الاهتمام الذى تستحقه، ولم يستخرج منها كل العبر الكامنة فيها، كالموقف من التراث والإسلام. . »[١٠] . .

● وعندما يُسْأل ميشيل عفلق، فى «مدرسة الإعداد الحزبى» ـ عقب إحدى محاضراته فيها ـ عن نطاق حديثه حول صلة العروبة بالإسلام. . هل هو النطاق التراثى التاريخى؟ فهى «صلة ذكريات»؟! . . أم أنها ـ هذه الصلة ـ لاتزال قائمة وحية ومتجددة؟! . . تأتى إجابته لتؤكد على دوام وتجدد الصلات بين العروبة ـ النسبية ـ وبين الإسلام ـ المطلق ـ على النحو الذى يميز عروبتنا عن غيرها من القوميات . .

لقد سئل :

ـ «تؤكدون باستمرار على صلة العروبة الحية بالإسلام، هل هى صلة ذكريات؟ أو امتداد؟ أو تجديد؟ . . »

فكان جوابه :

---

(١٠) المرجع السابق: عدد مايو سنة ١٩٧٧م ـ خطاب ٧ من إبريل سنة ١٩٧٧م ـ .

ـ «سأختصر ، لأن هذا الموضوع طرقته أكثر من مرة، وهنا فى هذا المكان بالذات.

. . الصلة، كما نراها ونؤمن بها ، هى صلة عضوية بين العروبة والإسلام، لايمكن أن تنفصم، صلة تاريخ، وهى مستمرة منذ القديم، حية لاتموت، وهى أيضا ـ ونظرة الحزب ركزت على ذلك ـ صلة تجديد، أى أننا لنا فهم ثورى للإسلام. ونرى أيضا ونعتقد بأن نشوء حركات إصلاحية وثورية فى الدين تنفض الغبار عن حقيقة الدين، وتعيد إليه إشعاعه وحيويته، أعتقد أن هذا ضرورى فى حركة الثورة العربية، وأعتقد أنه سيحصل بشكل حتمى. الأمة عندما تنهض وتدخل فى طور الإبداع ، فإنها تنهض وتبدع فى كل مجالات الحياة، ولاتقتصر على ناحية واحدة، والدين من أهم مجالات الحياة. . الحياة الروحية فى الإنسان لها أهميتها الكبيرة. .

لذلك ، بمقدار ماتتقدم مسيرة الثورة العربية، نجد أن الفكر الدينى يصبح أكثر إشراقا. . أكثر تجددا. . أكثر تحررا، يذهب إلى اللب وإلى الحقيقة، ويتخلى عن القشور وعن العقلية الحرفية الجامدة. النهضة العربية ستكون نهضة شاملة. . نهضة فى الفكر، ونهضة فى الدين، ونهضة فى الفن، ونهضة فى البناء المادى والاقتصادى . ولذلك كانت نظرة الحزب إلى هذه الصلة. . صلة العروبة بالإسلام بأنها هى بصورة خاصة صلة تجديد. . أى أننا نستمد من فهمنا الثورى لحركة الإسلام قوة ثورية لتجديد عقليتنا ولتجديد أوضاعنا الفكرية والاجتماعية والقومية.

وهنا، أحب أن أشير إلى فكرة عزيزة على، وهى أن أمتنا قد عرفت عند ظهور الإسلام مالم يتسنّ لآية أمة أخرى أن تعرفه . . عرفت تجربة مطلقة، وبقى شىء من هذه الذكريات فى نفس كل عربى حتى الآن، وسيبقى ذلك

طويلا إلى المستقبل البعيد . . . نحن، كعرب، عندنا هذا الرصيد الروحى . . هذا التراث، إذا حرصنا على أن نُبقى صلتنا حية بيننا وبينه، وخاصة نحن كحركة ثورية، أن نستلهم هذا التراث بقيمه الروحية والأخلاقية السامية، فإننا نعطى لثورتنا العربية ضوابط أخلاقية، وجوًّا فيه هداية، وفيه ردع، وفيه ضوابط كثيرة نحن بحاجة ماسة إليها . . لذلك قلت ـ [فى مقال « آفاق عربية» فى العام الماضى] ـ : بأن ثورات العصر ثورات نسبية، والثورة العربية كذلك ثورة نسبية، ولكنها إذا حرصت على صلتها بالتراث الخالد فإنها تستطيع أن تدخل إلى جوها شيئا من المطلق . . أى من الضوابط الأخلاقية الرفيعة . . »[11] .

لقد تعانقت فى المرجعية التراثية للمشروع النهضوى، عند ميشيل عفلق، «التجربة . . والحركة»، أى «الإسلام : الحضارى» . . مع «المطلق . . والخالد» . . أى «الإسلام : الدين» . . بل وتحدث عفلق عن ضرورة أن نستمد من الإسلام الحضارى القوة الثورية لتجديد عقليتنا، ولتجديد أوضاعنا الفكرية والاجتماعية والقومية . . وعن ضرورة اتخاذ التراث الروحى ـ الإسلام ـ ضابطا ورادعا للثورة والثوار فى واقعنا العربى المعاصر؟! . . فالأمة العربية، التى شرفت باقتران نهضتها الأولى برسالة الإسلام . . لا تستطيب، فى نهضتها الحديثة والمعاصرة، شيئا أقل من الوحى الإلّهى ! . .

● وبعد أن كان ميشيل عفلق يتحدث عن الإسلام الحضارى باعتباره المفصح عن العروبة ـ وهى سابقة عليه ـ وعن عبقرية الأمة . . غدا يتحدث عنه باعتباره « المكوِّن للأمة» . « . . فالشعب العربى . . شعب واسع . .

---

(11) [فى سبيل البعث] : جـ٣، ص ٨٤، ٨٥ ـ «بناء المناضل» ـ ١١ ـ ٥ ـ ١٩٧٧م .

رحب . . لاتكتنفه العقد . . وهو منفتح متسامح ، مستقر على أرضه ، غير مشرد وغير تائه ، مؤمن بالمستقبل ، وواثق بهذا المستقبل مهما حدث . . فهو إنسانى بعقيدته وبتكوينه أيضا ، وبامتداد رقعة وطنه . . » .

وكل هذا الذى اكتسبه الشعب العربى وتميزت به الأمة العربية هو من ثمرات الإسلام وبفضله إذ ـ كما يقول ميشيل عفلق ـ «**بدون الإسلام ، كان يمكن لهذا الشعب العربى أن يبقى بعقلية قَبَلِيَّة ! . .** » . وبرغم سبق «العروبة» للإسلام . . فإن النهضة العربية الأولى ، التى اقترنت برسالة الإسلام الدينية هى «**التى كونتهم كأمة**»[١٢] !

● وبعد أن كان « الإسلام : الحضارى» مجرد مكوِّن من مكونات القومية العربية . . وتراث روحى ينهض بتغذية العروبة . . وهو مُتضَمَّن فيها . . وهى التى تعبر عنه . . بل ولقد غدت مغنية عنه ، لأنها هى وحدها المحرك للأمة فى مشروع النهضة المعاصرة ، كما كان الدين هو المحرك لها فى نهضتها الأولى . .

بعد أن كان هذا هو فكر عفلق وكانت تلك هى صياغته لعلاقة العروبة بالإسلام فى معادلة علاقتهما ، إبان المرحلة السابقة على عقد السبعينات . . أصبح يتحدث عن الإسلام باعتباره «**أهم وأعمق حقيقة فى تكوين القومية العربية . . فهو جوهر العروبة والمحور والروح للمشروع الحضارى . . ومصدر إلهام النهضة المعاصرة** . . » . .

«فمن أجل قوميتنا ، ولكى يكون مجتمعنا صحيحا سليما ، أكدنا ضرورة الدين ، وأنه حاجة ملازمة للنفس الإنسانية التى تلبى مطلبا عميقا وأساسيا فيها ، وأن الدين خالد . . وهكذا كان الدين الحقيقة الإنسانية الثانية التى

---

(١٢) [آفاق عربية] : ص ٨ ، ٩ . عدد إبريل ، سنة ١٩٧٦م .

أكدها الحزب منذ بدايته، فى وقت كان الفكر المادى الإلحادى يغزو عقول الشبيبة العربية، مستغلا ظمأ هذه الشبيبة إلى التحرر والانعتاق وإلى الثورة والتجديد.

ومن أجل قوميتنا، ولكى تكون صحيحة وصادقة ومكتملة الجوانب والأبعاد الروحية والأخلاقية والحضارية، نظرنا إلى أعماق هذه القومية وإلى جذورها والينابيع التى تنهل منها، فوجدنا الإسلام أهم وأعمق حقيقة فى تكوينها وأنه روحها وأفقها الأخلاقى والإنسانى. لقد طرح فكر البعث ذلك كله فى وقت شاعت فيه الدعوات التى تنكر القومية والدين أو تشوههما وتستغلهما، وفى وقت كانت فيه الاشتراكية مطروحة كنقيض للقومية، وتيار الثورة والتجديد نقيضا للاستقلالية والأصالة والتراث الروحى..»(١٣).

لقد رأى عفلق «أن الإسلام هو الذى يكون أولى مقومات الشخصية العربية(١٤).. وبالنسبة للثورة العربية، فإنه هو الذى يكون روحها، وقيمها الإنسانية، وأفقها الحضارى.. إنه جوهر العروبة، وملهم ثورتها الحديثة.(١٥).. ولذلك، فإن من الطبيعى أن يحتل الإسلام، كثورة عربية فكرية أخلاقية اجتماعية ذات أبعاد إنسانية، أن يحتل مركز المحور والروح فى هذا المشروع الحضارى الجديد لأمة واحدة ذات تاريخ عريق ورسالة حضارية إنسانية..»(١٦).

---

(١٣) [فى سبيل البعث] جـ٣، ص ١٨١، ١٨٢ـ «معركةالمستقبل العربى» ـ ٧ من إبريل سنة ١٩٨١م ـ.

(١٤) المصدر السابق: جـ٣، ص ٢٨١ـ «من أجل عمل عربى مستقبلى» ـ ٧ من إبريل سنة ١٩٨٦م ـ.

(١٥) المصدر السابق: جـ٣، ص ١٨٤، ١٨٥ ـ «معركة المستقبل العربى» ـ ٧ من إبريل سنة ١٩٨١م ـ.

(١٦) صحيفة [الثورة] العراقية ٦ ـ ١١ ـ ١٩٨٥م ـ عن حديث عفلق مع مجلة [الطليعة العربية] ـ عدد نوفمبر، سنة ١٩٨٥م.

وإذا كـان الإسلام هـو «الثقافـة القـومية الموحـدة للعرب ، على اختـلاف أديانهم ومذاهبهم فـإن مبادئه الإنسانية وقيمه الأخلاقيـة والحضارية هى روح العروبة ومصدر إلهامها الدائم المتجدد. تلك هى نظرة البعث للإسلام . وهى نظرة علمية مضاءة بالحب . فالبعث ـ [كما يقـول ميشيل عفلق] ـ هو قبل كل شيء : «حـب للعروبـة وحب لـلإسلام ! ! . . » . وهـذا الارتباط بين العـروبة والإسلام ، هو واقـع حى تعيشه الأمة ، وتتنفسه «كالهواء» ، ولايحتـاج فى إثباته إلى براهين وأدلة . . إنه نتاج القرون والأجيال . ولكنه قبل كل شىء ، هو إرادة إلهية طبعت الحياة العربية ، وهو قد ظـل أيضا بالنسبة للشعوب الإسلامية غير العربية بمثابـة الحقائق البدهية . . فالقومية العربيـة قائدة فى خدمة الإسلام ، وتدميرها ليس إلا ضربا لمصلحة الإسلام فى الصميم ! . . »[١٧] .

ويعلـل ميشيل عفلـق اهتـداء صيغـة البعث إلى «الإسـلام : الحضـارى» كمرجع لقوميتنا ومشروعنا الحضارى ، بنشأة هذه الصيغة فى ظرف موضوعى ، سيطـرت عليه حـدة الصراع الحضـارى بين أمتنـا وبين الحضارة الغـربيـة . . فالعرب الذين تبنوا صيغة القومية العـربية المجردة من الإسلام قد صنعوا ذلك إبان الصراع مـع الدولـة العثمانية ـ ذات المشروعيـة الإسلاميـة . . والشعارات الإسلامية ـ أما المرحلة التى أعقبت ذلك ، والتى نشأ فيها البعث ، فلقد تميزت بهيمنـة الغـرب وصراعـه الحضـارى ضـد أمتنـا ، بسبب تـدينهـا وتحصنهـا بالإسلام . . فـالإسلام هو هويـة الأمة وسلاحها الحضـارى فى هذا الصراع . . ومن ثـم ، كانـت له هـذه المكانـة المرجعية فى هـذا المشروع الحضارى القـومى الجديد . .

---

(١٧) [فى سبيـل البعث] : جـ ٥ ، ص ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٢ ـ «العراق قـدر بطـولى» ـ ٧ مـن إبريل، سنة ١٩٨٧م ـ .

« . . إن حركة البعـث وجدت فى فترة تاريخية فاصلة بين مـرحلة استنفدت أغراضها ، ومرحلة مضطربة قلقة ، ورؤيتها للمستقبل غير واضحة .

المرحلة التى استنفدت أغراضها ، كانت مـرحلة القومية العربية المجردة ، التى اقتضاهـا الصراع التحررى ضد الهيمنة العثمانية ، فلم تكـن تستطيع رفع شعار الإسلام ، الذى كان هو شعار الدولة المهيمنة . واستمرت الحال حتى بعد أن زالت الظروف التى استوجبت ذلك .

واستجـدت ظروف هيمنـة الاستعمار الغربـى على الأقطار العـربية ، هـذه الظروف التى أعـادت الأمور إلى نصابها ، حين أعادت الإسـلام إلى العروبة . . إلى القوميـة لضرورة المواجهة الحضارية مـع الاستعمار الغربى . . لقد تـم ذلك بنظرة إلى التقدم . . ونظرة إلى الإسلام . . ولدت منهما نظـرة جديدة للإسلام ، كثورة عربية إنسانية حضارية ، قابلـة للتجدد والانبعاث فى كل مرحلة تاريخية مصيرية من حياة الأمة العربية .

وهكذا ، بـدأ طريـق المستقبل العربـى يزداد وضوحـا ، فهو لايبنـى إلا من خلال الثورة باتجاه التقدم ، ولكن باستلهام الأصالة التى تجسدها ثورة الإسلام ، بواقعها العربى ، وجـوهرها الإنسانى ، وأبعادها الحضاريـة . . لنهضة تاريخية يكون الإسلام ، بمفهومه الثورى ، مصدر إلهامها . . »[١٨] .

هكـذا حدد ميشيـل عفلق الظـرف الموضوعـى الـذى استدعـى مرجعيـة الإسـلام فى المشروع الحضارى القـومى ، بعـد أن حجبتـه عنه ظـروف الصراع «العـربى ــ العثمانـى » . . وهذا الظـرف كـان الصراع الحضارى بين الغـرب الاستعمارى وبين الأمة العربية ، والإسلام فى مركز أسباب هذا الصراع ! ! . .

---

(١٨) المصدر السابـق : جـ ٣ ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١ ـ «من أجل عمل عـربى مستقبلى» ـ ٧ من إبريل ، سنة ١٩٨٦م ـ .

وإذا كانت هـذه الحقيقة التى أشار إليها وأفاض فى الحديـث عنها ميشيل عفلق ـ وخاصة عندما كان يتحدث عـن الغزو الفكرى الغربى لأمتنا العربية ـ فإننا نتساءل اليوم ، بعد أن وضحت فى أفـق المتغيرات الدولية التى تعاظمت فى نهاية عقد الثمانينيات وبداية عقد التسعينيـات من هذا القرن العشرين . . بعد أن وضحت معالم وحدة الحضارة الغربية ، كنموذج حضارى تعود إليه وحدته ، ذات الطابـع الليبرالى ـ بعد طى صفحـة الانشقاق الشمولى فى هـذه الحضارة ـ . . وبعـد اتجاه أحـلاف ومـؤسسـات هـذه الحضـارة ــ العسكـريـة . . والاقتصادية . . والسياسيـة . . والفكرية ـ إلى الوحدة . . وبعـد غروب شمس الصراعات الحادة داخل محاور هذه الحضارة . . وتوجه قواها ودولها ومؤسساتها الرئيسة نحـو المواجهة المرتقبة والقادمـة مع الإسلام وعالمه وأمتـه ـ أو على الأقل الرغبة والتخطيط لتكون الحركة فى هذا الاتجاه ـ . .

نتساءل : ألا تدعو هـذه المتغيرات . . التى تبرز ، على نحو غير مسبوق ، حـدة الصراع الحضـارى بين « الغـرب : الحضـارى» وبين « الإسـلام : الحضارى» . ألا تدعو التيـار القومى العربى . . وكل التيـارات القومية فى عالم الإسلام إلى الإمسـاك بالخيط الـذى التقطه ميشيل عفلـق ـ أبرز مفكـرى التيار القـومى العـربى المعـاصر ــ لمواصلة السير على الطـريـق الذى حـدد الرجـل معالمه؟! .

إن وزيـر الخارجية الإيطـالى « جيـانى ديميكليـس» ، عندمـا تسـأله مجلـة «نيوزويك» الأمريكية ـ بوصفـه رئيس المجلس الوزارى الأوربى ـ عن مبررات بقاء «حلف شمال الأطلنطـى» ـ الناتو ـ بعـد زوال المواجهة بين الغرب الليبرالى والمعسكر الذى كـان اشتراكيا . . يجيب الرجل قـائلا : « صحيح أن المواجهة مع الشيوعية لم تعـد قائمة . إلا أن ثمة مواجهة أخـرى يمكن أن تحل محلها بين العالم الغـربى والعالم الإسـلامى » . . ثم هـو يحدد ، فى ذات الحديث ، شروط

الغرب للعدول عن مواجهة العالم الإسلامى بحلف شمال الأطلنطى . . فإذا هى خضوع العالم الإسلامى حضاريا ، بقبوله النموذج الحضارى الغربى كخيار حضارى له . . فيقول ـ جوابا عن سؤال :

ـ « كيف يمكن تجنب تلك المواجهة المحتملة»؟

ـ «ينبغى أن تحل أوربا مشاكلها ، ليصبح النموذج الغربى أكثر جاذبية وقبولا من جانب الآخر فى مختلف أنحاء العالم . وإذا فشلنا فى تعميم ذلك النموذج الغربى ، فإن العالم سيصبح مكانا فى منتهى الخطورة[١٩]!! . . » .

فهل هناك ، أمام هذه المخاطر الحضارية المحدقة بأمتنا والمهددة لوجودنا . . والتى تشهد عليها آلاف الشواهد ـ من مثل حديث وزير الخارجية الإيطالى ـ . . هل هناك أمام الوطنى والقومى ، فى وطن العروبة وعالم الإسلام ، سبيل آخر غير استلهام « الإسلام » مرجعا حضاريا ، وحصنا للأمة ، وسياجا للنهضة ، فى هذه المواجهة الحضارية المفروضة ، والتى تعمل لها ولاتستحى من الإعلان عنها مؤسسات الغرب العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية بكل الوسائل وجميع اللغات؟! . . هل هناك سبيل غير تطوير الموقف الذى اتخذه ميشيل عفلق ، عندما تبنى الإسلام سياجا حضاريا للأمة فى هذا الصراع الحضارى مع الغرب . . ومواصلة السير على هذا الطريق؟! . .

● ولهذه الحقيقة من حقائق « الوعى الحضارى» عند ميشيل عفلق . . والتى برزت فى مشروعه الفكرى ، عندما عرض لصراع الغرب ضد أمتنا ، بسبب تميزها وتميز خيارها الحضارى بالإسلام . . لهذه الحقيقة جاءت إشارات الرجل إلى الإسلام باعتباره : الدين . . والقومية . . والوطن . . والوطنية . .

---

(١٩) مجلة « النيوزويك» الأمريكية ـ عدد٢ يوليو سنة ١٩٩٠م . . والنقل عن مقال الأستاذ فهمى هويدى « الغرب والإسلام . . من يعادى من ؟» [الأهرام] ٧من يوليو سنة ١٩٩٠م .

والثقافة القومية . . وأثمن شيء فى العروبة . . والحضارة . . والحرية . . حتى لقد رفع شعار : [الإسلام أولا] . . وأعلن : إنه قد كان يحب الإسلام كثمرة لحبه للعرب . . أما الآن ، فلقد أصبح الحب للإسلام . . وما العرب إلا أمة الإسلام . . وما العروبة إلا ضرورة لنصرة الإسلام ! . .

تحدث ميشيل عفلق عن هذه المعانى ، التى ازدانت بعباراتها كتاباته فى هذا الطور الأخير من حياته الفكرية والنضالية . . فقال :

« . . وعندما أقول : عروبة ، تعرفون بأننى أقول : الإسلام ، أيضا ، لا ، بل أولا : العروبة وجدت قبل الإسلام ، ولكن هو الذى أنضج عروبتنا ، وهو الذى أوصلها إلى الكمال ، وهو الذى أوصلها إلى العظمة ، وإلى الخلود . . هو الذى جعل من القبائل العربية أمة عربية عظيمة ، أمة عربية حضارية . فالإسلام كان ، وهو الآن ، وسيبقى روح العروبة ، وسيبقى هو قيمها الإنسانية والأخلاقية والاجتماعية . هذا هو الإخلاص للشعب ، هذا هو حب الشعب ، هذه هى الحقيقة .

صحيح أننا نصل إليها فى المطالعة وفى قراءات التاريخ ، ولكننا نصل إليها بصورة أعمق وأصدق عندما نقترب من شعبنا ، ونصغى إلى دقات قلبه وإلى خلجات ضميره ، إلى هذا الترادف ، هذا التمازج بين العروبة والإسلام . . فالوطنية . . هى العروبة بعينها . . والعروبة ـ هى الإسلام فى جوهره[٢٠] ! . .

لقد نمت البذور الأولى للبعث فى عهد الكفاح الوطنى ضد الاستعمار الفرنسى ، الممثل فى ذلك الحين للغطرسة الغربية ، وللتعصب العنصرى

---

(٢٠) [فى سبيل البعث] : جـ٥ ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ ـ « الوطنية السودانية هى العروبة والعروبة السودانية هى الإسلام » ـ ١٤ ـ ١ ـ ١٩٨٢م ـ .

والدينى ضد العروبة والإسلام . . فكان صراع أمتنا مع الاستعمار الغربى صراع حضارة وتاريخ وتراث وعقيدة. فكان رجوع البعث إلى الإسلام، فى مواجهة الطغيان الغربى الحضارى رجوعا طبيعيا وعفويا لم يحتج إلا إلى الحس الصادق. وتلك بداية الطريق التى أعطت الحزب أصالته الراسخة . .

لقد وجد الحزب فى معين الإسلام الذى لا ينضب ، أول ما وجد، عروبة الإسلام، العروبة كهوية، وطبيعة، وأرض، ولغة، وتاريخ، والعروبة كشعب ومجتمع فى حالة مخاض وتحفز ، والعروبة كثورة، فجرها الإسلام، فأصبحت ثورة إنسانية عالمية، وأعظم ثورة فى التاريخ البشرى، والعروبة كرسالة خالدة، لأن الإسلام ، وهو دين هداية للعالمين، كان العرب أول من حمل مسئولية نشره، وسيظلون مسئولين قبل غيرهم عن حماية ورفع لوائه وتجسيد قيمه فى نهضتهم الحديثة.

وعروبة الإسلام لاتتعارض مع إنسانيته وعالميته ومصدره السماوى، بل تسمو بهذه الحقائق وتشرف وتزداد قوة.

ونعتقد أن أية أمة من الأمم معرضة لأن تجنح إلى الإلحاد، ماعدا الأمة العربية، التى يدخل الإسلام فى نسيج شخصيتها وتاريخها، لأن الإسلام بالنسبة إليها هو : دين، وقومية، وحضارة. وهل يستطيع شعب أن يهرب من شخصيته ، ويتمرد على قوميته، ويتنكر لحضارته؟!.

ولئن وجدت شعوب تنشد الحرية بالانعتاق من الدين، فالأمة العربية تجد حريتها فى الفهم المتجدد للإسلام. . ولذلك . . فإن الدفاع عن الإسلام هو مهمة القوميين الذين يريدون أن يبقى للأمة العربية سبب وجيه للبقاء[٢١]!!.

---

(٢١) المصدر السابق: جـ٣، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٤ ـ «تثبيت الخيارات الأساسية فى النهضة العربية» ـ ٧ من إبريل سنة ١٩٨٤م ـ .

. . إن الإسلام هـو وطن الأمة العـربية الـروحى ، والمادى، بكل مـاتحمل كلمة وطن من معانى حب الأرض والأهل ، وحب اللغة والتاريخ[٢٢] . .

. . بدافع الحب للأمة العربية أحببنا الإسلام ، منذ السن اليافعة . وبعد أن اقتربنا أكثر من فهم الإسلام ، أضحى حبنـا لأمتنا يتلخص فى حبنا للإسلام ، وفى كون الأمة العربية أمة الإسلام ! .

إن ثقة عميقـة تملأ نفوسنـا بأننا أخلصنـا كل الإخـلاص ، طوال عمـرنا ، لأمتنـا ، لمصلحتها ، ولتـاريخها ، ولعقيـدتها ، ولمستقبلها ، وأننـا دوما حيـث العروبة الصحيحة والإسلام الصحيح . إن هذه العـلاقة الحميمة بالإسلام هى من النوع التاريخى ، الموسوم بالتجرد الخالص .

وكان شيئا طبيعيا أن يأخذ هذا الوعى ، وهذه العاطفة كل أبعادهما ، فندرك ما تمثلـه الشعوب الإسـلامية مـن عمق وسنـد للأمـة العربيـة ، ونشعر نحـوها بعاطفة القربى . . »[٢٣] .

هكـذا ، اعتدلـت عنـاصر المعادلـة ـ بين العـروبـة والإسلام ـــ فى المشروع القومى ، كما صاغـة ميشيل عفلق ـ فغدا الإسلام هـو الأول . . والأساس . . الدين . . والوطن . . والقومية . . والوطنية . . والحضارة . . والثقافة . . وسياج الأمة . . وحصنها . . وصبغة التاريخ . . إنه الأب الشرعى للأمة . . ورسالتها ، التى لولاها لما كان لهذه الأمة مبرر للبقاء ! ! . .

---

(٢٢) المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ٢٦٩ ـ « من أجل عمل عربى مستقبلى » ـ ٧ من إبريل سنة ١٩٨٦م ـ .

(٢٣) المصدر السابق . جـ ٣ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ ـ « من أجـل عمل عربى مستقبلى » ـ ٧ من إبريل ، سنة ١٩٨٦م ـ .

« . . لقد ولـد الإسلام فى أرض العـروبة ، وضمن تـاريخها وأهلهـا ، ولكنه أصبح هو أباها ، لأنها ابتداء من الإسـلام ولدت ولادة جديدة ، وأصبحت أمة عظيمـة تاريخيـة ، لها دور أسـاسى فى تـاريخ الإنسـانيـة ، وفى صنع مستقبـل الإنسانية . الإسلام أعطى للأمة العربيـة هذه الأبعاد . . أعطاها مسئولية الدور الإنسانى العظيم ، وأعطى العرب مذاق الخلود وطعم الحياة الحقيقية ، التى هى جهاد قبل كـل شىء ، وفكرة ومبدأ وعقيـدة ، ولا خوف على العروبة مـادامت مقترنة بالإسلام ، لأنـه كفيل بأن يجددها ويوقظ فيهـا هذه النزعة إلى السماء . . إلى الخلود . . إلى الأفق الكونى . . إلى البطولة وحمل الرسالة . . وعندها تتهاوى الأمراض العالقة والمشاغل المادية والآنية التى لاتليق بأمتنا ولاتعبر عن حقيقتها وحقيقة رسـالتها . . . وبنهـوض الأمة ووحـدتها ، ينتصر الإسلام ويعلـن عن وجهه الحقيقى الإنسـانى السمح الذى تحتـاجه الإنسانية اليـوم كما احتاجته فى الماضى ، وكما ستبقى بحاجة إليه فى المستقبل[٢٤] . .

إن الإسلام هو الذى حفظ العروبة وشخصية الأمة فى وقت التمزق والضياع وتشتت الدولة العـربية إلى طوائف وإلى ممالك ودويلات عـدة متناحرة ، وكان مرادفا للـوطنية وللدفاع عـن الأرض والسيادة والداعى إلى الجهـاد أمام العدوان والغزو الأجنبى ، وسيبقى دومـا قوة أساسية محركة للنضال الـوطنى والقومى . وهـو الذى خـرجت مـن صلبه ، ومـن حـركة التطـور التاريخى فكـرة القوميـة العربية ، بمفهومها الإنسانى السمح ، وهو الذى يحيط الأمة العربية بسياج من الشعوب المتعاطفة معها . .

إن الإسلام هو العامل الصميمى المندمج فى نسيج الأمة ، وفى تاريخها ، وفى حياتها اليومية . . ولايصح تناول الإسلام مـن الموقع الحيادى النظرى السياسى . والشىء الطبيعـى هو أن يكـون انفتاح التيـار القومـى على الإسلام مـوقفا فيـه

---

(٢٤) المصدر السابق : جـ ٥ ، ص ٤١٦ ، ٤١٨ - «نفهم الماضى من خلال تحملنا لمسئولية الحاضر» - ١٣-٨-١٩٨٧م - .

الحرارة والحنين ، والغيرة والحرص ، والاعتراف بالفضل ، وبما يشكله الإسلام من ضمانة مصيرية لقوميتنا ولمستقبلنا كأمة . ومن هذا المنطلق ، يستطيع التيار القومى أن يحاور التيار الدينى المتجرد الوطنى حوار الحب والعقل . . »[٢٥] .

* * *

هكذا . . انتهى ميشيل عفلق . . أبرز مفكرى التيار القومى العربى فى هذا القرن . . وصاحب أبرز المشروعات الحضارية القومية المعاصرة . . انتهى ، بعد أن حدد مكانة الإسلام المرجعية فى المشروع النهضوى . . إلى دعوة التيار القومى إلى :

(أ) الانفتاح على الإسلام من « موقف الحرارة والحنين ، والغيرة والحرص ، والاعتراف بالفضل ، وبما يشكله الإسلام من ضمانة مصيرية لقوميتنا ولمستقبلنا كأمة . . » .

(ب) وإلى « الحوار مع التيار الدينى . . حوار الحب والعقل » . .

وهى رسالة وجهها الرجل إلى التيار القومى فى ختام صفحات مشروعه الفكرى . . وختام سنوات عمره ، الذى قضى منه نصف قرن فى الفكر والنضال . .

وهذه الرسالة مازالت موجهة إلى التيار القومى ، ومعروضة على قادته ومفكريه حتى كتابة هذه السطور ! ! . .

وهى ، أيضا ، موجهة إلى التيار الإسلامى ، الذى وقفت تصوراته للفكر القومى وتياره ومشروعه النهضوى عند الصفحات الأولى ، التى لم تنضج فيها الرؤية القومية للإسلام ! . .

---

(٢٥) [العمل المستقبلى ــ نداء إلى الأمة] : ص ٩٠ ــ خطاب عفلق فى ٧ من إبريل سنة ١٩٨٨ م ــ طبعة بغداد سنة ١٩٨٨ م ــ .

وبعـد ..

فلقد رأينا ـ عبر صفحات هذا الكتاب ـ :

● مكـانـة الإسـلام فى فكر ميشيـل عفلـق . . ودوره المرجعـى فى المشروع القومـى والحضارى الذى صـاغه هذا « المفكر ـــ المناضل» البـارز . . ليصبح فلسفة ونظرية ودليل عمل لفصيل بارز من فصائل التيار القومى العربى . .

● ورأينا ـ عبر هذه الصفحات ـــ : «الثوابت» و«المتغيرات» فى فكر ميشيل عفلق حيـال هذه القضيـة المحوريـة من قضايـا حياتنـا الفكريـة المعاصرة . . ومشروعنا الحضارى المستقبلى . . ونهضتنا العربية الإسلامية المنشودة . .

رأينا ميشيل عفلق :

● مع « التـديـن . . والدين . . والإيمان الـدينى » ـ كمـوقف ثابت ـــ ضد «المادية . . والإلحاد» . .

● ومع « النزعـة الروحية» ، أو « الروحية ـــ الواقعية» ـ كما سماهـا ـ . . التى وإن لم تنكر البعد الغيبى فى الروحانية . . إلا أنها لم تركز عليه بقدر تركيزها على ضرورة الاستفادة من الروحـانية فى تكوين أخلاقية مثالية ، بـل وشبه صوفية ، للمناضلين والثوار . .

● ومع « الإسلام » ـــ الذى آمن به دينـا سماويا ـ . . لكنه بـدأ بالتركيز على

الإنجـاز الحضـارى فيـه . . الإسلام : الحركـة . . والثـورة . . والأخـلاق . . والتراث الروحى الموحد للأمة ، كثقافة قـومية لها ، ومميز لقوميتها عن القوميات الأخرى . . ثم تصاعد الخط البيانى لتطوره الفكرى ـ منذ « الحقبة العراقية » فى حياتـه ، فى عقدى السبعينيات والثمانينيـات ، ليربط « الإسـلام : الحضارى » «بالإسلام : السماوى » ـ مزيج السماء والأرض . . لأن الأمة العربية ـ كما قال ـ «لاتستطيب ماهو أدنى من الوحى الإلهى » ! . .

ورأينا كيـف استدعـى ميشيل عفلق هـذا الإسلام ، لا كمجـرد « تراث ـ تاريخى » و«مجدد لذاكرة الأمة » . . وإنما كمرجعية لمشروعها الحضارى المعاصر ونهضتها المستقبليـة المنشودة . . لأن هذا الإسلام ــ كما رآه ـ هو حيـاة متجددة ومجددة لروح الأمة ومشروعها الحضارى . . وهو قد رفض ، باستدعاء «الأصالة الإسلاميـة » للمشروع «القومـى ـ التقدمـى » ، مذاهـب « الحداثة » ، بـالمعنى الغربـى . . تلك التـى تعمم النسبيـة والمرحلية على كـل المواريث . . فتطـوى صفحة الماضـى . . غير مميزة فيهـا بين « الأصول » و«الفـروع » ، أو «الثوابـت» و«المتغيرات » ، على النحو الذى يقطع التواصل الحضارى للأمة . . فإذا كانت ــ كأمتنـا ــ فى دور الضعف والاستضعـاف ، كـان ذلـك لحساب « القـوى ـ المهيمن ــ الغرب » ، الـذى يملأ بفكـره الغازى مـاتخلقه هـذه «الحداثة » مـن فراغ ! ! .

● ورأينا وعى ميشيـل عفلق ـ الذى يستحـق الإعجاب والتنويه والتقـدير ـ بالطابع الحضارى لصراع الغرب ضد أمتنا العـربية . . وهو الوعى الذى جعله يبصر جيدا دور « العـامل الدينـى » فى هذا الصراع ، فيتحدث عـن «البعد : المسيحـى ـ اليهـودى » فى سمات ومكـونات الحضـارة الغربيـة المعـادية لأمتنـا وحضارتنا . . ويبصر دور الإسلام ، الذى يعادينا الغـرب من أجل كراهيته له

وخشيته مـن منافستـه الحضاريـة لحضارتـه . . يبصر ذلك كلـه ، فى الصراع التـاريخى والحديـث والمعـاصر بين الغرب وبين أمتنـا العـربيـة . . وينبـه على تصاعد تـأثيرات هذا البعد الدينـى منذ قيام المشروع الصهيونـى فى قلب وطن الأمـة العربيـة . . مبرزا دور الإسلام ومكـانته كحصـن وسياج لـلأمة فى هـذا الصراع الحضارى مع الغرب الاستعمارى . .

● وفى إطار هذا الصراع الحضارى مع الغـرب . . رأينا كيف تحدث ميشيل عفلق عـن الإسلام كجامـع ثقافى ، وأداة توحيد قـومى للأمـة ، على اختلاف دياناتها ومذاهبها ، فدعا المسيحيين العرب ـ فى واحدة من أكثر صفحات فكره القومـى روعة و إشراقا ـ دعـاهم إلى جعل الإسلام ثقـافتهم القومية ، بـاعتباره أثمن مافى عروبتهم وقوميتهـم . . فهـو ، بالنسبة لهم ، الثقافة . . والقومية . . والحضارة . . وهى الجوامع الموحدة لهم مع المسلمين ! . .

● ونبه على خطـر الغزو الفكرى والثقافى الغـربى ـ الـذى أعطاه الاستعمار إمكانات السيطرة على مؤسسات العلم والتعليم والفكر والثقافة والإعلام ـ . . خطـر هذا الغـزو على الاستقلال الفكـرى والحضارى للعقـل العربـى ، وعلى المشروع الحضارى العربى . .

فبالفلسفة ، يغزونا الغرب ، ليحل مفاهيمه محل مفاهيمنا المتميزة . .

وبالشيوعية والماركسية ، يغزونا الغـرب ، ليحل ماديتها و إلحادها وطبقيتها وأمميتها محل مايتميز به مشروعنا الحضارى فى هذه الميادين . .

وبالعلمانيـة ، يغزونـا الغرب ، ليجرد قـوميتنا من الإسـلام ، فيحرمهـا من التميـز بالخلـود والإطـلاق والإنسـانية ، التـى اكتسبتهـا مـن التراث الروحـى للإسلام . .

● وفى ميدان علاقة « الإسلام» بـ «العروبة، والقومية العربية». . رأينا ـ عبر صفحات هذا الكتاب ـ ثبات الموقف الفكرى الذى ربط فيه ميشيل عفلق، ربطا عضويا، بين «العروبة» و«الإسلام». . وذلك منذ بداية مشروعه الفكرى وحياته النضالية. . بل لقد رأينا هذا الربط، عنده، سببا فى تميز الخيار الحضارى البعثى على الخيارات الغربية الوافدة، والتى كانت سائدة فى أوساط الفكر والسياسة العربية يومئذ ـ ليبرالية كانت أو ماركسية تلك الخيارات ـ فكان الإسلام ، فى الخيار البعثى ـ كما قال ميشيل عفلق ـ هو الذى حدد الطريق وصنع «لحظة الاختيار !» . .

ثم رأينا تطور « الوزن» و«العلاقة» بين كل من «العروبة» و«الإسلام» داخل هذه المعادلة، عبر مسيرةالتطور الفكرى لميشيل عفلق. .

فبعد أن كان « الإسلام : الحضارى» مجرد ثمرة عربية، أفصحت به الأمة العربية عن رسالتها وعبقريتها ـ كما أفصحت بقوانين حمورابى. . وبالشعر الجاهلى. . وبثقافة عصر المأمون. . عن هذه العبقرية والرسالة فى فترات أخرى . . وكما تفصح، حديثا، بالقومية وحدها عن هذه العبقرية والرسالة. . وبعد أن كان الإسلام مجرد مكون من مكونات القومية العربية، يغذيها بتراثه الروحى ، ويميزها عن القوميات الأخرى . . أصبح الإسلام ـ فى العقدين الأخيرين من حياة ميشيل عفلق الفكرية ـ : الأب الشرعى للعروبة وللقومية العربية، التى ولدت منه ولادة جديدة. . والمكون الأول للأمة ـ التى بدونه كانت ستظل أمة قَبلِيَّة ـ . . وجوهر المشروع الحضارى العربى. . بل لقد أصبح الإسلام هو : الدين . . والوطن. . والوطنية. . والقومية. . والثقافة. . والحضارة. .

وبعد أن كانت «القومية»، وحدها، هى المحرك للأمة فى مشروع نهضتها

الحديثة . . غدا الإسلام خيارا متميزا، ومستقلا، ومزاملا لخيارى : القومية . . والتقدم . . فى هذا المشروع . .

وبعد أن كانت « القومية » هى الجامع . . وكان التشكيك فى صلاح الإسلام كجامع للأمة العربية . . وكجامع لها مع الشعوب الإسلامية غير العربية . . أصبح الإسلام ــ فى التطور الفكرى لميشيل عفلق ــ هو سياج الوحدة للأمة . . تاريخيا . . وحاضرا . . وفى المستقبل أيضا . . بل لقد تحدث عنه باعتباره : مبرر بقاء الأمة العربية الواحدة . . وجوهر رسالتها الخالدة! . .

وبعد أن كان أفق المشروع الحضارى والاهتمام النضالى لميشيل عفلق لا يعدو حدود الأمة العربية ووطنها القومى . . اتسع هذا الأفق ــ فى التطور الفكرى للرجل ـ ليشمل الشعوب الإسلامية غير العربية . . وكثر الحديث عن «خصوصية العلاقة بين العرب والشعوب الإسلامية الأخرى»(1) .

لقد أثمر هذا التطور ، الذى عرضت له صفحات هذا الكتاب : انفتاح المشروع الفكرى لميشيل عفلق على الإسلام ــ «الإسلام : الحضارى» فى علاقته بـ «الإسلام : الدين» ـ . . وانفتاح هذا المشروع القومى العربى على عالم الإسلام والقوميات الإسلامية غير العربية . . والدعوة إلى انفتاح التيار القومى على التيار الإسلامى ، فكانت دعوة ميشيل عفلق فى آخر خطاب ألقاه إلى «الحوار الديمقراطى، المنطلق من الإيمان بوحدة الأمة ، المتحرر من الحساسيات ، والذى ينبغى أن يتسع وأن يتعمق بين البعثيين والناصريين والإسلاميين والماركسيين وسائر القوى الوطنية والقومية ، باعتباره المدخل

(1) [فى سبيل البعث] : جـ ٣، ص ٢٦٩ ـ «من أجل عمل عربى مستقبلى» ـ ٧ من إبريل، سنة ١٩٨٦م ـ .

الطبيعى لبلوغ هذا المستوى الجديد، الكفيل وحده بفتح آفاق العمل المستقبلى على انتصارات جديدة للأمة . . »[٢] .

لقد انفتح التيار القومى، من خلال فكر ميشيل عفلق ومشروعه الحضارى، على الإسلام . . والمسلمين . . والإسلاميين . . كموقف طبيعى، وتطور حتمى للموقف القومى المدرك لمكانة الإسلام فى تكوين الأمة العربية . . وتميز هويتها الحضارية . . وأيضا كضرورة نضالية لا غنى عنها فى هذا الصراع الحضارى الضارى الذى فرضه ويفرضه الغرب الاستعمارى وحضارته العنصرية المتعصبة على وطننا وأمتنا وهويتنا ونهضتنا . .

ورحم الله الرجل، الذى تحدث إلى كل القوميين العرب، بصدق التجربة، وحرارة الإيمان، ونبرة اليقين، فقال :

« . . بدافع من الحب للأمة العربية، أحببنا الإسلام، منذ السن اليافعة . وبعد أن اقتربنا أكثر من فهم الإسلام، أضحى حبنا لأمتنا يتلخص فى حبنا للإسلام، وفى كون الأمة العربية هى أمة الإسلام . .

إن هذه العلاقة الحميمة بالإسلام هى من النوع التاريخى، الموسوم بالتجرد الخالص! . . وإن ثقة عميقة تملأ نفوسنا بأننا أخلصنا كل الإخلاص، طوال عمرنا لأمتنا، لمصلحتها، ولتاريخها، ولعقيدتها، ولمستقبلها، وأننا كنا دوما حيث العروبة الصحيحة والإسلام الصحيح[٣] . .

---

(٢) ص ٢٧ من خطاب عفلق فى الذكرى الثانية والأربعين لتأسيس الحزب - ٧ - ٤ - ١٩٨٩م . طبعة بغداد، سنة ١٩٨٩م . - مطبعة العمال المركزية .

(٣) [فى سبيل البعث] : جـ ٣ ، ص ٢٦٧ - « من أجل عمل عربى مستقبلى » - ٧ من إبريل سنة ١٩٨٦م - .

لقد وجدت العروبة قبل الإسلام، ولكن الإسلام هو الذى أنضج عروبتنا، وهو الذى أوصلها إلى الكمال . . وإلى العظمة . . وإلى الخلود. هو الذى جعل من القبائل العربية أمة عربية عظيمة، أمة عربية حضارية. فالإسلام كان، وهو الآن، وسيبقى روح العروبة، وقيمها الإنسانية والأخلاقية والاجتماعية . . فالوطنية هى العروبة بعينها . . والعروبة هى الإسلام فى جوهره ! . .

لقد ولد الإسلام فى أرض العروبة، وضمن تاريخها وأهلها، ولكنه أصبح هو أباها، لأنها ابتداء من الإسلام ولدت ولادة جديدة، وأصبحت أمة عظيمة تاريخية ، لها دور أساسى فى تاريخ الإنسانية، وفى صنع مستقبل الإنسانية . . لقد أعطاها مسئولية الدور الإنسانى العظيم . . ومذاق الخلود . . وطعم الحياة الحقيقية . . ولاخوف على العروبة مادامت مقترنة بالإسلام، لأنه كفيل بأن يجددها ويوقظ فيها هذه النزعة إلى السماء . . والخلود . . والأفق الكونى . . إلى البطولة وحمل الرسالة . .

إن الإسلام هو الذى حفظ العروبة وشخصية الأمة فى وقت التمزق والتشتت والضياع . . وكان مرادفا للوطنية وللدفاع عن الأرض والسيادة والداعى إلى الجهاد أمام العدوان والغزو الأجنبى . وسيبقى دوما قوة أساسية محركة للنضال الوطنى والقومى .

والإسلام، هو الذى خرجت من صلبه، ومن حركة التطور التاريخى فكرة القومية العربية . بمفهومها الإنسانى السمح، وهو الذى يحيط الأمة العربية بسياج من الشعوب الإسلامية المتعاطفة معها . .

إن الإسلام هو العامل الصميمى المندمج فى نسيج الأمة، وفى تاريخها، وفى حياتها اليومية . . ولايصح تناول الإسلام من الموقع الحيادى النظرى السياسى .

والشيء الطبيعي هو أن يكون انفتاح التيار القومي على الإسلام موقفا فيه الحرارة، والحنين، والغيرة، والحرص، والاعتراف بالفضل، وبما يشكله الإسلام من ضمانة مصيرية لقوميتنا ولمستقبلنا كأمة.. ومن هذا المنطلق، يستطيع التيار القومي أن يحاور التيار الديني حوار الحب والعقل..»(٤)!

هكذا انفتح المشروع القومي، الذي قدمه ميشيل عفلق، على الإسلام.. والمسلمين.. والإسلاميين... وبقي أن تبلغ رسالته هذه كل فصائل التيار القومي العربي.. فينفتح هذا التيار على الإسلام.. والمسلمين.. والإسلاميين.. وأن يبادل الإسلاميون القوميين هذا الانفتاح!!..

* * *

إن الحياة الفكرية، والحركات السياسية، قد شهدت وتشهد ـ عبر الزمان والأوطان ـ العديد من التحولات الفكرية والتطورات الأيديولوجية.. والساحة العالمية اليوم، في ظل المتغيرات الدولية الراهنة، شاهد جيد البرهنة على عمق وشيوع المراجعات الفكرية للفلسفات والأيديولوجيات والمذاهب والسياسات.. بل إن واقعنا العربي، وحركاتنا القومية بالذات، قد عرفت الكثير من هذه التحولات..

فالتيار «الوطني ـ القومي ـ الناصري».. قد عرف في النصف الأول من عقد الستينيات انفتاحا جزئيا على مدارس الفكر الاشتراكي العالمية.. فأخذ منها.. وتأثر بها..

و«حركة القوميين العرب».. انفتحت ـ في نهاية عقد الستينيات ـ على الماركسية، فتبنتها فلسفة ومنهاجا..

---

(٤) [العمل المستقبلي ـ نداء إلى الأمة]: ص ١٠ ـ خطاب عفلق في ٧ من إبريل سنة ١٩٨٨م ـ.

وإذا كان ذلك قد حدث فى مناخ فكرى وسياسى تميز « بجاذبية الماركسية ». واجتذابها لهذه الحركات والتيارات . . فهل يصبح تعاظم المد الإسلامى المعاصر . . ووضوح وتألق وتأكد المشروع الحضارى الإسلامى ، كطوق النجاة لأمتنا من المسخ الحضارى والتشوه المعرفى والتبعية الفكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية والحضارية للحضارة الغربية ذات الطابع العنصرى والاستعلائى والعدوانى . . هل يصبح هذا المناخ الفكرى ، الذى تنحاز فيه جماهير الأمة نحو الخيار الإسلامى ، على نحو لم يحدث من قبل فى تاريخها الحديث . . هل يصبح ذلك ظرفا مواتيا لانفتاح التيار القومى على الإسلام . . والأمة الإسلامية . . والتيار الإسلامى ؟! . .

وهل ينهض التيار الإسلامى بواجبه نحو هذا التحول ، الذى يعيد الوحدة لعقل الأمة وطاقاتها النضالية ، عندما تتقارب وتتعاون قوى الأصالة العربية الإسلامية ، التى تضم الإسلاميين والقوميين ؟!

تلك واحدة من الأمانى . . الممكنة التحقيق . .

ولعل هذا الكتاب أن يكون رسالة مفتوحة إلى القوميين والإسلاميين جميعا . . ودعوة للحركة منهما على هذا الطريق !! .

المصــادر

● **كتابات ميشيل عفلق :**

[فى سبيل البعث ـ الكتابات السياسية الكاملة] : خمسة أجزاء ـ طبعة دار الحرية ـ بغداد ، سنة ١٩٨٦ ، سنة ١٩٨٧م ، سنة ١٩٨٨م .

[فى سبيل البعث] : طبعة دار الطليعة ـ بيروت ، سنة ١٩٧٤م .

[العمل المستقبلى ـ نداء إلى الأمة] ـ خطاب ٧ من إبريل سنة ١٩٨٨م ـ طبعة بغداد ، سنة ١٩٨٨م .

[خطاب ٧ من إبريل سنة ١٩٨٩م] : طبعة مطبعة العمال المركزية ـ بغداد ، سنة ١٩٨٩م .

[نضال البعث] : جـ ١ ـ ١٣ ـ طبعة دار الطليعة ـ بيروت ، سنة ١٩٧٦م .

مجلة [آفاق عربية] ـ بغداد .

مجلة [الطليعة العربية] ـ بغداد .

صحيفة [الثورة] ـ بغداد .

● **كتابات عن ميشيل عفلق :**

د . الياس فرح : [القومية العربية والوحدة العربية أمام تحدى المصير] ـ طبعة بغداد . سنة ١٩٨٨م . : [شهادة . . حية] .

زهير المارديني : [الأستاذ . . قصة حياة ميشيل عفلق] ، طبعة لندن ـ رياض الريس للكتب والنشر ـ سنة ١٩٨٨م .

د . سعد الدين إبراهيم : [المنتدى] ـ نشرة منتدى الفكرى العربى ـ عمان ـ .

مجلة [الوطن العربى] ـ باريس .

صحيفة [الوطن] ـ الكويت .

● **كتابات أخرى :**

فهمى هويدى [الأهرام] ـ القاهرة ـ .

د. محمد عابد الجابرى : [الحوار القومى الـدينى] مركز دراسات الوحدة العربية ـ طبعة بيروت ، سنة ١٩٨٩م .

د. محمد عمارة : [إسرائيـل . . هل هى ساميـة؟] ـ طبعة القاهـرة ، سنة ١٩٦٧م .

الفهـــرس

رقم الإيداع : ٢٢٧٧ / ٩٧
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 09 - 0372 - 8

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

التيار القومي الإسلامي

حتى المؤلف ـ قبل قراءة مصادر هذا الكتاب ـ لم يكن يتوقع أن تكون هذه هي مكانة الإسلام في المشروع القومي العربي.

ولذلك.. سيدهش الكثيرون ـ من القوميين والإسلاميين ـ من الحقائق التي تقدمها ـ مُوَثَّقَةً ـ صفحاتُ هذا الكتاب!..

- إنه دعوة للقوميين كي يعيدوا النظر في مكانة الإسلام بمشروعهم القومي..
- ودعوة للإسلاميين كي يصححوا تصوراتهم عن القومية والقوميين..
- ونداء لتياري الأصالة في أمتنا ـ الإسلاميين والقوميين ـ لتتلاحم صفوفهم، تحت رايات الإسلام والعروبة..

فذلك هو طوق نجاة الأمة من التحديات الشرسة التي تهدد الوجود.. حتى الوجود!